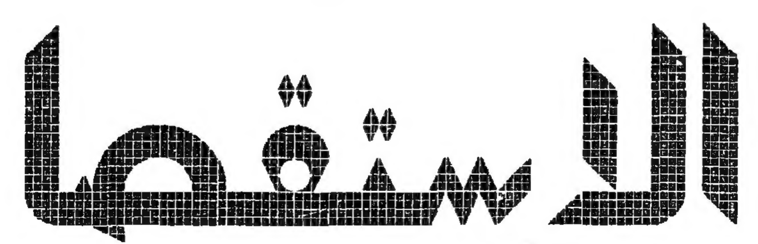
الشيخ ابو العباس احمد بن خالد الناصري

كتاب



الاستقصا

لأخبار دول المغرب الاقصى

الدولة المرينية

القسم الثاني

الجزء الرابع

تحقيق وتعليق ولدي المؤلف صاحبي السعادة :
الاستاذ جعفر الناصري — والاستاذ محمد الناصري

دار الكتاب
الدار البيضاء
١٩٥٥

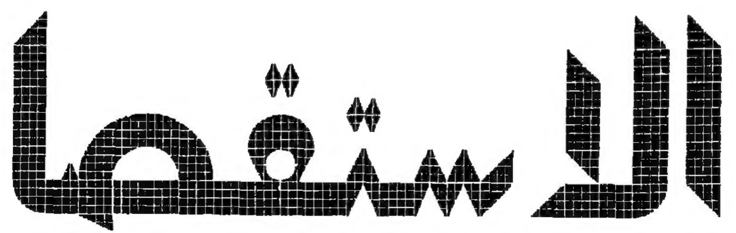
اهداءات ٢٠٠٢

أ.د/ محمد طه الحاجرى

الاسكندرية

الشيخ ابو العباس احمد بن خالد الناصرى

كتاب



لأخبار دول المغرب الاقصى

الدولة المرينية

(القسم الثانى)

الجزء الرابع



تحقيق وتعليق ولدى المؤلف صاحبي السعادة :
الاستاذ جعفر الناصرى — والاستاذ محمد الناصرى .

دار الكتاب
الدار البيضاء
١٩٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الدولة المرينية

القسم الثانى

الخبر عن دولة السلطان السعيد بالله

ابى بكر بن ابى عنان بن ابى الحسن المرينى

هذا السلطان أول من استبد عليه من ملوك بنى مرين . أمه : أم ولد اسمها الياسمين. كنيته : أبو يحيى، وهى كنية كل من اسمه أبوبكر: لقبه. السعيد بالله . صفته : درى اللون مستدير الوجه حسن الانف ألعس الشفتين ، براق الثنايا ، جعد الشعر . بويع وابوه مريض فى التاريخ المتقدم ، وكان محجوبا بوزيره حسن بن عمر الفودودى لا يملك معه ضرا ولا نفعا ، ولما بويع لحق أخوه عبد الرحمن (*) بن أبى عنان بجبل الكاى وكان أسن منه ، وانما آثروه لمكان ابن عمه مسعود بن عبد الرحمن بن ماساى من وزارته ، فبعثوا اليه من لاطفه واستنزله على الامان وجاء به الى اخيه فاعتقله الحسن بن عمر بقصبته من فاس ، وبعث على ابناء السلطان الاصاغر الامراء بالثغور ، فجاء المعتصم من سجلماسة ، وامتنع المعتمد بمراكش وكان بها فى كفالة عامر(*)بن محمد الهنتاتى ، وكان عامر هذا من بيوتات هنتاتة واهل الرياسة والشرف فيهم ، وكان السلطان أبو عنان قد أوصى اليه بولده المذكور وجعله هنالك لنظره ، فلما بعثوا عليه منعه من الوصول اليهم ، وخرج به من مراكش الى حصنه من جبل هنتاتة فجهز اليه الوزير حسن بن عمر الجيوش لنظر الوزير سليمان بن داود مشاركه فى الاستبداد ، وسرحه فى المحرم سنة

(*) عبد الرحمن هذا لم يعده صاحب روضة النسرين فى جملة اولاد السلطان ابى عنان.

(*) انظر ترجمة عامر هذا عند ابن خلدون ج اول طبع الجزائر ص ٣٥٩ والتى تليها

ستين وسبعمائة، فسار الى مراكش فاستولى عليها ثم تخطى الى الجبل فأحاط به وضيق على عامر حتى أشرف على اقتحام الحصن الى ان بلغه خبر افتراق بنى مرين بفاس ،وظهور منصور بن سليمان بها على مانذكره ، فانفض العسكر من حوله وتسابقوا الى منصور فلحقوا به ، ولحق به سليمان بن داود أيضا وتنفس الحصار عن عامر ومكفوله ، والله غالب على أمره

ظهور ابى حمو موسى بن يوسف الزيانى واستيلاؤه على تلمسان ونهوض مسعود بن عبد الرحمن اليه وطرده عنها

كان بنو عامر بن زغبة من عرب هلال خارجين على السلطان ابى عنان منذ استيلائه على تلمسان وكانت رياستهم الى صغير بن عامر بن ابراهيم ، ولما رجع أبو عنان الى فاس اعتزم صغير على الرحلة بقومه الى وطنهم من صحراء المغرب لانهم كانوا منتبذين عنها باطراف افريقية ، فدعوا أبا حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان الى الرحلة معهم لينصبوه للامر ويجلبوا به على تلمسان فأجابهم الى ذلك ، واغذوا السير الى المغرب للعيث فى نواحيه ، فجمع لهم أعداؤهم من سويد وكانوا خالصة لبنى مرين فالتقوا بقبلة تلمسان فانهزمت سويد ، وهلك كبيرهم عثمان بن ونزمار ، واتصل بهم فى أثناء ذلك خبر وفاة السلطان ابى عنان بفاس ، فاغذوا السير الى تلمسان وقاتلوا عليها حامية بنى مرين ثم اقتحموها عليهم لليال خلون من ربيع الاول سنة ستين وسبعمائة ، واستباحوا من كان بها منهم ،وامتلأت ايديهم من أسلابهم ، واستولى ابو حمو على ملك تلمسان واستأثر بما الفاه بها من متاع بنى مرين ومن جملته هدية كان السلطان ابو عنان أعدها هنالك ليبعث بها الى طاغية برشلونة وفيها فرس أدهم من مقرباته بمركب ولجام مذهبين ثقيلين فاتخذ أبو حمو الفرس لركوبه ، وصرف باقى الهدية فى وجوه مقاصده ، ولما انتهى الى الوزير حسن

ابن عمر خبر تلمسان واستيلاء أبي حمو عليها جمع شيوخ بني مرين واخبرهم بالنهوض اليها فأبوا عليه من النهوض بنفسه ، واشاروا بتجهيز العساكر ووعدوه من انفسهم المسير كافة ففتح ديوان العطاء وفرق الاموال واسنى الصلات وازاح العلل وعسكر بساحة البلد الجديد ، ثم عقد عليهم لمسعود بن عبد الرحمن بن ماساي وحمل معه المال وأعطاه الآلة وسار في العساكر والالوية ولما اتصل خبر مسيره بابي حمو أفرج له عن تلمسان ودخلها مسعود في ربيع الثاني من السنة المذكورة فاستولى عليها وخرج ابو حمو الى الصحراء الى ان كان ما نذكره .

ظهور منصور بن سليمان وبيعة مسعود بن عبد الرحمن له وما نشأ عن ذلك

منصور هذا هو منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق ، وكان الناس يرجفون بان ملك المغرب سائر اليه بعد وفاة أبي عنان وشاع ذلك على السنة الناس حتى تحدث به السمر والندمان وخشي منصور على نفسه من ذلك فجاء الى الوزير حسن بن عمر وشكا اليه ذلك فنهاه أن يختلج بفكره هذا الوسواس وانتهره انتهارا خلا عن وجه السياسة فانزجر واستكان . قال ابن خلدون : « ولقد شهدت هذا الموطن فرحمت ذلة انكساره وخضوعه في موقفه » . ثم لما نهض مسعود بن عبد الرحمن الى تلمسان واستولى عليها كان منصور هذا في جملته ، ولما فر ابو حمو الى الصحراء اجتمعت عليه جموع العرب من بني زغبة وبني معقل ثم خالفوا بني مرين الى المغرب واحتلوا بانكاد بحللهم وظواعنهم ، فجهز اليهم مسعود بن عبد الرحمن عسكرا من جنوده انتقى فيه مشيخة بني مرين وامراءهم، وعقد عليهم لابن عمه عامر بن عبد الله بن ماساي وسرحه، فزحف

الى العرب بساحة وجدة فصدقه العرب القتال ، فانكشفت بنو مرين واستبيح معسكرهم واستلبت مشيختهم وأرجلوا عن خيولهم ودخلوا الى وجدة عراة وبلغ الخبر الى بنى مرين الذين بتلمسان وكان فى قلوبهم مرض من استبداد حسن بن عمر عليهم وحجره لسلطانهم فكانوا يتربصون بالدولة الدوائر ، فلما بلغهم هذا الخبر حاصوا حيصة حمر الوحش وخلصوا نجيا بساحة البلد ، فاتفقوا على البيعة ليعيش بن على بن أبى زيان بن يوسف بن يعقوب فبايعوه ، وانتهى الخبر الى مسعود بن عبد الرحمن وكان فى جملته منصور ابن سليمان كما قلنا فاكرهه على البيعة ، وبايعه معه الرئيس الابكم من بنى الاحمر ، وقائد النصارى القهردور ، وتسايل اليه الناس من كل جانب ، وتسامع الملا من بنى مرين بالخبر فتهاروا اليه وذهب يعيش بن على لوجهه فركب البحر الى الاندلس ، واستتب أمر منصور بن سليمان واجتمع بنو مرين على كلمته فارتحل بهم من تلمسان يريد المغرب ، واعترضتهم جموع العرب فى طريقهم فاوقعت بهم بنو مرين وامتلأت ايديهم من اسلابهم وظعنهم ، ثم أغذوا السير الى المغرب فاحتلوا بوادى سبو فى منتصف جمدى الآخرة من سنة ستين وسبعمائة ، وبلغ الخبر الى الحسن بن عمر فبرز واضطرب معسكره بساحة البلد ، واخرج السلطان السعيد فى الآلة والتعبية الى أن أنزله بفسطاطه ، ولما غشيهم الليل انفض عنه الملا الى منصور فاوقد الوزير الشموع وأذكى النيران وجمع الموالى والجند حول الفسطاط حتى أركب السلطان وعاد به الى قصره وتحصن بالبلد الجديد ، واصبح منصور بن سليمان فارتحل فى التعبية حتى نزل بكدية العرائس فى الثانى والعشرين من جمدى الآخرة من السنة المذكورة وغدا على فاس الجديد بالقتال وجمع الايدى على اتخاذ الآلات للحصار ، وانثالت عليه وفود الامصار بالمغرب للبيعة ، ولحقت به كتائب بنى مرين التى كانت مجمرة على حصن عامر بن محمد الهنتاتى ، ولحق به أيضا قائدها سليمان بن داود وكاد أمره يتم وأقام على فاس الجديد يغاديها القتال ويراوحها ، ثم بدا الخلل فى عسكره ونزع عنه الى الوزير حسن بن عمر طائفة من بنى مرين ، ولحق آخرون ببلادهم

ووقفوا ينتظرون مآل أمره ، واستمر هذا الحال الى غرة شعبان فبينما الناس في ذلك اذ ظهر السلطان أبو سالم بجبال غمارة فانصرفت اليه وجوه أهل المغرب ، وبطل أمر السلطانين : أبي بكر السعيد، ومنصور بن سليمان معا، وذابا كما يذوب الملح ، فأما منصور بن سليمان فانه فر الى بادس فقبض عليه وجيء به الى السلطان أبي سالم فقتله ، وأما السعيد فان وزيره الحسن بن عمر لما سمع بظهور السلطان أبي سالم واستفحال أمره نبذ دعوة سلطانه المذكور وبعث بطاعته الى ابي سالم ووعده بالتمكين من دار الملك ان قدم عليه ، فكان الامر كذلك ، وخلع السعيد يوم الثلاثاء الثاني عشر من شعبان سنة ستين وسبعمائة (*) ، ثم قتل بعد ذلك غرقا في البحر ، فان السلطان ابا سالم بعثه في جملة الابناء المرشحين من بني ابي الحسن الى الاندلس ، ووكل بهم من يحرسهم ثم بعد ذلك بعث الى الموكل بهم فحملهم في سفينة كأنه يريدبهم المشرق ثم غرقهم في البحر ، والامر لله وحده

الخبر عن دولة السلطان المستعين بالله
أبي سالم ابراهيم بن أبي الحسن المريني

كان هذا السلطان جوادا ، جم العطاء ، معروفا بالوفاء ، كثير الحياء، كنيته : أبو سالم . لقبه : المستعين بالله . أمه : أم ولد رومية اسمها قمر ، صفته : آدم اللون، معتدل القامة، رحب الوجه، واسع الجبين، بادن الجسم، أعين ادعج، معتدل اللحية أسودها . وكان بعد مهلك والده السلطان ابي الحسن رحمه الله قد استقر بالاندلس. بعثه اليها أخوه أبوعنان كما مر ، ولما مات ابو عنان المذكور وولي ابنه الصبي طمع ابو سالم هذا في الملك ، فاستاذن الحاجب رضوان مدبر دولة ابن الاحمر بالاندلس في اللحاق ببلاده فأبى عليه ، فغاضه ذلك

(*) وكانت دولته سبعة اشهر وعشرين يوما

ونزع عنه الى طاغية قشتالة وتطارح عليه فى أن يحمله الى بر العدوة يطلب ملك ابيه فاسعفه وامر به فحمل فى مركب والقى به ملاحه فى ساحل بلاد غمارة بعد أن تردد في أى السواحل يلقيه ، ووافق ذلك اختلاف الكلمة بفـــاس ومحاصرة منصور بن سليمان للمدينة البيضاء ، فتسامع الناس بخروجه ببلاد غمارة احوج ماكانوا اليه فسايلوا اليه من كل وجه ، وانفض الناس من حول منصور ومشى أهل معسكره بأجمعهم على التعبية فلحقوا بالسلطان أبى سالم واستغذوه الى دار ملكه فأغذ السير اليها . وخلع الحسن بن عمر سلطانه السعيد من الامرلتسعة أشهر من خلافته ، وأسلمه الى عمه فخرج اليه وبايعـــه ، ودخل السلطان ابو سالم البلد الجديد يوم الجمعة منتصف شعبان من سنــة ستين وسبعمائة ، واستولى على ملك المغرب ، وتوافت وفود النواحي بالبيعات وعقد للحسن بن عمر على مراكش ، وجهزه اليها بالعساكر تخففا منه وريبة بمكانه من الدولة ، واستوزر مسعود بن عبد الرحمن بن ماساى والحسن بـن يوسف الورتاجنى ، واصطفى من خواصه خطيب أبيه الفقيه ابا عبد اللـــه محمد بن أحمد بن مرزوق وجعل الى ابى زيد عبد الرحمن بن خلـــدون صاحب التاريخ توقيعه وكتابة سره ، قال : « وكنت نزعت اليه من معسكر منصور ابن سليمان بكدية العرائس لما رأيت من اختلاف احواله ومصير الامــــر الى السلطان أبى سالم فاقبل على وانزلنى بمحل التنويه واستخلصنى لكتابته اه »

قدوم الغنى بالله ابن الاحمر ووزيره ابن الخطيب مخلوعين على السلطان أبى سالم والسبب فى ذلك

قد قدمنا أن السلطان ابا الحجاج قتل يوم عيد الفطر بالمصلى سنة خمـس وخمسين وسبعمائة وولى الامر من بعده ابنه الغنى بالله محمد بن يوسف ، وكان له أخ اسمه اسماعيل فجعله الغنى بالله فى بعض القصور من حمـراء غرناطة احتفاظا به الى ان كان رمضان من سنة ستين وسبعمائة فخرج الغنـى

بالله الى بعض متنزهاته خارج القصبة ، ولما كانت ليلة سبع وعشرين من رمضان المذكور أو ثمان وعشرين منه تسور جماعة من شيعة اسماعيل المحبوس عليه القصبة ليلا وأخرجوه من محبسه واعلنوا بدعوته ، ثم اقتحموا على حاجبه رضوان داره فقتلوه على فراشه وبين نسائه ، وضبطوا القصبة ، واعلنوا بالدعوة ، ولم يرع الغنى بالله الا قرع الطبول بالقصبة فى جوف الليل ، فاستكشف الخبر وتسمع فعلم بما تم عليه من خلعه وتولية أخيه ، فركب فرسه وخاض الليل الى وادى آش فاستولى عليها وضبطها ، وبايعه أهلها على الموت ، ثم عمد شيعة اسماعيل الثائر الى الوزير ابن الخطيب فاودعوه السجن بعد أن أغروا به ثائرهم واكتسحوا داره واصطلموا نعمته وأتلفوا موجوده ، وكان شيئا يجل عن الحصر ، واتصل ذلك كله بالسلطان ابى سالم وكانت له مصافاة مع ابن الاحمر من لدن كان عنده بالاندلس ، فكتب اسماعيل الثائر وشيعته يأمرهم بتخلية طريق الغنى بالله للقدوم عليه ، ويشفع فى تسريح ابن الخطيب وتخلية سبيله فأجابوا الى ذلك وقدم الغنى بالله ابن الاحمر ووزيره ابن الخطيب على السلطان أبى سالم فى السادس من محرم فاتح سنة احدى وستين وسبعمائة ، فأجل السلطان أبو سالم قدومه ، وركب للقائه ، ودخل به الى مجلس ملكه وقد احتفل فى ترتيبه وقد غص بالمشيخة والعلية ، ووقف وزيره ابن الخطيب على قدميه فانشد السلطان ابا سالم قصيدته الرائية يستصرخه لسلطانه ، ويستحثه لمظاهرته على أمره واستعطف واسترحم بما أبكى الناس شفقة له ورحمة ونص القصيدة:

سلا هل لديها من مخبرة ذكر ... وهل أعشب الوادى ونم به الزهر
وهل باكر الوسمى دارا على اللوا ... عفت آيها الا التوهم والذكر
بلادى التى عاطيت مشمولة الهوى ... باكنافها والعيش فينان مخضر
وجوى الذى ربى جناحى وكره ... فها أنا ذا مالى جناح ولا وكر
نبت بى لا عن جفوة وملالة ... ولا نسخ الوصل الهنى بها هجر
ولكنها الدنيا قليل متاعها ... ولذاتها دأبا تزور وتزور
فمن لى بقرب العهد منها ودوننا ... مدى طال حتى يومه عندنا شهر

ولله عينا من رآنا وللاسى ضرام له فى كل جانحة جمر
وقد بددت در الدموع يد النوى وللشوق أشجان يضيق لها الصدر
بكينا على النهر الشروب عشية فعاد أجاجا بعدنا ذلك النهر
أقول لاظعانى وقد غالها السرى وآنسها الحادى وأوحشها الزجر
رويدك بعد العسر يسران أبشرى بانجاز وعد الله قد ذهب العسر
ولله فينا علم غيب وربما أتى النفع من حال اريد بها الضر
وان تخن الايام لم تخن النهى وان يخذل الاقوام لم يخذل الصبر
وان عركت منى الخطوب مجربا نقابا تساوى عنده الحلو والمر
فقد عجمت عودا صليبا على الردى وعزما كما تمضى المهندة البتر
اذا أنت بالبيضاء قررت منزلى فلا اللحم حل ما حييت ولا الظهر
زجرنا بابراهيم برء همومنا فلما رأينا وجهه صدق الزجر
بمنتخب من آل يعقوب كلما دجا الخطب لم يكذب لعزمته فجر
تناقلت الركبان طيب حديثه فلما راته صدق الخبر الخبر
ندى لو حواه البحر لذ مذاقه ولم يتعقب مده ابدا جزر
وبأس غدا يرتاع من خوفه الردى وترفل فى اذياله الفتكة البكر
أطاعته حتى العصم فى قنن الربا وهشت الى تاميله الانجم الزهر
قصدناك ياخير الملوك على النوى لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
كففنا بك الايام عن غلوائها وقد رابنا منها التعسف والكبر
وعدنا بذاك المجد فانصرم الردى ولذنا بذاك العزم فانهزم الذعر
ولما أتينا البحر يرهب موجه ذكرنا نداك الغمر فاحتقر البحر
خلافتك العظمى ومن لم يدن بها فايمانه لغو وعرفانه نكر
ووصفك يهدى المدح قصد صوابه اذا ظل فى أوصاف من دونك الشعر
دعتك قلوب المومنين واخلصت وقد طاب منها السر لله والجهر
ومدت الى الله الا كف ضراعة فقال لهن الله قد قضى الامر
والبسها النعمى ببيعتك التى لها الطائر الميمون والمحتد الحر
فاصبح ثغر الثغر يبسم ضاحكا وقد كان مما نابه ليس يفتر

وامنت بالسلم البلاد وأهلهـا   فلا ظبة تعرى ولا روعة تعـرو
وقد كان مولانا أبوك مصرحـا   بانك في اولاده الولد البـر
وكنت حقيقا بالخلافة بعـده   على الفور لكن كل شيء له قـدر
فأوحشت من دار الخلافة هالـة   أقامت زمانا لا يلوح بها البـدر
فرد عليك الله حقك اذ قضـى   بأن تشمل النعمى وينسدل الستـر
وقاد اليك الملك رفقا بخلقـه   وقد عدموا ركن الامامة واضطـروا
وزادك بالتمحيص عزا ورفعـة   وأجرا ، ولولا السبك ما عرف التبر
وانت الذي يدعى اذا دهم الـردى   وأنت الذي يرجى اذا أخلف القطر
وانت اذا جار الزمان محكـم   لك النقض والابرام والنهى والامر
وهذا ابن نصر قد اتى وجناحـه   مهيض ومن علياك يلتمس الجبـر
غريب يرجي منك ما انت أهلـه   فان كنت تبغي الفخر قد جاءك الفخر
ففز يا امير المومنين ببيعـة   موثقة قد حل عروتها الغـدر
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا   بيا لمرين جاءه العز والنصـر
وخذ يا امام الحق بالحق ثـاره   ففي ضمن ما تاتي به العز والاجـر
وانت لها ياناصر الحق فلتقـم   بحق فما زيد يرجى ولا عمـرو
فان قيل مال ، مالك الدثر وافـر   وان قيل جيش، عندك العسكر المجر
يكف بك العادي ويحيابك الهـدى   ويبنى بك الاسلام ما هدم الكفـر
أعده الى أوطانه عنك راضيـا   وطوقه نعماك التي مالها حصر
وعاجل قلوب الناس فيه بجبرهـا   فقد صدهم عنه التغلب والقهـر
وهم يرقبون الفعل منك وصفقـة   تحاولها يمناك ما بعدها خسـر
مرامك سهل لا يشـودك كلفـة   سوى عرض ما ان له في العلا خطر
وما العمر الا زينة مستعـارة   ترد ، ولكن الثناء هو العمـر
ومن باع ما يفنى بباق مخلـد   فقد انجح المسعى وقد ربح التجـر
ومن دون ماتبغيه يا ملك الهـدى   جياد المذاكي والمحجلة الغـر
وراد وشقر واضحات شياتهـا   فاجسامها تبر وارجلهـا در
وشهب اذا ما ضمرت يوم غـارة   مصممة غارت بها الانجم الزهـر

وأسد رجال من مرين أعـزة … عمائمها بيض وآسالها سمـر
عليها من المأذى كل مفاضـة … ندافع فى أعطافها اللجج الخضـر
هم القوم ان هبوا لكشف ملمـة … فلا الملتقى صعب، ولا المرتقى وعـر
اذا سئلوا أعطوا، وان نوزعوا سطوا، … وان واعدوا وفوا ، وان عاهدوا بروا
وان مدحوا اهتزوا ارتياحا كانهـم … نشاوى تمشت فى معاطفهم خمـر
وان سمعوا العوراء فروا بأنفـس … حرام على هاما تها فى الوغى الفـر
وتبسم ما بين الوشيج ثغورهـم … وما بين قضب الدوح يبتسم الزهـر
أمولاى غاضت فكرتى وتبلـدت … طباعى فلا طبع يعين ولا فكـر
ولولا حنان منك داركتنى بـه … واحييتنى لم يبق عين ولا أثـر
فأوجدت منى فائتا أى فائـت … وانشرت ميتا ضم أشلاءه قبـر
بدأت بفضل لم اكن لعظيمـه … بأهل ، فجل اللطف وانشرح الصدر
وطوقتنى النعمى المضاعفة التـى … يقل عليها منى الحمد والشكـر
وأنت بتتميم الصنائـع كافـل … الى أن يعود الجاه والعز والوفـر
جزاك الذى أسنى مقامك رحمـة … يفك بها عان وينعش مضطـر
اذا نحن أثنينا عليك بمدحـة … فهيهات يحصي الرمل اويحصر القطر
ولكننا ناتى بما نستطيعـه … ومن بذل المجهود حق له العـذر

ثم انفض المجلس وانصرف ابن الاحمر الى منزله المعد له وقد فرشت القصور ، وقربت له الجياد بالمراكب المذهبة ، وبعث اليه بالكسا الفاخـرة ، ورتبت الجرايات له ولمواليه من المعلوجى وبطانته من الصنائع وانحفظ عليه رسم سلطانه فى الراكب والراجل ، ولم يفقد من القاب ملكه الا الاداة أدبا مع السلطان ، واستقر فى جملته الى ان لحق بعد بالاندلس ، وعاد له ملكه سنـة ثلاث وستين وسبعمائة ، وأرغد السلطان أبو سالم عيش ابن الخطيب ، وأفاض عليه الجرايات ، ورتب له الاقطاعات ، غير انه كان مضمرا لمفارقة السلطـان والتخلى عن خدمته والانفراد بنفسه لاغتنام ما بقى من عمره فى طاعة الله تعالى ، فكان من أمره فى ذلك ما نذكره .

١٣

سفر ابن الخطيب الى مراكش وأعمالها وزيارته لا وليائها ورجالها والسبب فى ذلك

كان ابن الخطيب رحمه الله عندما حصلت له هذه النكبة وخلصه الله منها بانتقاله الى بلاد العدوة قد عن له رأى فى النزهد والانقطاع الى الله تعالى واغتنام بقية العمر فيما يعود نفعه فى العاجل والآجل ورفض السلطان واسبابه ، وترك ما يلجئه للوقوف ببابه ، فتلطف فى استئذان السلطان أبى سالم رحمه الله وطلب منه الاذن فى الذهاب الى جهات مراكش والوقوف على آثار الاقدمين بها والتطارح على اوليائها والمثول بأعتابها والتعلق بأذيالها والتمسك بأسبابها ، جاعلا ذلك مفتاح العزلة والتخلى عن الدولة فأذن له وكتب الى العمال باتحافه والاعتناء به ، فتباروا فى ذلك كما يفصح عنه بعض شعره الآتى ،وجعل طريقه على مدينة سلا فتأمل أحوالها وراءها أوفق لمراده فى العزلة ،فأضمر الاستيطان بها عند عوده من وجهته . ولما دخل مدينة أنفى — وهى الدار البيضاء — مر بها على دار عظيمة تنسب الى والى جبايتها عبو من بنى الترجمان قارون قومه وغنى صنفه ، وكان قد هلك قبل ذلك فقال ابن الخطيب :

« قد مررنا بدار عبو الوالى ... وهى ثكلى تشكو صروف الليالى
أقصدت ربها الحوادث لما ... رشقته بصائبات النبال
كان بالامس واليا مستطيلا ... وهو اليوم ما له من والى »

واظنه فى هذه الوجهة خاطب شيخ العرب مبارك بن ابراهيم بن عطية بن مهلهل الخلطى ونص ما خاطبه به :

« ساحات دارك للضياف مبارك ... وبضوء نار قراك يهدى السالك
ونوالك المبذول قد شمل الورى ... طرا وفضلك ليس فيه مشارك
قل للذى قال الوجود قد انطوى ... والبأس ليس له حسام فاتك
والجود ليس له غمام هاطل ... والمجد ليس له همام باتك
جمع الشجاعة والرجاحة والندى ... والبأس والرأى الاصيل مبارك

للدين والدنيا وللشيم العـــلا والجود ان شح الغمام السافـــك
عند الهياج ربيعة بـــن مكـــدم والفضل والتقوى الفضيل ومالـك
ورث الجلالة عن ابيه وجـــده فكأنهم ما غاب منهم هالـك
فجياده للآملين مراكـــب وخيامه للقاصدين أرائـــك
فاذا المعالى أصبحت مملوكـــة أعناقها بالحق فهو المالـــك
يافارس العرب الذى من بيتـــه حرم لها حج به ومناســـك
يا من يبشر باسمه قصـــاده فلهم اليه مسارب ومسالـــك
أنت الذى المستأثرت فيك بغبطتى وسواك فيه مآخذ ومتـارك
لا زلت نورا يهتـــدى بضيائـــه من جنه للروع ليل حالـــك
ويخص مجدك من سلامى عاطـر كالمسك صاك به الغوالى صائـــك

الحمد لله تعالى الذى جعل بيتك شهيرا ، وجعلك للعرب اميرا ، وجعل اسمك فالا ، ووجهك جمالا ، وقربك جاها ومالا ، وآل رسول الله صلى الله عليه وسلم آلا ، أسلم عليك يا أمير العرب وابن أمرائها ، وقطب سادتهـــا وكبرائها ، وأهنيك بما منحك الله تعالى من شهرة تبقى ، ومكرمة لا يضـــل المتصف بها ولا يشقى ، اذ جعل خيمتك فى هذا المغرب على اتساعه ، واختلاف أشياعه ، مأمنا للخائف ، على كثرة المذاهب والطوائف ، وصرف الالسنة الى مدحك والخلود الى حبك ، وما ذلك الا لسريرة لك عند ربك ، ولقد كنت ايام تجمعنى واياك المجالس السلطانية على معرفتك متهالكا ، وطوع الامل سالكا ، لما يلوح لى على وجهك من سيما المجد والحياء ، والشيم الدالة على العلياء ، وزكاء الاصول وكرم الاباء ، وكان والدى رحمه الله قد عين للقاء خال السلطان قريبكم لما توجه فى الرسالة الى الاندلس نائبا فى تانيسه عن مخدومه ، ومنوها حيث حل بقدومه ، واتصلت بعد ذلك بينهما المهاداة والمعرفة ، والرسائل المختلفة ، فعظم لاجل هذه الوسائل شوقى الى التشرف بزيارة ذلك الجناب الذى حلوله شرف وفخر ، ومعرفته كنز وذخر ، فلما ظهر الان لمحل الاخ القائد فلان اللحاق بك والتعلق بسببك ، رأيت أنه قد اتصل بهذا الغرض المؤمل بعضى والله تعالى ييسر فى البعض ، عند تقرير الامر وهدنة الارض ، وهذا الفاضل بركة حيث حل

لكونه من بيت اصالة وجهاد ، وما جدا وابن أمجاد ، ومثلك لا يوصى بحسن جواره ، ولاينبه على ايثاره ، وقبيلك من العرب في الحديث والقديم ، وهو الذى أوجب لها مزية التقديم ، لم تفتخر قط بذهب يجمع ، ولا ذخر يرفـع ، ولا قصر يبنى ، ولا غرس يجتنى انما فخرها عدو يغلب وثناء يجلب وجزر تنحر وحديث يذكر وجود على الفاقة وسماحة بحسب الطاقة فلقد ذهب الذهب وفنى النشب وتمزقت الاثواب وهلكت الخيل العراب وكل الذى فوق التراب تراب وبقيت المحاسن تروى وتنقل والاعراض تجلى وتصقل ولله در الشاعر اذ يقول :

انما المرء حديث بعـده فكن حديثا حسنا لمن وعـى

هذه مقدمة ان يسر الله بعدها لقاء الامير فيجلى اللسان عما فى الضمير

ومدحى على الاملاك وقف وانما رايتك منها فامتدحت على وسمى
وما كنت بالمهدى لغيرك مدحتـى ولو انه قد حل فى مفرق النجم

وقال فى الشيخ ابن بطان الصنهاجي : صنهاجة آزمور :

« لله درك يا ابن بطان فمـا لشهير جودك فىالبسيطة جاحد
ان كان فى الدنيا كريم واحـد يزن الجميع فانت ذاك الواحد
أجريت فضلك جعفرا يحيى بـه ما كان من مجد فذكرك خالد
فالقوم منك تجمعوا فى مفـرد ولد كما شاء العلاء ووالـد
وهى الليالى لا تزال صروفهـا يشقى بموقعها الكريم الماجـد
وبمستعين الله يصلح منك مـا قد كان أفسده الزمان الفاسد »

وقال رحمه الله عند ما توسط بسيط تامسنا :

« كأنا بتا مسنا نجوس خلالهـا وممدودها فى سيرنا ليس يقصر
مراكب فى البحر المحيط تخبطت ولا جهة تدرى ولا البر يبصر

وقال رحمه الله يخاطب ابا العباس أحمد بن يوسف حفيد المولى الصالح سيدى ابى محمد صالح النائم فى ظل صيته رضى الله عنه :

« ياحفيد الولى ياوارث الفخـ ـر الذى نال فى مقام وحـال
لك يا أحمد بن يوسف جينـا كل قطر يعيى أكف الرحال »

وقال في نفاضة الجراب : لما خرجت من آسفي سرت الى منزل ينسب الى أبي حدو وفيه رجل من بني المنسوب اليه اسمه يعقوب فألطف وأجزل وآنس في الليل وطلبني بتذكرة تثبت عندي معرفة فكتبت له :

نزلنا عى يعقوب نجل أبي حـــدو فعرفنا الفضل الذي ماله حــــد
وقابلنا بالبشر واحتفل القـــرى فلم يبق لحم لم تنله ولا زبـــد
يحق علينا أن نقـوم بحقـــه ويلقاه منا البر والشكر والحمد »

وقال رحمه الله وقد انتابه البرغوث :

زحفت الى ركائب البرغـــوث نم الظلام بركبها المحثـــوث
بالحبة السوداء قابـل مقدمـــي لله أي قرى أعد خبيـــث
كسحت بهن ذباب سرح تجلـدي ليلا فحبل الصبر جد رثيـــث
ان صابرت نفسي اذاه تعبـــدت أوصحت منه أنفت من تحنيثـــي
جيشان من ليل وبرغوث فهـــل جيش الصباح لصرختي بمغيث

وقال رحمه الله وقد أشرف على الحضرة المراكشية حاطها الله تعالى :

« ما ذا أحدث عن بحر سبحت بـه من البحار فلا اثم ولا حــــرج
دعاه مبتدع الاشياء مستويـــا مـا ان بـه درك كـــلا ولا درج
حتى اذا ما المنار الفرد لاح لنـــا صحت ابشري يامطايا جاءك الفرج
قربت من عامر دارا ومنزلـــة والشاهد العدل هذا الطيب والارج

ولما وقف على مصانع مراكش وقصورها وقصبتها واعتبر ما صار اليه حالها بعد الموحدين قال :

بلد قد غزاه صرف الليـــالى وأباح المصـون منـه مبيـــح
فالـذى خـر من بناه قتيـــل والذى خر منه بعض جريـــح
وكـأن الـذى يزور طبيـــب قد تأتى له بهـــا التشريـــح
أعجمت منه أربـع ورســـوم كان قدما بها اللسان الفصيـــح
كم معان غابت بتلك المغانـــى وجمال أخفاه ذاك الضريـــح
وملـوك تعبـدوا الدهـر لمـــا أصبح الدهر وهو عبد صريـح
دوخوا نازح البسيطة حتـــى نال ما شـاء ذابـل وصفيـــح

حين شبت لهم من البأس نـار ثم هبت لهم من النصر ريـح
أثـر يـنـدب المؤثـر لمـا طال بعد الدنو منه النـزوح
ساكن الدار روحها كيف يبقى جسد بعد ما تولى الـروح »

ومما قاله فى الشيخ أبى العباس السبتى رضى الله عنه على لسان سلطانه الغنى بالله وهو يومئذ بفاس :

« ياولى الاله أنت جـواد وقصدنـا الى حمـاك المنيـع
راعنا الدهر بالخطوب فجئنـا نرتجى من علاك حسن الصنيع
فمددنا لك الاكف نرجى عودة العز تحت شمل جميـع
قد جعلنا وسيلة تربك الـزا كى وزلفى الى العليم السميـع
كم غريب أسرى اليك فوافـى برضى عاجل وخير سريـع .»

وقال يخاطب عميد البلاد المراكشية ، المتميز بالرأى والسياسة والهمة وافاضة العدل وكف اليد والتجافى عن مال الجباية عامر بن محمد بن على الهنتاتى :

تقول لى الاظعان والشوق فى الحشا له الحكم يمضى بين ناه وآمـر
اذا جبل التوحيد اصبحت فارعا فخيم قرير العين فى دار عامـر
وزر تربة المعلوم ان مزارهـا هو الحج يسعى نحوه كل ضامر
ستلقى بمثوى عامر بن محمد ثغور الامانى من ثنايا البشائـر
ولله ما تبلوه من سعد وجهـه ولله ما تلقاه من يمـن طائـر
وتستعمل الامثال فى الدهر منكما بخير مزور أو باغبط زائـر

لم يكن همى أبقاك الله تعالى مع فراغ البال ، واسعاف الآمال ، ومساعدة الايام والليال ، اذ الشمل جميع ، والزمان كله ربيع ، والدهر سميع مطيع ، الا زيارتك فى جبلك الذى يعصم من الطوفان ، ويواصل أمنه بين النـوم والاجفان ، وأن أرى الافق الذى طلعت منه الهداية ، وكانت اليه العودة ومنه البداية ، فلما حم الواقع ، وعجز عن خرق الدولة الاندلسية الراقع ، وأصبحت ديار الاندلس وهى البلاقع ، وحسنت من استدعائك اياى المواقع ، وقوى العزم وان لم يكن ضعيفا ، وعرضت على نفسى السفر بسببك فالفيته خفيفا ، والتمست

الاذن حتى لا نرى فى قبلة السداد تحريفا ، واستقبلتك بصدر مشروح ، وزند للعزم مقدوح ، والله سبحانه وتعالى يحقق السول ،ويسهل بمثوى الامائل المنول ، ويهيىء من قبيل هنتاتة القبول ، بفضله » انتهى .

ولما ذهب الى عامر بن محمد المذكور ورقى الجبل زار الموضع الذى توفى به السلطان أبو الحسن رحمه الله» وقد ألم بذكر ذلك فى «نفاضة الجراب» اذ قال: وشاهدت بجبل هنتاتة محل وفاة السلطان المقدس أمير المسلمين أبى الحسن رحمه الله حيث أصابه طارق الاجل الذى فصل الخطة ، وأصمت الدعوة ورفع المنازعة، وعاينته مرفعا عن الابتذال بالسكنى مفروشا بالحصباء ، مقصودا بالابتهـــال والدعاء فلم أبرح يوم زيارته أن قلت :

يا حسننها من اربع وديـــــــار ... أضحت لباغى الامن دار قــــرار
وجبال عز لاتــــذل انوفهـــــا ... الا لعز الواحـد القهـــــار
ومقـر توحيـد واس خلافـــة ... آثارهـا تنبـــى عن الاخـــــار
ماكنت أحسب أن انهار النـــدى ... تجرى بها فى جملة الانهـــار
ما كنت أحسب ان انوار الحجـا ... تلتاح فى قنن وفـــى احجـــار
مجت جوانبها البرود وان تكـــن ... شبت بها الاعـداء جذوة نـــار
هدت بناها فى سبيل وفائهـــــا ... فكأنهـا صرعـى بغيـــر عقـــار
لما توعدها على المجــد العــدا ... رضيت بعيـث النـــار لا بالعـــار
عمرت بحلة عامر واعزهـــــا ... عبـد العزيـز بمرهـــف بتـــار
فرسا رهان أحرزا قصب النـدى ... والباس فى طلق وفـــى مضمـــار
ورثا عن الندب الكبير أبيهمـــا ... محض الوفاء ورفعـــة المقـــدار
وكذا الفروع تطول وهى شبيهـة ... بالاصل فى ورق وفـــى أثمـــار
أزرت وجوه الصيد من هنتاتـــة ... فى جوها بمطالع الاقمـــــار
لله أى قبيلة تركـت لهـــا الـــ ... ـنظراء دعوى الفخر يوم فخـــار
نصرت امير المسلمين وملكـــه ... قد أسلمته عزائـــم الانصـــار
وارت عليا عند مـا عظـم الـردى ... والروع بالاسمـــاع والابصـــار
وتخاذل الجيش اللهام واصبح الا ... بطال بيـــن تقاعـــد وفـــرار

كفرت صنائعه فيمم دارهـــــا — مستظهرا منها بعـز جـــوار
واقام بين ظهورها لا يتقـــــى — وقع الردى وقد ارتمى بشـــرار
فكأنها الانصار لـــا أن سمـــت — فيما تقـــدم غربــة المختـــار
لما غدا لحظا وهـم أجفانـــــه — نابت شفارهم عن الاشفـــار
حتى دعاه اللــــه بيـــن بيوتهم — فأجاب ممتثلا لامر البـــــارى
لو كان يمنع من قضاء الله مـــا — خلصـت اليـــه نوافذ الاقـدار
قد كان يأمل ان يكافيء بعض مـا — أولوه لـــولا قاطـع الاعمـار
ما كان يقنعه لو امتد المــــدى — الا القيام بحقهـا مـن دار
فيعيد ذاك الماء ذائب فضـــة — ويعيد ذاك الترب ذوب نضار
حتى تفوز على النوى او طانهـــا — من ملكه بجلائل الاوطـــــار
حتى يلوح على وجوه وجوههـــم — أثر العناية ساطع الانـــوار
ويسوغ الامل القصى كرامهـــا — من غير ما ثنيـــا ولا استعصـــار
ماكان يرضى الشمس أو بدر الدجا — عن درهم فيهم ولا دينـــار
أو ان يتوج أو يقلد ها مهـــا — ونحورهـــا بأهلـــة ودرارى
حق على المـولى ابنـه ايثار مــا — بذلوه من نصر ومن ايثـــار
فلمثلها ذخر الجزاء ، ومثلـــــه — من لا يضيع صنائع الأحرار
وهو الذى يقضى الديون وبـــره — يرضيه فى علن وفى اسرار
حتى تحج محلـة رفعـــوا بهـــا — علم الوفاء لاعين النظـــار
فيصير منها البيت بيتـــا ثانيـــا — للطائفيـن اليـــه أى بـدار
تغنى قلوب القوم عن هدى بــــه — ودموعهم تكفى لرمى جمـار
حييت من دار تكفـل سعيهـا الـ — محمود بالزلفى وعقبى الـدار
وضفت عليك من الالــه عنايــة — ما كر ليل فيك اثر نهار »

ويعنى بالمولى ابنه : السلطان أبا سالم بن أبى الحسن. ثم سار ابن الخطيب الى أغمات فزار مشاهدها وشاهد معاهدها فحكى عن نفسه رحمه الله قال : « وقفت على قبر المعتمد بن عباد فى مدينة اغمات فى حركة اعملتها الى الجهات المراكشية باعثها لقاء الصالحين ، ومشاهدة الآثار سنة احدى وستين وسبعمائة ، وهو

بمقبرة أغمات في نشز من الارض ، وقد حفت به سدرة ، والى جنبه قبر اعتماد حظيته مولاة رميك ، وعليهما أثر التغرب ومعاناة الخمول من بعد الملك . فلم تملك العين دمعها عند رؤيتهما فانشدت في الحال :

قد زرت قبرك عن طوع باغمات … رأيت ذلك من أولى المهمات
لم لا أزورك يا أندى الملوك يدا … ويا سراج الليالي المدلهمات
وأنت من لو تخطى الدهر مصرعه … الى حياتي لجادت فيه أبيات
أناف قبرك من هضب يميزه … فتنتحيه حفيات التحيات
كرمت حيا وميتا واشتهرت علا … فأنت سلطان أحياء وأموات
ماريء مثلك في ماض، ومعتقدي … ألا يرى الدهر في حال ولا آت

ولما انكفأ ابن الخطيب رحمه الله راجعا من سفرته هذه وانتهى الى سلا أقام بها منتبذا عن سلطانه ، رافضا للملك وأسبابه طول مقامه بالمغرب على ما نذكره ان شاء الله .

بقية أخبار ابن الخطيب بسلا حرسها الله

قد قدمنا ان ابن الخطيب كان قد عزم على التخلي عن الدنيا والانقطاع الى الله تعالى ، وانه اختار أن يكون مقامه بسلا لكونها يومئذ أعون له على مراده من غيرها حسبما يؤخذ ذلك من مواضع من كلامه ، من ذلك انه لما وصف أمصار الاندلس والمغرب في مقاماته المشهورة ، وصف مدينة سلا بقوله : « العقيلة المفضله ، والبطيحة المخضله ، والقاعدة المؤصله ، والسورة المفصله ، ذات الوسامة والنضاره ، والجامعة بين البداوة والحضاره ، معدن القطن والكتان ، والمدرسة والمارستان، والزاوية كأنها البستان، والوادي المتعدد الاجفان، القطر الامين عند الرجفان، والعصير العظيم الشأن، والاسواق السارة حتى برقيق الحبشان اكتنفها المسرح ، والخصب الذي لا يبرح ، والبحر الذي يأسو ويجرح ، وشقها الوادي الذي يتمم محاسنها ويشرح ، وقابلها الرباط ، الذي ظهر به من المنصور

الاغنباط ، حيث القصبة والساباط ، ثم يقع الانحطاط الى شالة مرعى الدمم ونتيجة الهمم ، ومشمخ الانوف ذوات الشمم ، وعنوان الرمم ، حيث الحسنات المكتتبة ، والاوقاف المرتبة ، والقباب كالازهار ، مجودة بذكر الله آناء الليل وأطراف النهار ، وطلل حسان المثل فى الاشتهار ، وهى على الجملة من غيرها أوفق ، ومغارمها لاحترام الملوك الكرام أرفق ، ومقبرتها المنضدة عجب فـــى الانتظام ، معدودة فى المواقف العظام ، ويتأتى بها للعباد الخلوة ، وتوجد عندها للهموم السلوة ، كما قال ابن الخطيب :

وصلت حثيث السير فيمن فلى الفلا — فلا خاطرى لما نأى وانجلا انجــلا
ولا نسخت كربى بقلبى سلـــوة — فلما سرى فيه نسيم سلا ، ســـلا

وكفى بالشابل رزقا طريا ، وسمكا بالتفضيل حريا ، يبرز عدد قطر الديم ، ويباع ببخس القيم ، ويعم المجاشر النائية والخيم ، اه .

وما قاله فى حق سلا من كونها تتأتى بها للعباد الخلوة ، هو كذلك معروف عند صلحاء المغرب وعباده من لدن قديم ، ولذا لما قدم أبو العباس ابن عاشر رضى الله عنه من الاندلس ، وتنقل فى بلاد المغرب مثل فاس ومكناسة، لم يطب له القرار الا بسلا ، وقد صرح رضى الله عنه بذلك حيث قال :

سلا كل قلب غير قلبى ما سلا — أيسلو بفاس والاحبة فى سلا
بها خيموا فالقلب خيم عندهــم — فاجروا دموعى مرسلا ومسلسلا

ولما ذكر أبو العباس الصومعى رحمه الله فى كتابه الموضوع فى مناقب الشيخ أبى يعزى رضى الله عنه استحباب زيارة الاولياء قال ما نصه : « ولا سيما فى مشاهد الاخيار اذا اجتمعوا فى مكان من الامكنة المشرفة كما كانوا يجتمعون قبل هذا برباط شاكر ، وبساحل دكالة ، وبسلا ، وبجبل العلم ، وعند الشيخ أبى يعزى فى أيام الربيع وغير ذلك » اه .

وأقول على ذكر سلا: فقد كتب الى، وأنا بمراكش حرسها الله، الاخ فى الله الفقيه الاديب المحاضر أبو عبد الله محمد بن عزوز الرباطى أصلا المراكشى دارا، بطاقة يقول فيها ما نصه : «الحمد لله وحده. السيد الاخ، الذى نوب اخائه ما اتسخ ، الفقيه العلامة ، اللابس من أسلحة العلوم الدرع واللامة ، أبـــا

العباس السيد أحمد الناصرى سلام عليك سلاما ذكى العرف رائج الصرف ، وبعد فقد اشتقنا الى لذيذ مذاكرتكم ، وحلو فكاهتكم ، والآن نحب من السيادة أن تشرفونا بنقل قدمكم وتكرمونا بطلعتكم السعيدة ، بكرة غد ان شاء الله وعلى المحبة والسلام فى فاتح رجب الفرد سنة أربع وتسعين ومائتين وألف ، وألحق باسفلها ما نصه :

سلا البحر ما بحر بنيت بشطـه ... كبحر علوم فيك أنشىء صالحا
فهذا هو الفياض بالعلم والتقـى ... وذاك هو الفياض بالماء مالحـا

ولم ندر هل البيتان له أو تمثل بهما ، وعلى كل حال فما قاله حفظه الله انمـا حمله عليه حسن نيته وصفاء طويته وأما المكتوب اليه بهما فلا والله لا علم ولا تقى ، الا أن يتغمدنا الله برحمته ، ثم أنى أجبته بنثر تركته للاختصار ووصلته بابيات أقول فيها ما نصه :

بعثت أبا عبد الالـه مدائحـا ... هو الدر حسنا والشذور لوائحا
فنبهت فكـرا طالمـا بـات نائمـا ... وروضت ذهنا طالما ظل جامحـا
وشيدت من ذكرى وقد كان خاملا ... وهيجت من قلبى الشجى القرائحا
وطوقتنى النعمى بتقريضك الـذى ... به ظل مجدى للنجوم مصافحـا
والا فما قدرى وان جد جـده ... وما قيمتى لو لم تكن لى مادحـا
فانت أديب العصر حقا ومن غـدا ... لعمرى لا بواب المعارف فاتحـا
فخذ من أخيك العى واستر عيوبه ... وسامح فظنى أن تكون مسامحـا
فوصفك يعيى كل أشدق بـارع ... ولو ظل فى بحر البلاغة سابحـا
فلقيت من ذى العرش كل كرامـة ... ووقيت من هذا الزمان الطوائحـا
ولا زال هذا الدهر طوعك خادمـا ... علاك وطرف السعد نحوك طامحا

ومما مدح به سلا وأهلها قول الامام العلامة الهمام أبى على الحسن بـن مسعود اليوسى رضى الله عنه :

مرسـى سـلا مـأوى الشمـم
والمجـد عـن طـول الامـم

بلد بحسبك منظـر منـه ومخبنره أتـم
مسرى الهموم ومسرح الابصار مسلاة الغمم
منرفلا فى حلة من حسنـه جنـب العلـم
كالحرة الحسناء فى كنف الهمام المحترم
ونراه من جناتـه منـلألئـا بيـن الاجـم
كالدر بين زمرد فى قرط مارية انتظـم
وكوجه خـود حفـه السوالـف فى دلـم
وكغرة فى أدهم والصبح فى جنح الاحـم
والثغر من زنجية نرنو اليـه وقـد بسـم
والبدر ما بين الدجا والشيب فى سود اللمم
يعلو فويق جنبه علـم تـعدلى مـن أمـم
فكأنه تاج اللجين على جبينـى ذى عظـم
أو كالكبير مزملا أودى بنهضته الهـرم
فى رأسه صلع وفيما تحت جبهتـه غمم
أو كالجواد يأنفه من ذلـك القصـر الرثـم
يكفيك منه هواؤه لا خبث فيه ولا وخـم
عجبا صحيح والهوى أبدا عليل ذو سقـم
وزلاله العذب الذى يشفى الفؤاد من الضرم
حاكى العقار وفاقها بصفـاء لـون الشيـم
أبناء مجد فى الالى كانوا يراعون الذمـم
من نبلهم دون العويص ونبلهم خلف الحرم
ونفيسهم قفع الفلا ونفوسهم بيض الرخـم
من كل أبيض وجهه تجلى به سدف الظلـم
فى الخطب بدر لامع ولدى الندى بحر خضم
وأحبة كانوا لنـا كالماء بالـراح التـأم
لم يعد بين بيننا ولـو الفـراق بنا ألـم

البين بين جسومنا لا بين أنفسنا يحسم
والعهد حبل ما انفصاعنه الوداد ولا انفصم
والصدق نهج قد علا فى كل أوجهه علم
والبر مرعاه قرى من فيه للحسنى قرم
والنفس أرض قد كرا المعين ذوو الكرم
والدين روض قد رعى فيه من العقبى رعسم
والعلم ورد ما حلا الا لمن نزع الحلم
والسر برق ما أضا الا لمن غسل الاضم
والدهر دولاب شما فيه سوى أهل الشمم
من ذاق مورده الصرى يوما فللدنيا صرم

ولنرجع الى بقية أخبار ابن الخطيب .

ولما استقر بسلا واطمأن جنبه بها قال :

يا أهل هذا القطر ساعده القطر بليت فدلونى لمن يرفع الامر
تشاغلت بالدنيا ونمت مفرطا وفى شغلى أونومتى سرق العمر

ثم حرص على لقاء الشيخ ابن عاشر رضى الله عنه حتى ظفر به فعظم سروره بذلك وتبجح به فقال فى «نفاضة الجراب» : «ولقيت من أولياء الله تعالى بسلا الولى الزاهد الكبير ، المنقطع القرين ، فرارا عن زهرة الدنيا وعزوفا عنها، واغراقا فى الورع وشهرة بالكشف، واجابة الدعوة وظهورالكرامات: أبا العباس ابن عاشر، يسر الله تعالى لقاءه، على تعذره، لصعوبة تأتيه وكثافة هيبته ، قاعدا بين القبور فى الخلاء، رث الهيئة مطرق اللحظ ، كثير الصمت مفرط الانقباض والعزلة قد ضرسه أهل الدنيا وتطارحهم فهو شديد الاشمئزاز من قاصده ، مجرمز للوثبة من طارقه نفع الله تعالى به » اه كلامه فى «النفاضة» وقال رحمه الله من قصيدته العينية السلاوية التى وجهها الى سلا أيام خلف بها أهله وولده :

بولى الله فابدأوابتدر واحد الاحاد فى باب الورع

ومراده بولى الله ابن عاشر المذكور .

ثم ان ابن الخطيب بعد رجوعه من مراكش جعل ينتاب رباط شالة مدفن الملوك من بنى مرين ، ومنهم السلطان أبو الحسن رحمه الله للدعاء وقراءة القرآن بها وتعاهدها ، وقد كتب بذلك الى السلطان أبى سالم وطلب منه أن يشفع له عند أهل الاندلس فى رد متاعه الذى أتلفوه عليه أيام النكبة ، ونص الكتاب : «مولاى، المرجو لاتمام الصنيعة وصلة النعمة واحراز الفخر ، أبقاكم الله تعالى تضرب بكم الامثال فى البر والرضا وعلو الهمة ورعى الوسيلة ، مقبل موطىء قدمكم المنقطع الى تربة المولى والدكم ، ابن الخطيب ، من الضريح المقدس بشالة وقد حط رحل الرجاء فى القبة المقدسة وتيمم بالتربة الزكية وقعد بازاء لحدالمولى أبيكم ساعة ايابه من الوجهة المباركة ، وزيارة الربط المقصودة ، والترب المعظمة، وقد عزم أن لا يبرح طوعا منهذا الجوار الكريم والدخيل المرعى حتى يصله من مقامكم ما يناسب هذا النطارح على قبر هذا المولى العزيز على أهل الارض ، ثم عليكم ، والتماس شفاعته فى أمر سهل عليكم ، لا يجر انفاد مال ولا اقتحام خطر انما هواعمال لسانوخط بنان وصرف عزم واحرازفخرواطابة ذكر وأجر وذلك أن العبدعرفكم يوم وداعكم أنه ينقل عنكم الى المولى المقدس بلسان المقال ما يحضرمما يفتحالله تعالى فيه، ثمينقل عنه لكم بلسان الحال ما يتلقى عنهمن الجواب وقال لى صدر دولتكم وخالصتكم وخالصة المولى والدكم سيدى الخطيب، يعنى ابن مرزوق، سنى الله تعالى أمله من سعادة مقامكم وطول عمركم: «أنت يا فلان والحمد لله ممن لاينكر عليه الوفاء بهذين الفرضين ، وصدر عنكم من البشر والقبول والانعام ما صدر ، جزاكم الله تعالى جزاء المحسنين » وقد تقدم تعريف مولاى بما كان من قيام العبد بما نقله الى التربة الزكية عنكم حسبما أداه من حضر ذلك المشهد من خدامكم ، والعبد الان يعرض عليكم الجواب وهو : أنى لما فرغت من مخاطبتهبمرأى من الملأ الكبير، والجم الغفير ، أكببت على اللحد الكريم داعيا ومخاطبا وأصغيت باذنى نحو قبره وجعل فؤادى يتلقى ما يوحيه اليه لسان حاله ، فكأنى به يقول لى : « قل لمولاك ياولدى وقرةعينى المخصوص برضاى وبرى وستر حريمى ورد ملكى ، وصان أهلى وأكرم صنائعى ، ووصلعملى، أسلم عليك وأسأل الله تعالى أن يرضى عنك ويقبل عليك،

الدنيا دارغرور (والآخرة خيرلمن اتقى) ، (وما الناس الا هالك وابن هالك) ولا تجد الا ما قدمت من عمل يقتضى العفو والمغفرة أوثناء يجلب الدعاء بالرحمة ومثلك من ذكر فتذكر وعرف فما أنكر ، وهذا ابن الخطيب قد وقف على قبرى وتهمم بى ، وسبق الناس الى رثائى ، وأنشدنى ومجدنى وبكى لى ودعا لى وهنأنى بمصير أمرى اليك ، وعفر وجهه فى تربتى ، وأملى لما انقطعت منى آمال الناس فلو كنت يا ولدى حيا لما وسعنى أن أعمل معه الا ما يليق بى ، وأن أستقل فيه الكثير ،وأحتقرن العظيم لكن لما عجزت عن جزائه وكلته اليك ، وأحلته ياحبيب قلبى عليك ، وقد أخبرنى انه سليب المال كثير العيال ، ضعيف الجسم ، قد ظهر فى عدم نشاطه أثر السن ، وأمل ان ينقطع بجوارى ويستتر بدخيلى وخدمتى ، ويرد عليه حقه بخدمتى ووجهى ، ووجوه من ضاجعنى من سلفى ، ويعبد الله تعالى تحت حرمتك وحرمتى ، وقد كنت تشوفت الى استخدامه فى الحياة حسبما يعلمه حبينا الخالص المحبة ، وخطيبنا العظيم المزية القديم القربة ، أبو عبد الله ابن مرزوق فاسأله يذكرك ، واستخبره يخبرك ، فانا اليوم أريد أن يكون هذا الرجل خديمى بعد الممات الى أن نلحق جميعا برضوان الله تعالى ورحمته التى وسعت كل شىء ، وله ياولدى ولد نجيب يخدم ببابك ، وينوب عنه فى ملازمة بيت كتابك وقد استقر ببابك قراره ، وتعين بامرك مرتبه ودثاره ، فيكون الشيخ خديم الشيخ والشاب خديم الشاب هذه رغبتى منك وحاجتى اليك ، واعلم أن هذا الحديث لا بد أن يذكر ويتحدث فى الدنيا ، وبين أيدى الملوك والكبراء فاعمل ما يبقى لك فخره ويتخلد ذكره وقد أقام مجاورا ضريحى تاليا كتاب الله تعالى على منتظرا ما يصله منك ويقرأه على من السعى فى خلاص ماله والاحتجاج بهذه الوسيلة فى جبره واجراء ما يليق بك من الحرمة والكرامة والنعمة ، فالله الله ، يا ابراهيم اعمل ما يسمع عنى وعنك فيه ، ولسان الحال أبلغ من لسان المقال . » اه والعبد يامولاى مقيم تحت حرمته وحرمة سلفه ، منتظر منكم قضاء حاجته ولتعلموا وتتحققوا أننى لو ارتكبت الجرائم ، ورزأت الاموال وسفكت الدماء ، وأخذت خسائف الملوك الاعزة ممن وراء النهر من التتار ، وخلف البحر من الروم ووراء الصحراء من الحبشة ، وأمكنهم الله تعالى منى من غير عهد ،

بعد ان بلغهم تذممي بهذا الدخيل ، ومقامي بين هذه القبور الكريمة ما وسع أحد منهم، من حيث الحياء والحشمة من الاحياء والاموات وايجاب الحقوق التي لا يغفلها الكبار للكبار، الا الجود الذى لا يتعقبه البخل ، والعفو الذى لا تفسده المؤاخذة ، فضلا عن سلطان الاندلس أسعده الله تعالى وعلا بموالاتكم ، فهو فاضل وابن ملوك أفاضل ، وحوله أكياس ما فيهم من يجهل قدركم ، وقدر سلفكم لا سيما مولاى والدكم الذى أتوسل به اليكم واليهم ، فقد كان يتبنى مولاى أبا الحجاج ويشمله بنظره وصارخه بنفسه وأمده باموإله ، ثم صير الله تعالى ملكه اليكم، وأنتم من أنتم ذاتا وقبيلا، فقد قرت يامولاى عين العبد بما رأت في هذا الوطن المراكشي من وفور حشودكم وكثرة جنودكم، وترادف أموالكم وعددكم ، زادكم الله تعالى من فضله ، ولاشك عند عاقل انكم ان انحلت عروة تأميلكم وأعرضت عن ذلك الوطن الاندلسي استولت عليه يد عدوه ،وقد علم تطارحي بين الملوك الكرام الذين خضعت لهم التيجان ، وتعلقي بثوب الملك الصالح والد الملوك الكرام مولاى والدكم ، وشهرة حرمة شالة معروفة حاش لله أن يضيعها أهل الاندلس ، وما توسل اليهم قط بها الا الان وما يجهلون اغتنام هذه الفضيلة الغريبة ، وأملي منكم أن يتعين من بين يديكم خديم بكتاب كريم يتضمن الشفاعة في رد ما أخذ لى ، ويخبر بمثواى متراميا على قبر والدكم ، ويقرر ما ألزمتكم بسبب هذا الترامي من الضرورة المهمة والوظيفة الكبيرة عليكم وعلى قبيلكم حيث كانوا ، وتطلبون منه عادة المكارمة بحل هذه العقدة ، ومن المعلوم أنى لو طلبت بهذه الوسائل من صلب ما وسعهم بالنظر العقلي الا حفظ الوجه مع هذا القبيل ، وهذا الوطن ، فالحياء والحشمة يأبيان العذر عن هذا في كل ملة ونحلة، واذا تم هذا الغرض، ولا شك في اتمامه بالله تعالى ، تقع صدقتكم على القبر الكريم بي ، وتعينوني لخدمة هذا المولى وزيارته وتفقده ، ومدح النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المولد في جواره وبين يديه وهو غريب مناسب لبركم به ، الى أن أحج بيت الله بعناية مقامكم ، وأعود داعيا مثنيا مستدعيا للشكر والثناء من أهل المشرق والمغرب ، وأتعوض من ذمتي بالاندلس ذمة بهذا الرباط المبارك يرثها ذريتي ، وقد ساومت في شيء من ذلك منتظرا ثمنه مما يباع

بالاندلس بشفاعتكم ، ولو ظننت أنهم يتوففون لكم فى مثل هذا ، أو يتوفع فيه وحشة أو جفاء ، والله ما طلبته ، لكنهم أسرى وأفضل ، وانقطاعى أيضا لوالدكم مما لا يسع مجدكم الا عمل ما يليق بكم فيه ، وها أنا أترقب جوابكم بما لى عندكم من القبول ، ويسعنى مجدكم فى الطلب وخروج الرسول ، لا فتضاء هذا الغرض والله سبحانه يطلع من مولاى على ما يليق به والسلام وكتب فى الحادى عشر من رجب سنة احدى وسنين وسبعمائة » وفى مدرج الكتاب بعد نثر هذه القصيدة:

مولاى ها أنا فى جوار أبيكا فابذل من البر المقدر فيكا
أسمعه ما يرضيه من تحت الثرى والله يسمعك الذى يرضيكا
واجعل رضاه اذا نهدت كتيبة تهدى إليك النصر أو تهديكا
واجبر بجبرى فلبه تنل المنا وتطالع الفتح المبين وشيكا
فهو الذى سن البرور بأمه وأبيه فاشرع شرعه لبنيكا
وابعث رسولك منذرا ومحذرا وبما تؤمل نيله يأتيكا
قد هز عزمك كل فطر نازح وأخاف مملوكا به ومليكا
فاذا سموت إلى مرام شاسع فغصونه ثمر المنا تجنيكا
ضمنت رجال الله منك مطالبى لما جعلتك فى الثواب شريكا
فلئن كفيت وجوهها فى مقصدى ورعيتها بركاتها تكفيكا
واذا قضيت حوائجى وأريتنى أملا فربك ما أردت يريكا
واشدد على قولى يدا فهو الذى برهانه لا يقبل التشكيكا
مولاى ما استأثرت عنك بمهجتى انى ومهجتى التى تفديكا
لكن رأيت جناب شالة مغنما يضفى على العز فى ناديكا
وفروض حقك لا تفوت فوقتها باق اذا استجزيته يجزيكا
ووعدتنى وتكرر الوعد الذى أبت المكارم أن يكون أفيكا
أضفى عليك الله ستر عناية من كل محذور الطريق يقيكا
ببقائك الدنيا تحاط وأهلها فالله جل جلاله يبقيكا

وقال أيضا فى الغرض المذكور :

عن باب والدك الرضى لا أبرح — يأسو الزمان لاجل دا أو يجرح
ضربت خيامي فى حماه فصبيتي — تجنى الحميم به وبهمى تسرح
حتى يراعى وجهه فى وجهي — بعناية تشفى الصدور وتشرح
أيسوغ عن مثواه سيرى خائبـا — ومنابر الدنيا بذكرك تصـــدح
أنا فى حماه وأنت أبصر بالذى — يرضيه منك فوزن عقلك أرجح
فى مثلها سيف الحمية ينتضـــى — فى مثلها زند الحفيظة يقـــدح
وعسى الذى بدأ الجميل يعيده — وعسى الذى سد المذاهب يفتح

فأجابه السلطان أبو سالم رحمه الله بما صورته : « من عبد الله المستعيـن بالله ، ابراهيم أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين ، أبى الحسن ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى سعيد ، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين يوسف بن يعقوب بن عبد الحق أيد الله أمره وأعز نصره الى الشيخ الفقيه الاجل الاسنى الاعز الاحظى ، الاوجه الانوه الصدر الاحفل المصنف البليغ الاعرف الاكمل أبى عبد الله ابن الشيخ الاجل الاعز الاسنى الوزير الارفع الانجد الاصيل الاكمل المرحوم المبرور أبى محمد بن الخطيب وصل الله عزته ووالى رفعته ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد حمد الله تعالى ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله المصطفى الكريم ، والرضا على آله وصحبه أعلام الاسلام ، وأئمة الرشد والهدى وصلة الدعـــاء لهذا الامر العلى العزيز المنصور المستعينى بالنصر الاعز والفتح الاسنـــى ، فانا كتبناه اليكم كتب الله تعالى لكم بلوغ الامل ونجح القول والعمل ، من منزلنا الاسعد بضفة وادى ملوية يمنه الله ، وصنع الله جميل ومنه جزيل، والحمد لله، ولكم عندنا المكانة الواضحة الدلائل ، والعناية المتكفلة برعى الوسائل ، ذلكم بما تميزتم به من التمسك بالجناب العلى المولوى العلوى جدد الله تعالى عليه ملابس غفرانه ، وسقاه غيوث رحمته وحنانه ، وبما أهديتم الينا من التقرب لدينا بخدمة ثراه الطاهر ،والاشتمال بمطارف حرمته السامية المظاهر ، والى هذا وصل الله حظوتكم ووالى رفعتكم ، فانه ورد علينا خطابكم الحسن عندنا قصده ، المقابل

بالاسعاف المستعذب ورده، فوقفنا على ما نصه، واستوفينا ما شرحه وقصه ، فآثرنا حسن تلطفكم فى التوسل بأكبر الوسائل الينا ، ورعينا أكمل الرعاية حق ذلكم الجناب العزيز علينا ، وفى الحين عينا لكمال مطلبكم وتمام مأربكم والتوجـه بخطابنا فى حقكم والاعتمال بوفقكم خديمينا أبا البقاء بن تاشكورت ، وأبا زكرياء ابن فرقاجة أنجدهما الله وتولاهما ، وأمس تاريخه انفصلا مودعين الى الغرض المعلوم بعد التأكيد عليهما فيه ، وشرح العمل الذى يوفيه ، فكونوا على علم من ذلكم ، وابسطوا له جملة آمالكم ، وانا لنرجو ثواب الله فى جبر أحوالكم وبرء اعتلالكم ، والله سبحانه يصل مبرتكم ، ويتولى تكرمتكم ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته كتب فى الرابع والعشرين من رجب سنة احدى وستين ، فراجعه ابن الخطيب بما نصه : « مولاى خليفة الله بحق ، وكبير ملوك الارض عن حجة، ومعدن الشفقة والحكمة ببرهان وحكمة ، أبقاكم الله تعالى على الدرجة فى المنعمين، وافرى الحظ عند جزاء المحسنين، وأراكم ثمرة بر أبيكم فى البنين، وصنع لكم فى عدوكم الصنع الذى لا يقف عند معتاد ، وأذاق العذاب الاليـم من أراد فى مثابتكم بالحاد ، عبدكم الذى ملكتم رقه ، وآويتم غربته ، وسترتم أهله وولده ، وأسنيتم رزقه ، وجبرتم قلبه ، يقبل موطىء الاخمص الكريم من رجلكم الطاهرة ، المستوجبة بفضل الله تعالى لموقف النصر الفارغة هضبة العز المعملة الخطوة فى مجال السعد ومسير الحظ. ابن الخطيب من شالة التى تأكد بملككم الرضى احترامها ، وتجدد برعيتكم عهدها ، واستبشر بملككم دفينها ، وأشرق بحسناتكم نورها ، وقد ورد على العبد الجواب المولوى البر الرحيم ، المنعـم المحسـن بما يليق بالملك الاصيل ، والقدر الرفيع ، والهمة السامية ، والعزة القعساء من رعى الدخيل ، والنصرة للذمام والاهتزاز لبر الاب الكريـم ، فثاب الرجاء وانبعث الامل ، وقوى العضد وزار اللطف ، فالحمد لله الذى أجرى الخير على يدكم الكريمة ، وأعانكم على رعى ذمام الصالحين ، المتوسل اليكـم أولا بقبورهم ومتعبداتهم وتراب أجداثهم ، ثم بقبر مولاى ومولاكم ومـولى الخلق أجمعين، الذى تسبب فى وجودكم واختصكم بحبه ، وغمركم بلطفه وحنانه، وعلمكم آداب الشريعة وأورثكم ملك الدنيا ، وهيأتكم دعواته بالاستقامة

الى ملك الآخرة بعد طول المدى وانفساح البقاء ، وفى علومكم المقدسة مـــا تضمنت الحكايات عن العرب من النصرة عن طائر داست أفراخه نافة فى جوار رئيس منهم ، وما انتهى اليه الامتعاض لذلك مما أهينت فيه الانفس وهلكـــت الاموال ، وقصارى من امتعض لذلك أن يكون كبعض خدامكم من عرب تامسنا فما الظن بكم وأنتم الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم فيمن لجأ أولا الى حماكم بالاهل والولد، عن حسنة تبرعتم بها، وصدقة حملتكم الحرية على بذلها، ثم فيمن حط رحل الاستجارة بضريح أكرم الخلق عليكم دامع العين ، خافق القلب ، واهى الفزعة ، يتغطى بردائه ، ويستجير بعليائه ، كأنني ترااميت عليهم فى الحياة، أمام الذعر يذهل العقل ، ويحجب عن التميز بقصر داره ومضجع رقاده، ما من يوم الا وأجهر بعد التلاوة: ياليعقوب، يالمرين ، نسأل الله تعالى أن لا يقطع عنى معروفكم ، ولا يسلبنى عنايتكم ، ويستعملنى ما بقيت فى خدمتكم ، ويتقبل دعائى فيكم ، ولحين وصول الجواب الكريم نهضت الى القبر المقدس ، ووضعته بازائه وقلت : يامولاى يا كبير الملوك، وخليفة الله وبركة بنى مرين صاحب الشهرة والذكر فى المشرق والمغرب عبدك المنقطع اليك المترامى بين يدى قبرك ، المتوسل الى الله ثم ولدك بك ، ابن الخطيب ، وصله من مولاه ولدك ما يليق بمقامه من رعى وجهك ، والتقرب الى الله برعيك ، والاشتهار فى مشرق الدنيا ومغربها ببرك ، وأنتم من أنتم من اذا صنع صنيعة كملها ، واذا من منة تممها ، واذا أسدى يدا أبرزها طاهرة بيضاء غير معيبة ولا ممنونة ولا منتقصة ، وأنا بعد تحت ذيل حرمتك وظل دخيلك ، حتى يتم أملى ويخلص قصدى ، وتحف نعمتك بى ويطمئن الى مأمنك قلبى، ثم قلت للطلبة أيها السادة بينى وبينكم تلاوة كتاب الله تعالى منذ أيام ومناسبة النحلة وأخوة التاليف بهذا الرباط المقدس والسكنى بين أظهركم ، فأمنوا على دعائى باخلاص من قلوبكم ، واندفعت فى الدعاء والتوسل الذى أرجو أن يتقبله الله تعالى ولا يضيعه ، وخاطب العبد مولاه شاكرا لنعمته مشيدا بصنيعته ومسرورا بقبوله ،وشأنه من التعلق والتطارح شانه ، حتى يكمل القصد ، ويتم الغرض معمور الوقت بخدمة يرفعها ودعاء يردده والله المستعان » اه

ولما وصل كتاب السلطان أبى سالم الى أهل الاندلس أعظموا وسيلته ، وقبلوا شفاعته، وودوا الى ابن الخطيب ما تأتى رده مما كان ضاع له وأتلف عليه ، واستمر مقيما بسلا سنتين وزيادة ، ثم استدعاه سلطانه الغنى بالله الى الاندلس بعد رجوعه اليها واحتوائه على ملكها ، فأجاب حياء لا رغبة ، ومكرها لا بطلا ، الى أن كان ما نذكره من شأنه بعد ذلك ان شاء الله، ونوادره بسلا وما جرياته كثيرة ، وفيما ذكرناه كفاية .

انتقاض الحسن بن عمر الفودودى وخروجه بتادلا ثم مقتله عقب ذلك

قد قدمنا أن السلطان أبا سالم لما استولى على ملك فاس والمغرب عقد للحسن بن عمر على مراكش ، ووجهه اليها تخففا منه وريبة بمكانه من الدولة فاستقر بها وتأثلت له بها رياسة نفسها عليه أهل مجلس السلطان وسعوا فيه عنده حتى تنكر له وأظلم الجو بينهما وأحس الحسن بن عمر بذلك فخشى على نفسه ، وخرج من مراكش فى صفر سنة احدى وستين وسبعمائة فلحق بتادلا منحرفا عن السلطان ومرتكبا للخلاف ، فتلقاه بنو جابر من عرب جشم وأجاروه واعصو صبوا عليه ، فسرح اليه السلطان أبو سالم وزيره الحسن بن يوسف الورتاجنى فاحتل بتادلا ، وانشمر الحسن بن عمر الى الجبل بها فاعتصم به ومعه كبير بنى جابر الحسن بن على الورديغى ، فأحاطت بهم العساكر وأخذوا بمخنقهم ، وداخل الوزير بعض أهل الجبل من برابرة صناكة فى الثورة بهم ، وسرب اليهم المال فثاروا بهم وانفض جمعهم ، وتقبضوا على الحسن بن عمر وقادوه برمته الى الحسن بن يوسف فاعتقله ، وانكفأ راجعا به الى الحضرة فدخلها فى يوم مشهود استركب السلطان فيه الجند وجلس ببرج الذهب مقعده من ساحة البلد ، وحمل الحسن بن عمر على جمل فطيف به بين تلك الجموع، ولما قرب من مجلس السلطان أومأ الى تقبيل الارض من فوق جمله ، ثم ركب السلطان الى قصره ، وانفض الجمع وقد شهر الحسن بن عمر وأصحابه فصاروا

عبرة لمن اعتبر .

ولما دخل السلطان قصره ، جلس على كرسيه واستدعى خاصته وجلساءه ، وأحضر ابن عمر فوبخه ، وقرر عليه ذنوبه ، فتلوى بالمعاذير وفزع الى الانكار . قال ابن خلدون : « وحضرت هذا المجلس يومئذ فيمن حضره من الخاصة فكان مقاما تسيل فيه العيون رحمة وعبرة » . ثم أمر به السلطان فسحب على وجهه ، ونتفت لحيته وضرب بالعصى ، وثل الى محبسه ثم قتل بعد ليال قعصا بالرماح خارج البلد ونصب شلوه بباب المحروق رحمه الله تعالى .

نهوض السلطان أبى سالم الى تلمسان واستيلاؤه عليها

لما استوسق للسلطان أبى سالم ملك المغرب ومحا أثر الخوارج منه سمت همته الى تملك تلمسان كما كان لابيه وأخيه من قبل ، وأكد عزمه على ذلك ما كان من فرار عبد الله بن مسلم الزرد الى عاملهم على درعة اليها فأجمع السطان أبو سالم النهوض اليها ، وعسكر بظاهر فاس الجديد منتصف سنة احدى وستين وسبعمائة، ولما توافت لديه الحشود، وتكاملت بسدته الجنود، ارتحل الى تلمسان

واتصل خبر نهوضه بسلطانها أبى حمو ابن يوسف الزيانى ، ووزيره عبدالله ابن مسلم الزرد الى فنادوا فى العرب من بنى عامر بن زغبة وبنى معقل فأجابوهم كافة الا شرذمة قليلة من الاحلاف ، ثم خرج أبو حمو وشيعته عن تلمسان الى الصحراء والتفت عليه العرب بحللها .

ولما دخل السلطان أبو سالم تلمسان واستولى عليها خالفه أبو حمو فى عربه الى المغرب فنزلوا آكرسيف ووطاط وبلاد ملوية وحطموا زروعها وانتسفوا بركتها وخربوا عمرانها ، وبلغ السلطان أبا سالم ما كان من افسادهم فأهمه أمر المغرب ، وكان فى جملته من بنى زيان محمد بن عثمان ابن السلطان

أبى تاشفين، ويكنى: أبا زيان، فعقد له على تلمسان، وأعطاه الآلة وجمع له جيشا من مغراوة وبنى توجين ، ودفع لهم أعطياتهم ، وانكفأ راجعا الى فاس ، فأجفل أبو حمو والعرب أمامه ، ثم خالفوه الى تلمسان فطردوا عنها أبا زيان واستولوا عليها ، وثبت قدم أبى حمو بها ، وعاد أبو زيان الى المغرب لاحقا بالسلطان أبى سالم قبله ، وعقد المهادنة مع أبى حمو واستقر الامر على ذلك . وقد كان ابن الخطيب عند ما بلغه استيلاء السلطان أبى سالم على تلمسان هنأه بقصيدة طويلة يقول فى مطلعها :

أطاع لسانى فى مديحك احسانى وقد لهجت نفسى بفتح تلمسان

ويقول فى أثنائها وقد ألم بشىء من علم الاحكام النجومية لميل السلطان اليه :

ولله من ملك سعيد ونصبة قضى المشترى فيها بعزلة كيوان
وسجل حكم العدل بين بيوتها وقوفا مع المشهور من رأى يونان
فلم تخش سهم القوس صفحة بدرها ولم تشك فيها الشمس من بخس ميزان
ولم يعترض مبتزها قطع قاطع ولا نازعت نوبهرها كف عدوان
تولى اختيار الله حسن اختيارها فلم يحتج الفرغان فيها لفرغان
ولا صرفت فيها دقائق نسبة ولا حققت فيها طوالع بلدان

وفادة السودان من أهل مالى على السلطان أبى سالم

واغرابهم فى هديتهم بالزرافة الحيوان المعروف

قد تقدم لنا ما جرى من المواصلة بين السلطان أبى الحسن والسلطان منسا موسى وأخيه أو ابنه من بعده منسا سليمان وتردد الوفود واسناء الهدايا بينهم وقد كان السلطان منسا سليمان قد هيأ هدية نفيسة بقصد أن يبعثها الى السلطان أبى الحسن مكافأة له على هديته فهلك السلطان أبو الحسن خلال ذلك ، ثم هلك السلطان منسا سليمان بعده ، واختلف أهل مالى وافترق أمرهم وتقاتلوا

الملك الى أن جمع الله كلمتهم على السلطان منسا زاطة ، واستوسق له الامر
ظر فى أعطاف ملكه وأخبر بشأن الهدية التى كان منسا سليمان قد هيأها
المغرب فأمر بانفاذها اليه وضم اليها الزرافة الحيوان الغريب الشكل العظيم
ئل المختلف الشبه بالحيوانات ، وفصلوا بها من بلادهم فوصلوا الى حضرة
فى صفر من سنة اثنتين وستين وسبعمائة

قال ابن خلدون : وكان يوم وفادتهم يوما مشهودا جلس لهم السلطان
؛ الذهب بمجلسه المعد لعرض الجنود ، ونودى فى الناس بالبروز الى
حراء، فبرزوا ينسلون من كل حدب حتى غص بهم الفضاء وركب بعضهم بعضا
لازدحام على الزرافة اعجابا بخلقتها ، وحضر الوفد بين يدى السلطان
ا رسالتهم بتأكيد الود والمخالصة والعذر عن ابطاء الهدية بما كان من
'ف أهل مالى وتواثبهم على الامر ، وتعظيم سلطانهم وما صار اليه ،
جمان يترجم عنهم وهم يصدقونه بالنزع فى أوتار قسيهم، عادة معروفة لهم،
ا السلطان بان جعلوا يحثون التراب على رؤوسهم على سنة ملوك العجم ،
د الشعراء فى معرض المدح والتهنئة ووصف الحال ، ثم ركب السلطان
صره، وانفض ذلك الجمع، وقد طار به طائر الاشتهار، واستقر الوفد تحت
ة السلطان أبى سالم الى أن هلك قبل انصرافهم فوصلهم القائم بالامر من بعده
رفوا الى مراكش، ثم منها الى ذوى حسان عرب السوس الاقصى من بنى
المتصلين ببلادهم ، ومن هناك لحقوا بسلطانهم . والامر كله لله .

وكان مما قيل من الشعر فى ذلك اليوم : قول ابن خلدون من قصيدة يقول
طلعها :

قدحت يد الاشواق من زند　　　وهفت بقلبى زفرة الوجد

الى ان قال فى وصف الزرافة :

ورقيمة الاعطاف حالية　　　موشية بوشائع البرد
وحشية الانساب ما أنست　　　فى موحش البيداء بالقرد
تسمو بجيد بالغ صعدا　　　شرف الصروح بغير ما جهد
طالت رؤوس الشامخات به　　　ولربما قصرت عن الوهد

قطعت اليك تنائفا وصلت ... اسئادها بالنص والوخد
تحدى على استصعابها ذللا ... وتبيت طوع القن والقد
بسعودك اللائى ضمن لنا ... طول الحياة بعيشة رغد
جاءتك فى وفد الاحابش لا ... يرجون غيرك مكرم الوفد
وافوك انضاء تقلبهم ... أيدى السرى بالغور والنجد
كالطيف يستقرى مضاجعه ... أوكالحسام يسل من غمد
يثنون بالحسنى التى سبقت ... من غير انكار ولا جحد
ويرون لحظك من وفادتهم ... فخرا على الاتراك والهند
يا مستعينا جل فى شرف ... عن رتبة المنصور والمهدى
جازاك ربك عن خليقته ... خير الجزاء فنعم ما تسدى
وبقيت للدنيا وساكنها ... فى عزة أبدا وفى سعد

وقول الكاتب البارع أبى عبد الله بن زمرك الاندلسى من قصيدة يقول فى مطلعها :

لولا تألق بارق التذكار ... ما صاب واكف دمعى المدرار
لكنه مهما تعرض خافقا ... قدحت يد الاشواق زند أوارى

الى أن قال فى الغرض المذكور :

وغريبة قطعت اليك على الونى ... بيدا تبيد بها هموم السارى
تنسيه طيته التى قد أمها ... والركب فيها ميت الاخبار
يقتادها من كل مشتمل الدجا ... فكأنما عيناه جذوة نار
تشدو بحمد المستعين حداتها ... يتعللون به على الاكوار
ان مسهم لفح الهجير أبلهم ... منه نسيم ثنائك المعطار
خاضوا بها لجج الفلا فتخلصت ... منها خلوص البدر بعد سرار
سلمت بسعدك من غوائل مثلها ... وكفى بسعدك حاميا لذمار
وأتتك يامللك الزمان غريبة ... قيد النواظر نزهة الابصار
موشية الاعطاف رائقة الحلى ... رقمت بدائعها يد الاقدار
راق العيون اديمها فكأنه ... روض تفتح عن شقيق بهار

ما بين مبيض وأصفر فاقـــع سال اللجين به خلال نضـــار
يحكي حدائق نرجس في شاهق تنساب فيه أراقـم الانهـــار
تحدو قوائم كالجذوع وفوقها جبل أشم بنوره متـــوارى
وسمت بجيد مثل جذع مائـل سهل التعطف ليـن خـــوار
تستشرف الجدرات منه ترائبـا فكانما هو قائم بمنـــار
تاهت بكلكلها وأتلع جيدهـــا ومشى بها الاعجاب مشى وقار
خرجوا لها الجم الغفير وكلهم متعجب من لطف صنع البـارى
كل يقول لصحبه قوموا انظروا كيف الجبال تقاد بالاسيـــار
ألقت ببابـك رحلهـا ولطالما ألقى الغريب به عصا التسيـار
علمت ملوك الارض أنك فخرها فتسابقت لرضـــاك فى مضمـار
يتبوأون به وان بعد المـــدى من جاهك الاعلى أعز جـوار
وارفع لواء الفخر غير مدافـــع واسحب ذيول العسكر الجرار
واهنأ بأعياد الفتوح مخــــولا ما شئت من نصر ومن أنصـار
واليكها من روض فكرى نفحة شف الثناء بها على الازهـــار
فى فصل منطقها ورائق رسمها مستمتع الاسماع والابصـــار
وتميل من أصغى لها فكأننـــي عاطيته منها كؤس عقـــار

مقتل السلطان أبي سالم رحمه الله والسبب فى ذلك

كان السلطان أبو سالم رحمه الله قد غلب على هواه الخطيب أبو عبد الله بن مرزوق وألقى زمام الدولة بيده ، فنقم خاصة السلطان وحاشيته ذلك عليه وسخطوا الدولة من أجله ، ومرضت قلوب أهل الحل والعقد من تقدمه فتربصوا بالدولة الدوائر الى ان كانت أواخر سنة اثنتين وستين وسبعمائة ، فتحول السلطان أبو سالم عن دار الملك من فاس الجديد الى القصبة من فاس القديم ، واختط بها ايوانا فخما لجلوسه ، فلما استولى عمر بن عبد الله بن على بن سعيد الفودودي أحد كبراء الدولة ووزرائها على دار الملك ، اذ كـــان

السلطان أبو سالم قد خلفه أمينا عليها، حدثته نفسه بالتوثب ، وسهل ذلك عليه ما كان قد عرفه من مرض القلوب على السلطان لمكان ابن مرزوق ، فداخل قائد جند النصارى غرسية بن أنطول ، واتعدوا لذلك ليلة الثلاثاء السابع عشر من ذى القعدة من السنة المذكورة ، فعمدوا الى تاشفين الموسوس ابن أبى الحسن فخلعوا عليه ، وألبسوه شارة الملك وقربوا له مركبا وأجلسوه مجلس السلطان، وأكرهوا شيخ الحامية والناشبة محمد بن الزرقاء على البيعة ، وجاهروا بالخلعان وقرعوا الطبول ودخلوا الى بيت المال ففرضوا العطاء من غير تقدير ولا حساب ، وماج الجند بفاس الجديد بعضهم فى بعض ، واختطفوا ما وصلوا اليه من العطاء ثم انتهبوا ما كان بالمخازن الخارجية من السلاح والعدة ،وأضرموا النيران فى بيوتها سترا على ما ضاع منها ، وأصبح السلطان أبو سالم بمكانه من قصبة فاس القديم ، وكان قد تحول اليها فرارا من قاطع فلكى خوفه اياه بعض منجميه فكان البلاء فيه موكلا بالمنطق ، فلما علم بالكائنة ركب واجتمع اليه من حضر من أوليائه ، وغدا على فاس الجديد وطاف بها يروم اقتحامها فامتنعت عليه ، ثم اضطرب معسكره بكدية العرائس لحصارها ونادى فى الناس بالاجتماع اليه ، ولما كان وقت الهاجرة دخل فسطاطه للقيلولة فتسايل الناس عنه الى فاس الجديد فوجا بعد فوج بمرأى منه الى أن انفض عنه خاصته وأهل مجلسه فطلب النجاء بنفسه ، وركب فى لمة من الفرسان وفيهم وزيراه سليمان بن داود ومسعود بن عبد الرحمن بن ماساى ، ومقدم الموالى والجند ببابه سليمان بن ونصار ، وأذن لابن مرزوق فى الدخول الى داره ، ومضى هو على وجهه فيمن معه ، ولما غشيهم الليل انفضوا عنه حتى بقى وحده، ورجع الوزيران الى دار الملك فتقبض عليهما رئيس الثورة عمر بن عبد الله الفودودى ، ومشاركه فيها غرسية بن انطول النصرانى ، واعتقلاهما متفرقين ، وبعث عمر بن عبد الله الطلب فى أثر السلطان أبى سالم فعثروا عليه نائما من الغد فى بعض المجاشر بوادى ورغة وقد غير لباسه اختفاء بشخصه وتواريا عن العيون بمكانه ، فتقبضوا عليه وحملوه على بغل وطيروا بالخبر الى عمر بن عبد الله فأزعج لتلقيه شعيب بن ميمون بن داود ، وفتح الله بن عامر بن فتح الله السدراتى وأمرهما بقتله

وانفاذ رأسه ، فلقياه بخندق القصب ازاء كدية العرائس فأمرا بعض جند النصارى أن يتولى ذبحه ففعل ، وحملوا رأسه في مخلاة ووضعوه بين يـــدى الوزير الثائر ومشيخته ، وكان ذلك يوم الخميس الحادى والعشرين من ذى القعدةسنة اثنتين وستين وسبعمائة ودفن بالقلة خارج باب الجيسة بأعلى جبل العرض المعروف بجبل الزعفران (*)

قال ابن الخطيب في الاحاطة : « كان السلطان أبو سالم رحمه الله بقية البيت وآخر القوم دماثة وحياء وبعدا عن الشرور وركونا للعافية » قال : وأنشدت على قبره الذى ووريت به جثته قصيدة أديت فيها بعض حقه :

بنى الدنيا بنى لمع السراب * لدوا للموت وابنوا للخراب»

ومن أعيان وزرائه: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق العجيسى الخطيب المشهور الذى مر ذكره آنفا .

ومن قضاة عسكره : أبو القاسم محمد بن يحيى الاندلسى البرجى .

ومنأعيان كتابه : الرئيس أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون صاحـــب التاريخ .

وأبو القاسم(*)عبد الله بن يوسف بن رضوان النجارى من أهل مالقة صاحب كتاب السياسة وغيره ، ومما نظمه هذا الفاضل عن اذن السلطان أبى سالم رحمه الله ليكتب فى طرة قبة رياض الغزلان من حضرته قوله :

(*) ومن اولاده : السلطان ابو العباس احمد ،والسلطان ابو الفضل محمد، ومحمد آخر.

(*) ابو القاسم ابن رضوان صاحب كتاب السياسة . لما وقعت هزيمة طريف قرب القيروان على أبى الحسن رجع ابو القاسم هذا الى الاندلس ويقى بها الى ان تم الامر لابي عنان فرجع حينئذ للمغرب وكلفه ابو عنان بكتابة العلامة اما صاحب دوة الحجال فانه ذكر كاتبين من هذه العائلة احدهما: اسمه محمدبن يوسف بن رضوان المتوفى سنه٨٦٨ وثانيهما يسمى ابا القاسم بن محمد بن يوسف بن رضوان المتوفى سنة٧٨٣ اما الكاتب ابو القاسم عبد الله فقد ترجمه فى جذوة الاقتباس وذكر انه توفى بآنفا ودفن بمقبرة الحاج صالح سنة ٧٣٣ راجع ترجمته طبع فاس

هذا محل المنى بالامن مغمــــور — من حله فهو بالامان مجبــور
مأوى النعيم به ما شئت من تــرف — تهوى محاسنه الولدان والحــور
ويطلع الروض منه مصنعا عجبــا — يضاحك النور من لألائه النــور
ويسطع الزهر من أرجائه أرجــا — ينافح الند نشر منــه منشــور
مغنى السرور سقاه الله ما حملت — غر الغمام وحلته الازاهيـــر
انظر الى الروض تنظر كل معجبة — مما ارتضاه لرأى العين تحبيـــر
مر النسيم به يبغى القرا فقــرا — دراهم النور تبديد وتنثير
وهامت الشمس فيحسن الظلال به — ففرقت فوقه منها دنانيـــر
كأنما الطير فى افنانها صدحــت — بشكر مالكها والفضل مشكـــور
والدوح ناعمة تهتز من طــرب — همسا وصوت غناء الطير مجهـــور
والنهر شق بساط الارض تحسبه — سيفا ولكنه فى السلـم مشهـــور
ينساب للجنة الخضراء أزرقــــه — كالايم جد انسياب وهو مذعـــور
هذى مصانع مولانا التى جمعــت — شمل السرور وأمر السعد مأمــور
وهذه القبة الغراء ما نظــــرت — لشكلها العين الاعز تنظيـــــر
ولا يصورها فى الفهم ذو فكـــر — الا ومنه لكل الحسن تصويــــر
ولا يرام بحصر وصف ما جمعت — من المحاسن إلا صد تقصيـــــر
فيها المقاصير تحميها مهابتــــه — لله ما جمعت تلك المقاصيــــر
كأنها الافق تبدو النيـــرات بـــه — ويستقيم بها فى السعد تسييـــر
وينشأ المزن فى أرجائه ولــــه — من عنبر الشحر انشاء وتسخيـــر
وينهمى القطر منه وهو منسكـــب — ماء من الورد يذكو منه تعطيـــر
وتخفق الريح منه وهى ناسمــــة — مما أهب به مســك وكافـــــور
ويشرق الصبح منه وهو من غرر — غر تلألأ منهن الاساريـــــــر
وتطلع الشمس فيه من سنا ملـك — تسم الدهر منه وهو مسرور

ومضى فى مدح السلطان والله تعالى يتغمد الجميع برحمته بمنه وكرمه.

٤١

الخبر عن دولة السلطان أبي عمر تاشفين الموسوس

ابن أبي الحسن المريني

هذا السلطان كان محجوبا لوزيره عمر بن عبد الله الفودودي لا يملك معه ضرا ولا نفعا . أمه : أم ولد اسمها ميمونة، صفته: طويل القامة، عظيم الهيكل بعيد ما بين المنكبين ، أعين أدعج ، وكان فارسا بطلا قوي الساعد الا أنه كان ناقص العقل .

ولما ثار عمر بن عبد الله بالسلطان أبي سالم وسعى في هلاكه الى أن قتل كما مر استبد بامر الدولة ونصب هذا الموسوس يموه به على الناس فبويع ليلة الثلاثاء التاسع عشر من ذي القعدة سنة اثنتين وستين وسبعمائة حسبما سبق ، وكان نقصان عقل تاشفين من أجل الاسر الذي أصابه بوقعة طريف أيام والده السلطان أبي الحسن الى أن افتدى وبقي ناقص العقل مختل المزاج (*) الى أن كان من أمره ما كان .

الفتك بغرسية بن انطول قائد النصارى ومقتل جنده معه

والسبب في ذلك



لما قبض عمر بن عبد الله على الوزيرين مسعود بن عبد الرحمن بن ماساي ، وسليمان بن داود سجنهما متفرقين فأخذ اليه ابن ماساي لمكان صهره منه ودفع لغرسية سليمان بن داود ، وكان سليمان بن ونصار قد فر مع السلطان أبي سالم كما مر ، ولما رجع عنه فيمن رجع نزل على غرسية فقبله وأكرمه . وكان يعاقره الخمر ففاوضه ذات ليلة في الثورة بعمر بن عبد الله واعتقاله ،

(*) انظر ما كتبه المؤلف في هذه المسألة في كتابه «كشف العرين عن ليوث بني مرين» اثناء كلامه على دولة السلطان تاشفين الموسوس بن أبي الحسن أيضا

واقامة سليمان بن داود المسجون بداره مقامه لما هو عليه من السن ورسوخ القدم في الامر ، ونما الخبر بذلك الى عمر بن عبد الله فارتاب ، وكان خلوا من العصبية ففزع الى قائد المركب السلطاني من ناشبة الاندلس ورماتها ، وهو يومئذ ابراهيم البطروجي ، فعاقده على أمره ، وبايعه على الاستماتة دونه ، ثم رأى أن ذلك لا يكفيه ففزع ثانيا الى يحيى بن عبد الرحمن شيخ بني مرين وصاحب شوارهم ، فشكا اليه فأشكاه ، ووعده الفتك بابن انطول وأصحابه وانبرم عقد ابن انطول ، وسليمان بن ونصار أيضا على عمر بن عبد الله وغدوا الى القصر ، وداخل ابن انطول طائفة من النصارى استظهارا بهم ، وتوافت بنو مرين بمجلس السلطان على عادتهم ، وحضر ابن انطول ، والبطروجي ، ويحيى ابن عبد الرحمن ، وغير هؤلاء من الوجوه ، فسأل عمر بن عبد الله من ابن انطـــول تحويل سليمان بن داود من داره الى السجن فأبى ، وضن به عن الاهانة ، حتى سأل مثلها من ابن ماساي صاحبه ، فامر عمر بالتقبض عليه فكشر في وجوه الرجال ، واخترط سكينه للمدافعة ، فتواثبت بنو مرين عليه وقتلوه لحينه ، واستلحموا من وجدوا بالدار من جند النصارى عند دخولهم مـــع قائدهم ، وفر بعضهم الى معسكرهم ، ويعرف بالملاح جوار فاس الجديد ، وأرجف الغوغاء بالمدينة أن ابن انطول قد غدر بالوزير ، فقتلوا جنـــد النصارى حيث وجدوهم من سكك المدينة ، وتزاحفوا الى الملاح لاستلحام من بقي به منهم ، وركبت بنومرين لحماية جندهم من معرة الغوغاء ، وانتهب يومئذ الكثير من أموالهم وآنيتهم وأمتعتهم ، وقتل النصارى أيضا كثيرا من مجـــان المسلمين كانوا يعاقرون الخمر بالملاح ، ثم سكنت الهيعة وما كادت .

واستبد عمر بن عبد الله بدار الملك ، واعتقل سليمان بن ونصار الى الليل ثم بعث من قتله بمحبسه ، وحول سليمان بن داود الى بعض الدور من دار الملك فاعتقله بها واستولى على أمره ، ثم خاطب عامر بن محمد الهنتاتـــي في اتصال اليد به واقتسام ملك المغرب بينه وبينه ، وبعث اليه بابي الفضل ابن السلطان أبي سالم اعتده عنده ليوم ما ، ثم فسد ما بينه وبين مشيخة بني مرين فاجتمعوا على كبيرهم يحيى بن عبد الرحمن وعسكروا بباب الفتوح واستدعوا

عبد الحليم بن أبى على ابن السلطان أبى سعيد من تلمسان على ما نذكره .

ظهور عبد الحليم بن أبي علي بن ابي سعيد ومحاصرته لفاس الجديد ثم فراره عنها

قد قدمنا في أخبار السلطان أبى الحسن أن أخاه أبا على صاحب سجلماسة كان قد انتقض عليه فامكنه الله منه فقتله وكفل أولاده فلم يميز بينهم وبين أولاده فى شيء من الاشياء ، ولما أفضى الامر الى أبى عنان بعث جماعة من اخوته وقرابته الى الاندلس تحت حياطة ابن الاحمر ، وكان فيهم أولاد أبي على هؤلاء ثم بعد حين سرحوا وقدموا تلمسان على سلطانها أبى حمو بن يوسف فكانوا عنده الى هذا التاريخ فلما فسد ما بين عمر بن عبد الله وشيوخ بنى مرين بعثوا (*) الى تلمسان جملة منهم لاستقدام عبد الحليم المذكور فسرحه أبو حمو ، وأعانه بشيء من الآلة ، وجمع عليه من رغب فى طاعته ، وزحف الى فاس فتلقته جماعة بنى مرين بسبو ، ونزلوا على فاس الجديد يوم السبت سابع محرم سنة ثلاث وستين وسبعمائة ، واضطربوا معسكرهم بكدية العرائس ، وحاصروا دار الملك سبعة أيام ، وتتابعت وفودهم وحشودهم ، ثم ان عمر بن عبد الله برز يوم السبت القابل فى مقدمة السلطان تاشفين بمن معه من جند المسلمين والنصارى رامحة وناشبة ، ووكل بالسلطان من جاء به فى الساقة على التعبية المحكمة ، وناوشهم الحرب فزحفوا اليه فاستطرد لهم ليتمكن الناشبة من عقرهم من الاسوار حتى فشت فيهم الجراحات ، ثم صمم نحوهم فانفرج القلب وانفضت الجموع ، ثم زحف السلطان تاشفين فى الساقة فابذعروا فى الجهات ، وافترق بنو مرين الى مواطنهم ، ولحق يحيى بن عبد الرحمن بمراكش مع

(*) راجع ماعند يحيى ابن خلدون فى بغية الرواد صحيفة ٩٥ ج ٢ طبع الجزائر سنة ١٣٢٨

مبارك بن ابراهيم شيخ الخلط ، ولحق عبد الحليم واخوته بتازا بعد ان شهد لهم رجال الدولة بصدق الجلاد وحسن البلاء في ذلك المقام .

ثم ان الوزير عمر بن عبد الله راجع بصيرته في تقديم المعتوه للامر ، وعلم ان الامر لا يستقيم له بذلك ، فبادر باستقدام أبى زيان محمد بن أبى عبد الرحمن يعقوب ابن السلطان أبى الحسن ، وكان عند الطاغية بدار الحرب فقدم ، وخلع الوزير المذكور سلطانه الموسوس يوم الاثنين الحادى والعشرين من صفر سنة ثلاث وستين وسبعمائة فكانت دولته ثلاثة أشهر ويومين ومات وسنه ستون سنة ، والله تعالى أعلم .

الخبر عن دولة السلطان المتوكل على الله أبي زيان محمد بن أبى عبد الرحمن يعقوب بن أبى الحسن المرينى

هذا السلطان كان محجوبا للوزير عمر بن عبد الله أيضا كنيته: أبو زيان، لقبه: المتوكل على الله ، أمه: أم ولد اسمها فضة . صفته : آدم اللون شديد الادمة، معتدل القامة ، منفرج الانف ، دقيق العينين .

وقال ابن الخطيب في الاحاطة : حاله فاضل سكون ، منقاد مشتغل بخاصة نفسه ، قليل الكلام حسن الشكل ، درب بركض الخيل ، مفوض للوزراء ، عظيم التأني لاغراضهم ، وكان قبل ولايته عند الطاغية (*) بالاندلس فر اليه خوفا على نفسه ، ولما التبست الامور على عمر بن عبد الله طلبه الى الطاغية فسمح به بعد اشتراط واشتطاط وفصل من اشبيلية في المحرم فاتح سنة ثلاث وستين وسبعمائة ونزل بسبتة ، وبها سعيد بن عثمان من قرابة الوزير عمر بن عبد الله أرصده لقدومه، فطير اليه بالخبر ، فحينئذ خلع عمر تاشفين الموسوس ، وبعث الى السلطان

(*) انظر ما كتبه المؤلف في هذا الموضوع في كتابه «كشف العرين عن ليوث بنى مرين» أثناء الكلام على دولة هذا السلطان رحمه الله

أبى زيان بالبيعة والآلة والفساطيط ، ثم جهز عسكرا للقائه ، فتلقوه بطنجة ، وأغذ السير الى الحضرة فنزل منتصف صفر بكدية العرائس ، واضطرب معسكره بها وتلقاه يومئذ الوزير عمر بن عبد الله اليابانى وبايعه ، وأخرج فسطاطه فاضطرب بمعسكره وتلوم السلطان أبو زيان هنالك ثلاثا ثم دخل فى اليوم الرابع الى قصره وافتعد أريكته وتودع ملكه .

وقال ابن الخطيب فى الاحاطة : « كان دخوله داره مغرب ليلة الجمعة بطالع الثامن من السرطان ، وبه السعد الاعظم كوكب المشترى من السيارة السبعة » اهـ ولما تم له الامر خاطبه ابن الخطيب من سلا مهنئا له بقوله :

يا ابن الخلائف يا سمى محمد ... يامن علاه ليس يحصر حاصر
أبشر فأنت مجدد الملك الذى ... لولاك أصبح وهو رسم داثر
من ذا يعاند منك وارثه الذى ... بسعوده فلك المشيئة دائر
ألقت اليك يد الخلافة أمرها ... اذ كنت انت لها الولى الناصر
هذا وبينك للصريخ وبينها ... حرب مضرسة وبحر زاخر
من كان هذا الصنع أول أمره ... حسنت له العقبى وعز الآخر
مولاى عندى فى علاك محبة ... والله يعلم ما تكن ضمائر
قلبى يحدثنى بانك جابر ... كسرى وحظى منك حظ وافر
بثرى جدودك قد حططت حقيبتى ... فوسيلتى لعلاك نور باهر
وبذلت وسعى واجتهادى مثل ما ... يلقى لملكك سيف أمرك عامر
فهو الولى لك الذى اقتحم الردى ... وقضى العزيمة وهو سيف باتر
وولى جدك فى الشدائد عند ما ... خذلت علاه قبائل وعشائر
فاستهد منه النصح واعلم انه ... فى كل معضلة طبيب ماهر
ان كنت قد عجلت بعض مدائحى ... فهى الرياض وللرياض بواكر

ثم أتبعها بنثر أضربنا عنه اختصارا والله تعالى الموفق .

٤٦

وفادة ابن الخطيب من سلا على السلطان ابي زيان بن ابي عبد الرحمن رحمهما الله

قال في «الاحاطة» : وفدت على السلطان أبى زيان بن أبى عبد الرحمن بن أبى الحسن من محل الانقطاع بسلا وأنشدته قولى :

لمن علم فى هضبة الملك خفاق ... افاقت به من غشية الهرج آفاق
تقل رياح النصر عنه غمامة ... تمد لها أيد وتخضع أعناق
وبيعة شورى أحكم السعد عقدها ... وأعمل اجماع عليها واصفاق
قضى عمر فيها بحق محمد ... فسجل عهد للوفاء وميثاق
أحلما ترى عيناى أم هى فترة ... أعندكما في مشكل الامر مصداق
وفاض لفضل اللهفى الارض تبتغى ... ومجتمعات لا تريب وأسواق
وسرح تهنيه الكلاءة بالكلا ... وفلح لسقى الغيث قام له ساق
وقد كان طيف الحلم لا يعمل الخطا ... وللفتنة العمياء فى الارض اطباق
وللغيث امساك وفى الارض رجة ... وللدين والدنيا وجوم واطراق
فكل فريق فيه للبغى راية ... وكل طريق فيه للعيث طراق
أجل انه من آل يعقوب وارث ... يحن له البيت العتيق ويشتاق
له من جناح الروح ظل مسجف ... ومن رفرف العز الالهى رستاق
أطل على الدنيا وقد عاد ضوءها ... دجى وعلى الاحداق للذعر احداق
فأشرقت الارجاء من نور ربها ... وساح بها لله لطف واشفاق
فمن ألسن بالشكر لله أعلنت ... وكان لها من قبل همس واطباق
وليس لامر أبرم الله ناقض ... وليس لمسعى النجح فى الله اخفاق
محمد قد أحييت دين محمد ... وللخلق أدماء تفيض وارماق
ولو لم تثب غطى على شفق الضحا ... دم لسيوف البغى فى الارض مهراق
فأيمن بمشحون من الفلك سابح ... له باختيار الله حظ وإيساق

أقلك والدأماء تظهر طاعـــــة   اليك وصفح الماء أزرق رفـــراق
الى هدف السعد انبرى منه والدجا   تظل الحجى سهم من السعد رشاق
فخطت لتقويم القوام جـــداول   وصحت من التوفيق واليمن أوفاق
تبارك من أهداك للخلق رحمــــة   ومستبعد أن يهمل الخلق خــلاق
هو الله يبلو الناس بالخير فتنـــة   وبالشر والايام سم وتريـــاق
سمت منك أعناق الورى لخليفــة   له فى مجال السعد عدو واعنــاق
وقالوا بنان ما استقل بكفـــه   تفيض على العافين أم هـــى ارزاق
وأطنب فيك المادحون وأغرقـــوا   فلم يجد اطناب ولم يغن اعــراق
ألست من القوم الذين أكفهـــم   غمام ندى ان أخلف الغيث غيداق
ألست من القوم الذين وجوههـــم   بدور لها فى ظلمة الروع اشـراق
رياض اذا العافى استظل ظلالهــا   ففيها جنى ملء الاكف وايــراق
أبوك ولى العهد لو سالم الـــردى   وجدك قد فاق الملوك وان فاقـــوا
فمن ذاله جد كجدك أو أب   لآلىء والمجد المؤثـل نســـاق
وحسب العلا فى آل يعقوب أنهم   هم الاصل فى العلياء والناس الحاق
أسود سروج أو بدور أســــرة   فان حاربوا راعوا وان سالموا راقوا
يطول لتحصيل الكمال سهادهـــم   فهم للمعالى والمكارم عشــــاق

ومنها :

لقد نسيت احسان جدك فرقـــة   تزر على أعناقهم منه أطـــواق
أجازت خروج ابن ابنه عن تراثه   ولم تدر ما ضمت من الذكر أوراق
ومن دون ما راموه لله قـــدرة   ومن دون ما أموه للفتح اغـــلاق
خذ العفو وابذل فيهم العرف ولتسع   جريرة من أبدى لك العذر أخلاق
فربتما تنبو مهندة الظبــــى   وتهفو حلوم القوم والقوم حذاق
وما الناس الا مذنب وابن مذنــب   ولله ارفاد عليهم وارفـــاق
ولا نرج فى كل الامور سوى الذى   خزائنه ما ضرها قط انفـــاق
اذا هو أعطى لم يضر منع مانــع   وان حشدت طسم وعاد وعمـــلاق
عرفت الردى واستأثرت بك للعدا   تخوم لمختط الصليب وأعمـــاق

فيسر لليسرى وأحيى بك الـورى | وللروع ارعاد عليك وابـــراق
فجاز صنيع الله وازدد بشكــره | مواهب جود غيثها الدهر دفـــاق
وأوف لمن أوفى وكاف الذى كفى | فانت كريم طهرت منك اعـــراق
وتهنيك يا مولى الملوك خلافـــة | شجتها تباريح اليك وأشـــواق
فقد بلغت أقصى المنى بك نفسهـــا | وكم فاز بالوصل المهنا مشتـــاق
فلا راع منها السرب للدهر رائع | ولا نال منها جدة السعد اخـــلاق
أمولاى راع الدهر سربى وغالنى | فطرفى مذعور وقلبى خفـــــق
وليس لكسرى غيرك اليوم جابـر | ولا ليدى الا بمجدك اعـــلاق
ولى فيك ود واعتداد غرستـــه | فراقت به من يانع الحمـــد أوراق
وقد عيل صبرى فى ارتقابى خليفة | تحل به للضرغنـــى أوهـــاق
وأنت حسام الله والله ناصر | وأنت أمين اللـــه واللـــه رزاق
وأنت الامان المستجار من الـردى | اذا راع خطب أو توقع امـــلاق
وأهون ما يرجى لديك شفاعـــة | اذا لم يكن عزم حثيث وارهـــاق
ودونكها من ذائع الحمد مخلـص | له فيك تقييد يروق واطـــلاق
اذا قال اما كل سمع لقولـــــه | فمصـغ وأما كل أنـسـف فنشـاق
ودم خافق الاعلام بالنصر كلمـــا | ذهبت لمسعى لم يكـن فيه اخفـــاق

قال : « وعدت منه ببر كبير واحترام شهير » : يشير بذلك الى ما أكرمه به وكتب له من الظهير الذى يتضمن كمال الاحترام والتوقير ، ونصه : « هذا ظهير كريم من أمير المسلمين فلان أيده الله ونصره ، وسنى له الفتح المبين ويسره، للشيخ الفقيه الاجل الاسنى الاعز الاحظى ، الارفع الامجد الاسمى الاوحد الانور الارقى العالم العلم الرئيس الاعرف المتفنن الابرع ، المصنف المفيد الصدر الاحفل ، الافضل الاكمل ، أبى عبد الله ابن الشيخ الفقيه الوزير الاجل الاسنى الاعز الارفع الامجد الوجيه الانوه الاحفل، الافضل الحسيب الأصيل الاكمل ، المبرور المرحوم أبى محمد ابن الخطيب قابله أيده الله بوجه القبول والاقبال ، وأضفى عليـه ملابـس الانعـام والافضـال ، ورعـى لـه خدمـة السلف الرفيع الجلال ، وما تقـرر من مقاصـده الحسنـة

في خدمة أمرنا العالي ، وأمر في جملة ما سوغه من الآلاء الوارفة الظلال ، الفسيحة المجال ، بان يجدد له حكم ما بيده من الاوامر المتقدم تاريخها ، المتضمنة تمشية خمسمائة دينار من الفضة العشرية في كل شهر عن مرتب له ولولده الذي لنظره من مجبي مدينة سلا حرسها الله ، ومن حيث جرت العادة ان تمشى له ، ورفع الاعتراض ببابها فيما يجلب من الادم والاقوات على اختلافها من حيوان وسواه ، وفيما يستفيده خدامه بخارجها واحوازها من عنب وقطن وكتان وفاكهة وخضر وغير ذلك فلا يطلب في شيء من ذلك بمغرم ولا وظيف ولا يتوجه فيه اليه بتكليف ، يتصل له حكم جميع ما ذكر في كل عام تجديدا تاما واحتراما عاما ، اعلن بتجديد الحظوة واتصالها ، واتمام النعمة واكمالها ، من تواريخ الاوامر المذكورة الى الآن ومن الآن الى ما يأتي على الدوام واتصال الايام ، وأن يحمل جانبه فيمن يشركه أو يخدمه محمل الرعي والمحاشاة في السخر مهما عرضت ، والوظائف اذا افترضت ، حتى يتصل له تالد العناية بالطارف ، وتتضاعف أسباب المنن والعوارف بفضل الله ، وتحرر له الازواج التي يحرثها بتالماغت من كل وجيبة ، وتحاشى من كل مغرم أو ضريبة بالتحرير التام بحول الله وعونه ، ومن وقف على هذا الظهير الكريم فليعمل بمقتضاه وليمض ما أمضاه ان شاء الله ، وكتب في العاشر من شهر ربيع الآخر من سنة ثلاث وستين وسبعمائة » « وكتب في التاريخ » اه وقوله وكتب في التاريخ هو العلامة السلطانية في ذلك الزمان يكتب بقلم غليظ ، وبعض ملوك المغرب يكتب عند العلامة : « صح في التاريخ» .



وفادة عامر بن محمد الهنتاتي على السلطان ابي زيان بن ابي عبد الرحمن رحمهما الله

كان للوزير عمر بن عبد الله اليابانى مودة ومصافاة مع الرئيس الشهير أبى ثابت عامر بن محمد الهنتاتى كبير جبل درن والبلاد المراكشية ، وكان الوزير عمر المذكور قد بعث اليه بصهره وظهيره على الملك مسعود بن عبد الرحمن ابن ماساى يكون عنده عدة وعتادا ليوم ما ، فلما بويع السلطان أبو زيان استقدم عمر بن عبد الله صهره المذكور لوزارته ، وكان عامر بن محمد مجمعا القدوم على السلطان المذكور ، فقدم فى صحبته مسعود ، ونزلا من الدولة بخير منزل .

وعقد السلطان أبو زيان لمسعود المذكور على وزارته باشارة الوزير عمر ابن عبد الله فاضطلع بها ، ودفعه عمر اليها استمالة اليه وثقة بمكانه واستظهارا بعصبيته ، وعقد مع عامر بن محمد الحلف على مقاسمة المغرب شق الابلمة ، وجعل امارة مراكش لابى الفضل ابن السلطان أبى سالم اسعافا لغرض عامر ابن محمد فى ذلك .

وخطب اليهم عامر بنت السلطان أبى بكر الحفصى التى توفى عنها السلطان أبو عنان(*)فاجابوه ، وحملوا أولياءها على العقد عليها ، وانكفأ راجعا الى مكان عمله بمراكش يجر الدنيا وراءه عزا وثروة وتابعا ، وذلك فى جمـــدى الاولى من سنة ثلاث وستين وسبعمائة ، فاستقل بأمر الناحية الغربية من مراكش وجبال المصامدة وما اليها من الاعمال واستبد بها ، ونصب أبا الفضل ابن السلطان أبى سالم صورة ، واستوزر له وتمكن سلطانه وعلا ذكره ، وصارت كأنها دولة مستقلة ، فصرف اليه النازعون من بنى مرين عن الدولة وجوه مفرهم ،ولجأوا اليه فأجارهم على السلطان واجتمع اليـــه منهم مـــلأ ، واتســـع الخــــرق

(*) والصحيح ابو الحسن لان المصاهرة لم تنعقد بين ابى عنان والحفصيين راجع ابن خلدون ج ٢ صحيفة ٤٧٢ وتاريخ الدولتين للزركشى صحيفة ٨٣ وصحيفة ٨٤

على الراقع ، واضطربت الاحوال بالمغرب ، وخرج على السلطان أبى زيان الامير عبد الحليم بن أبى على بن أبى سعيد ، وتغلب على سجلماسة وأعمالهـا ، ثم غلب عليه أخوه عبد المؤمن بن أبى على فخرج عبد الحليم الى المشرق لقضاء فريضة الحج ، واستمر عبد المومن بسجلماسة ، وأقام بها دولة كما كان لوالده من قبل الى أن فتحها الوزير مسعود بن عبد الرحمن بن ماساى وأضافهـا الى مملكة فاس ، ثم انتقض الوزير مسعود أيضا وبايع الامير عبد الرحمن بن أبى يفلوسن بن أبى على ، ونصبه للامر وصار يشوش به على الدولة ، وشرق عمر ابن عبد الله بدائه فى أخبار طويلة ، ولما لم يتم له أمر عبر هو وسلطانه البحر من مرسى غساسة الىالاندلس فاتح سنة سبع وستين وسبعمائة ، وأقبلا عـلى الجهاد واستراح الوزير عمر وسلطانه أبو زيان من شغبهما . والله غالب على أمره .

مقتل السلطان أبي زيان بن أبي عبد الرحمن رحمه الله

لما طال استبداد الوزير عمر بن عبد الله على السلطان أبى زيان وحجره اياه اذ كان وضع عليه الرقباء والعيون حتى من حرمه وأهل قصره عزم على الفتك بالوزير المذكور ، وتناجى بذلك مع بعض ندمائه وأعدله طائفة من العبيد كانوا يختصون به ، فنما ذلك الى الوزير بواسطة بعض الحرم كانت عينا له عليه فعاجله ،وكان قد بلغ من الاستبداد عليه ان كان الحجاب مرفوعا له عن خلوات السلطان وحرمه ، فدخل عليه وهو فى وسط حشمه فطردهم عنه ، ثم غطه حتى فاظ ، وأمر به فالقى فى بئر بروض الغزلان ، واستدعى الخاصة فأراهم مكانه بها ، وأنه سقط عن دابته وهو سكران ، وذلك فى محرم فاتح سنة ثمان وستين وسبعمائة كذا عند ابن خلدون . وقال فى «الجذوة»:« توفى يوم الاحد الثانى والعشرين من ذى الحجة سنة سبع وستين وسبعمائة وله ثمان

وعشرون سنة ، ودفن بجامع قصره فكانت دولته أربع سنين وعشرة أشهر ويوما واحدا ، والله أعلم.

الخبر عن دولة السلطان أبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن رحمه الله

هذا السلطان هو الذي أنعش دولة بني مرين بعد تلاشيها ، وأعاد اليها شبابها بعد هرمها وتقاضيها ، وأزال عنها وصمة الحجر والاستبداد ، وأعادها من العز الى حالها المعاد ، وهو الذي ذكره ابن خلدون في أول تاريخه الكبير وألفه برسمه ، وحلى ديباجته باسمه ، أمه : مولدة اسمها مريم ، صفته : آدم اللون شديد الادمة ، طويل القامة ، يشرف على الناس بطوله ، نحيف الجسم ، أعين أدعج أخنس ، في وجهه أثر جدري . وكان عفا متمسكا بالدين ، محبا في الخير وأهله ، لم يشرب خمرا ولا وقع في فاحشة قط ، وبالجملة فقد كان من صالحي الملوك رحمه الله .

ولما كان من الوزير عمر بن عبد الله الياباني الى السلطان أبي زيان رحمه الله ما كان من الخنق والالقاء في البئر ، استدعى عبد العزيز بن أبي الحسن هذا ، وكان في بعض الدور من القصبة بفاس محتاطا عليه من قبل الوزير المذكور ، فأحضره بالقصر ، وأجلسه على سرير الملك وبايعه ، وفتحت الابواب لبني مرين وسائر الخاصة والعامة فازدحموا على تقبيل يده ، معطين الصفقة بطاعته ، فتم أمره وثبت ملكه وذلك يوم الاحد الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة سبع وستين وسبعمائة ، ثم ان الوزير عمر جرى معه على عادته من الاستبداد ، ومنع التصرف في شيء من أمور الملك فأنف السلطان عبد العزيز من ذلك وتأفف منه ، ودارت بينه وبين الوزير أمور الى ان عمل السلطان على الفتك به فأعد له جماعة من الخصيان بزوايا داره ، ثم أحضره ووبخه وثار به أولئك الخصيان

فتناولوه هبرا بالسيوف ، وصاح الوزير المذكور صيحة أسمع بها بطانته خارج الدار فوثبوا على الابواب فكسروها ، واقتحموا الدار فاذا صاحبهم مضرج بدمائه قد فرغ منه فولوا الادبار هاربين ، ثم تتبع السلطان عبد العزيز حاشية الوزير بالاعتقال والقتل حتى أتى على الجميع فى خبر طويل ، واستبد بملكه واضطلع به وأدار الامور فيه على ما ينبغى والله تعالى أعلم .

انتقاض أبى الفضل بن أبى سالم ثم مقتله بعد ذلك

قد قدمنا أن أبا الفضل بن أبى سالم كان قد عقد له الوزير عمر بن عبد الله على مراكش اسعافا لكافله عامر بن محمد الهنتاتى، فلما فتك السلطان عبد العزيز بالوزير المذكور سولت لابى الفضل نفسه مثلها فى عامر بن محمد لاستبداده عليه ، وأغراه بذلك بطانته فأحس عامر بالشر فتمارض بداره من مراكش ، ثم استأذنه فى الصعود الى معتصمه من الجبل ليمرضه هنالك حرمه وأقاربه ، ثم ارتحل بجملته واحتل بحصنه وكان أعز من الابلق الفرد ، فيئس أبو الفضل من الاستمكان منه ، ثم أغرته بطانته اذ فاتهم عامر بالفتك بعبد المومن بن ابى على ، وكان قد انضاف اليه بعد اجفاله عن سجلماسة ، فسكر أبو الفضل ذات ليلة وبعث عن قائد الجند من النصارى فأمره بقتل عبد المومن بمكان معتقله من قصبة مراكش فجاء برأسه اليه ، وطار الخبر بذلك الى عامر فارتاع وحمد الله اذ خلصه من غائلته وبعث ببيعته الى السلطان عبد العزيز ، وأغراه بأبى الفضل ورغبه فى ملك مراكش ، ووعده بالمظاهرة ، فأجمع السلطان أمره على النهوض اليها ، ونادى فى الناس بالعطاء ، وقضى أسباب حركته ، وارتحل من فاس سنة تسع وستين وسبعمائة ، وقد استبد أبو الفضل بمراكش وأعمالها ،

وأقام بها رسم الملك ، واستوزر واستلحق وجعل شوراه لمبارك بن ابراهيم ابن عطية الخلطى .

ولما نهض السلطان عبد العزيز من فاس اتصل خبره بأبي الفضل وهو منازل لعامر بن محمد فانفض معسكره ولحق بنادلا ليعتصم بجبل بني جابر منها ، فتبعه السلطان عبد العزيز اليها ونازله ، وأخذ بمخنقه وقاتله ففل عسكره ، ثم داخل بعض بني جابر في جر الهزيمة عليه على مال يعطيه لهم ففعلوا ، وانهزمت جيوشه وتقبض على أشياعه وسيق مبارك بن ابراهيم الى السلطان عبد العزيز فاعتقله الى أن قتله مع عامر بن محمد كما نذكر .

ولحق أبو الفضل بقبائل صناكة وراء بني جابر فداخل بنو جابر في شانه ، وبذلوا لهم عن السلطان مالا دثرا في اسلامه فأسلموه ، وبعث السلطان اليهم وزيره يحيى بن ميمون فجاء به أسيرا ، وأحضره أمام السلطان فوبخه ، ثم اعتقله بفسطاط مجاور له ، ثم غط من الليل فكان مهلكه في رمضان سنة تسع وستين وسبعمائة لمضى ثمان سنين من امارته على مراكش ، وبعث السلطان عبد العزيز الى عامر بن محمد يختبر طاعته فأبى عليه ، وجاهر بالخلاف الى ان كان من شأنه ما نذكره .

انتقاض عامر بن محمد الهنتاتي وحصار السلطان عبد العزيز اياه وظفره به

كان عامر بن محمد الهنتاتي مجير السلطان أبي الحسن من ابنه أبي عنان على ما وصفنا من بلوغ الغاية في الرياسة والاعتزاز على الدولة وطول الاستبداد بمراكش وأحوازها ، وكان قد حصل في مدة رياسته على ثروة عظيمة وجاه كبير ، وكان له معتصم بجبل درن أعز من بيض الانوق قد حصن فيه ماله وسلاحه وذخيرته ، وكان كلما هاجه هائج صعد اليه وأمن على نفسه ، فلما صفا الامر للسلطان عبد العزيز جعل عامرا هذا من أهم أمره فنصب له واستعد لقتاله وعقد على وزارته لابي بكر بن غازي بن يحيى بن الكاس ونهض اليه من فاس سنة سبعين وسبعمائة فحاصره في جبله سنة كاملة . ولما طال الحصار على

عامر وشيعته اختلفت كلمتهم عليه وفسد ما بينه وبين ابن أخيه فارس بن عبد العزيز بن محمد ، فبعث الى السلطان وسهل له الطريق لاقتحام الجبـــل ، فزحفت العساكر والجنود وشارفت المعتصم ، ولما استيقن عامر أن قد أحيط به بعث الى ابنه أبى بكر أن يلحق بالسلطان مخنازا له ومشيرا عليه بالتى هى أحسن وأسلم ، فالقى الولد بنفسه الى السلطان فقبله ، وبذل له الامان وألحقه بجملته ، وانتبذ عامر عن الناس وذهب لوجهه ليخلص الى السوس فرده الثلج ، وقد كانت السماء أرسلت به منذ أيام حتى تراكم بالجبل بعضه على بعض وسد المسالك فاقتحمه عامر حتى هلك فيه بعض حرمه ونفق مركوبه ، وعايـــن الهلكة العاجلة فرجع أدراجه مختفيا حتى آوى الى غار مع أدلاء كـان قـــد استخلصهم ، وبذل لهم مالا على أن يسلكوا به ظهر الجبل الى صحراء السوس، فأقاموا ينظرون امساك الثلج وقد شدد السلطان عبد العزيز فى التنقير عنـــه والبحث ، فعثر عليه بعض البربر بالغار المذكور ، فسيق الى السلطان فأحضره بين يده ووبخه فاعتذر واعترف بالذنب ورغب فى الاقالة فحمل الى مضرب بنى له بازاء فسطاط السلطان واعتقل هنالك ، وانطلقت الايدى على معاقل عامر ودياره فانتهب من الاموال والسلاح والذخيرة والزرع والافوات مالا عين رأت ولا أذن سمعت .

واستولى السلطان على الجبل ومعاقله فى رمضان من سنة احدى وسبعين وسبعمائة لحول من يوم حصاره ، وعقد على هنتاتة لابن أخى عامر ، وهو فارس ابن عبد العزيز بن محمد بن على الهنتاتى ، وارتحل الى فاس فاحتل بها آخر رمضان المذكور ودخلها فى يوم مشهود برز فيه الناس ، وحمل عامر وسلطانه تاشفين من بنى عبد الحق كان نصبه للامر مموها به على عادته ، فحملا معا على جملين وقد أفرغ عليهما لباس رث ، وعبثت بهما أيدى الاهانة فكان ذلك عبرة لمن رآه .

ولما قضى السلطان عبد العزيز نسك عيد الفطر أحضر عامرا فقرعه بذنوبه، وأتى بكتاب بخطه يخاطب فيه أبا حمو بن يوسف الزيانى ويستنجده على السلطان فشهد عليه به وأمر السلطان بامتحانه فلم يزل يجلد حتى انتثر لحمه وضرب بالعصى

حتى ورمت أعضاؤه، وهلك بين يدي الوزعة، وجنب تاشفين سلطانه الى مصرعه فقتل قعصا بالرماح وجنب مبارك بن ابراهيم الخلطى من محبسه بعد الاعتقال فالحق بهم ، ولكل أجل كتاب ، وصفا الجو للسلطان عبد العزيز من المنازعين وتفرغ لغزو تلمسان على ما نذكره ان شاء الله .

ارتجاع الجزيرة الخضراء من يد الاسبانيول

قد قدمنا ما كان من استيلاء الطاغية على الجزيرة الخضراء أيام السلطان أبي الحسن رحمه الله فاستمرت فى ملكتهم الى هذا التاريخ فنشأت بينهم فتنة وتقاتلوا على الملك وأعروا ثغورهم الموالية للمسلمين من الحامية والجند فبقيت عورة ، وتشوف المسلمون الى ارتجاع الجزيرة الخضراء التى قرب عهدهم بانتظامها فى ملكة المسلمين .

وكان السلطان عبد العزيز فى شغل عن ذلك بفتنة أبى الفضل بن أبى سالم وعامر بن محمد وانتقاضهما ، فبعث الى ابن الاحمر صاحب الاندلس أن يزحف اليها بعساكره وعليه عطاؤهم وامدادهم بالمال والاساطيل على أن تكون مثوبة جهاده خالصة له ، فأجاب ابن الاحمر الى ذلك ، وبعث اليه السلطان عبد العزيز باحمال المال ، وأوعز الى أساطيله بسبتة فانعمرت واقلعت حتى احتلت بمرسى الجزيرة الخضراء لحصارها ، وزحف ابن الاحمر بعساكر المسلمين على أثرها بعد ان قسم فيهم العطاء وأزاح العلل وأعد الآلات للحصار ، فنازلها أياما قلائل ، ثم أيقن النصارى بالهلكة لبعدهم عن الصريخ ويأسهم من مدد ملوكهم ، فألقوا باليد وسألوا النزول على الصلح ، فأجابهم ابن الاحمر اليه ، ونزلوا عن البلد وأقيمت فيه شعائر الاسلام ومحيت منه كلمة الكفر ، وكتب الله أجرها لمن أخلص فى معاملته (*) وكان ذلك سنة سبعين وسبعمائة ،

(*) انظر الاحاطة ج ٢ ـ صحيفة ٥٦

ولى ابن الاحمر عليها من قبله ولم تزل الى نظره الى أن وقع الاخيار على هدمها خشية استيلاء النصرانية عليها مرة أخرى فهدمت أعوام الثمانين وسبعمائة أصبحت خاوية كأن لم تغن بالامس .

نهوض السلطان عبد العزيز الى تلمسان واستيلاؤه عليها وفرار سلطانها ابى حمو بن يوسف عنها



كان أبو حمو بن يوسف الزياني قد فسد مابينه وبين عرب سويد وقبض على بعض رؤسائهم محمد بن عريف فاستصرخوا عليه السلطان عبد العزيز ، وكانت القوارص لا تزال تسرى اليه من أبى حمو المذكور فصادفوا منه صاغية الى ما التمسوا منه ، واعتزم على النهوض الى تلمسان ، وبعث الحاشرين الى الجهات المراكشية فتوافى الناس اليه على طبقاتهم ، واجتمعوا عنده أيام منى سنة احدى وسبعين وسبعمائة فافاض العطاء وأزاح العلل ، ولما قضى نسك عبد الاضحى عرض الجند ونهض الى تلمسان فاحتل بتازا .

واتصل خبره بابى حمو فجمع الجموع وهم باللقاء ثم اختلفت كلمة أصحابه وتفرق عنه العرب من بنى معقل فاجفل هو وأشياعه من بنى عامر بن زغبة فدخلوا القفر .

وتقدم السلطان عبد العزيز فاحتل بتلمسان يوم عاشوراء من سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة فدخلها فى يوم مشهود ، واستولى عليها وعقد لوزيره أبى بكر ابن غازى بن الكاس على عساكر مرين والعرب وسرحه فى اتباع أبى حمو فأدركه ببعض بلاد زناتة الشرق فاجهضوه عن ماله ومعسكره فانتهب باسره واكتسحت أموال العرب الذين معه ونجا بذمائه الى مصاب ، وتلاحق به ولده وقومه متفرقين على كل مفازة ، ثم دخلوا القفر بعد ذلك ودوخ الوزير المذكور بلاد المغرب الاوسط وشرد عصاته واستنزل ثواره فى أخبار طويلة .

واستولى السلطان عبد العزيز على سائر الوطن من الامصار والاعمال ، وعقد عليها للولاة والعمال واستوسق له ملك المغرب الاوسط كما كان لسلفه واستمر مقيما بتلمسان الى أن كان ما نذكره .

نزوع الوزير ابن الخطيب عن سلطانه الغني بالله الى السلطان عبد العزيز بتلمسان



قد قدمنا ما كان من رجوع الغنى بالله ابن الاحمر الى ملكه بالاندلس سنة ثلاث وستين وسبعمائة ، ولما استولى على غرناطة وثبت قدمه بها بعث عن مخلفه بفاس من الاهل والولد ، والقائم بالدولة يومئذ عمر بن عبد الله فاستقدم عمر ابن الخطيب من سلا وبعثهم الى نظره ، فسر السلطان ابن الاحمر بمدمه ورده الى منزلنه.ودفع اليه تدبير المملكة وخلط بينه بندمائه وأهل خلوته ، وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد ، وانصرفت اليه الوجوه وعلقت به الآمال وغشى بابه الخاصة والكافة ، وغصت به بطانة السلطان وحاشيته فتوافقوا على السعاية فيه ، وقد صم السلطان عن قبولها ، ونما بذلك الخبر الى ابن الخطيب فشمر عن ساعده للرحلة عن الاندلس واللحاق بالمغرب ، وكان له حنين اليه ورغبة فى الايالة المرينية من قبل ذلك ، فقدم الوسائل الى السلطان عبد العزيز وأوعز اليه بما عزم عليه من اللحاق بحضرته فوعده السلطان بالجميل وبسط أمله ، فحينئذ استأذن السلطان الغنى بالله فى تفقد الثغور الغربية من أرض الاندلس فاذن له ، وسار اليها فى جماعة من فرسانه ، ومعه ابنه على فلما حاذى جبل طارق مال اليه ، فخرج قائد الجبل لتلقيه ، وقد كان السلطان عبد العزيز أوعز اليه بذلك وجهز اليه الاسطول من حينه ، فاحتل بسبتة ثم سار منها فقدم على السلطان عبد العزيز بتلمسان سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة ، فاهتزت له الدولة وأركب السلطان خاصته لتلقيه وأحله بمجلسه محل الامن والغبطة ،

ومن دولته بمكان الشرف والعزة ، وأخرج لوقته كاتبه أبا يحيى بن أبى مدين سفيرا الى الاندلس فى طلب أهله وولده فجاءبهم على أكمل الحالات من الامن والتكرمة ، ثم نزل بعد ذلك مدينة فاس القديمة فاستكثر بها من شراء الضياع وتأنق فى بناء المساكن واغتراس الجنات وحفظت عليه رسومه السلطانيـــة وتوقيراته ، وأقام مطمئنا بخير دار عند أعز جار .

وفاة السلطان عبد العزيز بن أبى الحسن رحمه الله

كان السلطان عبد العزيز قد أصابه مرض التحول فى صغره ولاجـــل ذلك تجافى السلطان أبو سالم عن بعثه مع الابناء الى الاندلس فأقام بالمغرب ، ولما شب أفاق من مرضه وصلح بدنه ثم عاوده وجعه فى مثواه بتلمسان وتزايد نحوله ، ولما كمل الفتح واستفحل الملك اشتد به الوجع فصابره وكتمه عن الناس خشية الارجاف ثم عسكر خارج تلمسان للحاق بالمغرب .

ولما كانت ليلة الخميس الثانى والعشرين من ربيع الآخر سنة أربـــع وسبعين وسبعمائة قضى نحبه رحمه الله بظاهر تلمسان بين أهله وولده وسيق الى فاس فدفن بجامع قصره ، وسنه يومئذ أربع وعشرون سنة ، وكانت دولته ست سنين وأربعة أشهر (*) .

ومن نظمه ما ذكره ابن الاحمر فى « نثير الجمان » مذيلا بيتى والده السلطان أبى الحسن اللذين هما قوله :

أرضى الله فى سر وجهـــر وأحمى العرض من دنس ارتياب

وأعطى الوفر من مالى اختيارا وأضرب بالسيوف طلى الرقـاب

فقال هو وأحسن :

---

[*] ومن اولاده : السلطان محمد السعيد ومحمد وعبد الله .

وأرغب خالقى فى العفو عنــى   وأطلب حلمه يوم الحســاب
وأرجو عونه فى عز نصــر   على الاعداء محروس الجنــاب
وعبدك واقف بالباب فارحــم   عبيدا خائفاألم العقــاب

الخبر عن دولة السلطان السعيد بالله أبي زيان محمد بن عبد العزيز ابن أبى الحسن

هذا السلطان ممن ولى الامر وهو صبى ، وفيه ألف ابن الخطيب كتابه المسمى: «باعلام الاعلام بمن بويع من ملوك الاسلام قبل الاحتلام» كنيته: أبو زيان. أمه : عائشة بنت القائد فارح العلج ، صفته : آدم اللون شديد الادمة .

ولما مات السلطان عبد العزيز رحمه الله بظاهر تلمسان خرج الوزير أبو بكر بن غازى بن الكاس على الناس ، وقد احتمل أبا زيان ابن السلطان عبد العزيز ، فعزاهم عن سلطانهم ثم طرح ابنه بين أيديهم ، فازدحموا عليه باكين متفجعين يعطونه الصفقة ويقبلون يديه للبيعة ، ثم أخرجوه للمعسكر وأنزلوه بفساطيط أبيه وتم أمره وكفله الوزير المذكور فكان اليه الابرام والنقض ، والصبى كالعدم ، اذ لم يكن فى سن التصرف .

ثم ان الوزير ارتحل بالناس وجد السير فدخل حضرة فاس وأجلس الصبى لبيعة العامة فبايعوا ، ثم توافت لديه وفود الامصار على العادة ، واستبد الوزير أبو بكر واستعمل على الجهات وجلس بمجلس الفصل واشتغل بامر المغرب ابراما ونقضا .

ولما فصل بنو مرين عن تلمسان عاد اليها سلطانها أبو حمو ابن يوسف الزيانى ، والتفت عليه بنو عبد الواد من كل جانب ومحا دعوة بنى مرين من ضواحى المغرب الاوسط وأمصاره ، واتصل الخبر بالوزير أبى بكر بن غازى فهم بالنهوض اليه ثم ثنى عزمه ما كان من خروج الامير عبد الرحمن بن أبى

يفلوسن بن أبى على بن أبى سعيد بناحية بطوية، فان السلطان ابن الاحمر كان قد سرحه من الاندلس صحبة وزيره مسعود بن عبد الرحمن بن ماساى لطلب ملك المغرب تشغيبا على الوزير أبى بكر بن غازى ، ثم أتبعه بالامير أبى العباس أحمد ابن السلطان أبى سالم الذى كان محتاطا عليه بطنجة ، فزحف الامير أبو العباس المذكور الى فاس وظاهره ابن عمه الامير عبد الرحمن بن أبى يفلوسن فحاصروا الوزير أبا بكر بن غازى وسلطانه أبا زيان بن عبد العزيز ، وضربوا على فاس الجديد سياجا بالبناء للحصار ، وأنزلوا به أنواع القتال بعد أن بعث ابن الاحمر رسله الى الامير عبد الرحمن باتصال اليد بابن عمه الامير أبى العباس ومظاهرته على ملك سلفه بفاس واجتماعهما لمنازلتها ، وعقد بينهما الاتفاق والمواصلة وأن يختص عبد الرحمن بملك سلفه من سجلماسة وأعمالها ، فتراضيا وزحفا الى فاس كما قلناه وأمدهم ابن الاحمر بجمع من جنده، فاستمر الحال على حصار فاس الى أن أذعن الوزير أبو بكر لخلع سلطانه أبى زيان ومبايعة الامير أبى العباس ، فخلعه يوم الاحد السادس من محرم فاتح سنة ست وسبعين وسبعمائة وغرب الى الاندلس فكانت دولته سنة وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما والله غالب على أمره .

الخبر عن الدولة الاولى للسلطان المستنصر بالله
ابى العباس أحمد بن أبى سالم بن أبى الحسن

هذا السلطان يقال له : ذو الدولتين لانه ولى الملك مرتين كما سيأتى .
أمه : حرة بنت أبى محمد السبائى . كنيته : أبو العباس ، لقبه : المستنصر بالله ، صفته: أبيض اللون ربعة تعلوه صفرة رقيقة، أدعج أسود الشعر أكحل الحاجبين ضيق البلج أسيل الخدين براق الثنايا جميل الوجه مليح الصورة ظريف المنزع لطيف الشمائل حسن الشكل اذا ركب ، بويع أولا بطنجة فى شهر ربيع الا خر سنة خمس وسبعين وسبعمائة ، ثم بويع البيعة العامة بالمدينة البيضاء بعد استيلائه

عليها يوم الاحد السادس من محرم سنة ست وسبعين وسبعمائة ، وكان الامير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن عند ما أشرفوا على فتح فاس شرط عليهم ولاية مراكش عوضا عن سجلماسة فعقدوا له على كره مخافة ان تفترق كلمتهم ولا ينم أمرهم ففعلوا ، وطووا له على النكث فارتحل الى مراكش واستولى عليها ، ثم فارقه وزيره مسعود بن عبد الرحمن وأجاز البحر الى الاندلس فاستقر بهـا في ايالة ابن الاحمر .

واستقل السلطان أبو العباس بن أبي سالم بملك فاس وأعمالها ، واستوزر محمد بن عثمان بن الكاس وفوض اليه أموره فغلب على هواه وجعل أمـــر الشورى الى سليمان بن داود فاستقل بها وحاز رياسة المشيخة ، واستحكمت المودة بينه وبين ابن الاحمر وجعلوا اليه المرجع فى نقضهم وابرامهم ، فصار له بذلك تحكم فى الدولة المرينية وأصبح المغرب كأنه من بعض أعمال الاندلس وذلك بما كان لابن الاحمر من اعانة السلطان أبى العباس على ملك المغرب حتى تم له ، وبما كان تحت يده من أبناء الملوك المرشحين للامر ، فكان أبو العباس وحاشيته يصانعونه لاجل ذلك ، والله تعالى أعلم .

محنة الوزير ابن الخطيب ومقتله رحمه الله

لما لجأ ابن الخطيب الى بنى مرين وأصاب عندهم دارا وقرارا عز ذلك على ابن الاحمر ، وسعى بطانته عنده فى ابن الخطيب لعداوتهم له ، ثم بلغه انه يغرى السلطان عبد العزيز بتملك أرض الاندلس وقطع دعوة بنى الاحمر منها ، فعظم عليه ذلك ودبر الحيلة فى قتل ابن الخطيب ، وتتبع أعداؤه كلمات زعموا أنها صدرت منه فى بعض تآليفه فاحصوها عليه ورفعوها الى قاضى غرناطة أبى الحسن النباهى فاسترعاها وسجل عليه بالزندقة ، وبعث ابن الاحمر برسم الشهادة مع هدية لم يسمع بمثلها الى السلطان عبد العزيز وطلب منه اقامة الحد على ابن الخطيب أو اسلامه اليه ، فصم السلطان عبد العزيز عن ذلك وأنف

لذمته أن تخفر ولجواره أن يؤذى ، وقال للوفد : « هلا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه ، وأما أنا فلا يخلص اليه بذلك أحد ما كان في جوارى » ثم وفر الجراية والاقطاع له ولبنيه ولمن جاء من فرسان الاندلس في جملته .

ثم لما مات السلطان عبد العزيز رحمه الله وولى ابنه أبو زيان وقام بأمره الوزير أبو بكر بن غازى عاود ابن الاحمر الكلام فى شأن ابن الخطيب وبعث بهدية أخرى الى الوزير المذكور وطلب منه اسلامه اليه ، فابى الوزير وأساء الرد ، وعادت رسل ابن الاحمر اليه مخفقين ، وقد رهبوا سطوته ، فعند ذلك عمد ابن الاحمر الى الامير عبد الرحمن بن أبى يفلوسن ، وكان عنده بالاندلس فأطمعه فى ملك المغرب وأركبه البحر ، فقذف به بساحل بطوية من بلاد الريف تشغيبا على الوزير أبى بكر بن غازى كما مر ، ثم ثاب له رأى آخر فأغرى محمد بن عثمان بن الكاس وهو ابن عم أبى بكر بن غازى المذكور ، وكان يومئذ بسبتة قائما على ثغرها ، فداخله فى البيعة لابى العباس بن أبى سالم،وكان يومئذ بسبتة محتاطا عليه فى جملة من القرابة، والتزم أن يمده بالمال والرجال حتى يتم أمره ، لكن بشرط أن ينزل له عن جبل طارق ، ويبعث له بالقرابة الذين هم بطنجة ليكونوا تحت يده ، ويسلم اليه ابن الخطيب متى قدر عليه ، فكان الامر كذلك ، فان السلطان أبا العباس لما استولى على الامر نزل لابن الاحمر عن جبل طارق فمحا دعوة بنى مرين من وراء البحر ، ثم ملك بعد ذلك سبتة فاستولى عليها، وبعث اليه بالقرابة المذكورين فاوسع لهم جنابه بغرناطة، ثم قبض السلطان أبو العباس ووزيره محمد بن عثمان على ابن الخطيب وطيروا بالاعلام لابن الاحمر ، فحينئذ بعث وزيره أبا عبد الله بن زمرك،وكان من تلاميذ ابن الخطيب وبه تخرج ، فقدم على السلطان أبى العباس وأحضروا ابن الخطيب بالمشور فى مجلس الخاصة وأهل الشورى من الفقهاء ، وعرضوا عليه بعض كلمات وقعت له فى بعض كتبه فعظم عليه النكير فيها فوبخ ونكل ، وامتحن بالعذاب بمشهد ذلك الملأ ، ثم ثل الى محبسه ، وتفاوضوا فى قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه فافتى بعض الفقهاء بقتله ، فدس سليمان بن داود اليه

بعض الاوغاد من حاشيته فطرقوا السجن ليلا ومعهم زعانفة من أهل الاندلس جاءوا فى لفيف ذلك الوفد فقتلوه خنقا فى محبسه وأخرجوا شلوه من الغد فدفن فى مقبرة باب المحروق ، ثم أصبح من الغد طريحا على شافة قبره وقد جمعوا له أعوادا فأضرموا ها عليه نارا فاحترق شعره واسود بشره ، وأعيد الى حفرته ، وكان فى ذلك انتهاء محنته ، وعجب الناس من هذه السفاهة التى جاء بها سليمان بن داود واعتدوها من هناته ، وعظم النكير فيها عليه وعلى قومه وأهل دولته .

وكان ابن الخطيب رحمه الله أيام مقامه بالسجن يتوقع مصيبة الموت فتجيش هواتفه بالشعر يبكى نفسه فمما قال فى ذلك :

بعدنا وان جاورتنا البيـــوت ... وجئنا بوعظ ونحن صمـــوت
وأنفسنا سكنـــت دفعـــة ... كجهر الصلاة تلاه القنـــوت
وكنا عظاما فصرنـــا عظامـــا ... وكنا نقوت فها نحن قـــوت
وكنا شموس سماء العـــلا ... غربنا فناحت عليها السمـــوت
فكم جدلت ذا الحسام الظبـــى ... وذو البخت كم جدلته البخوت
وكم سيق للقبر فى خرقـــة ... فتى ملئت من كساه التخـــوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيـب ... وفات ومن ذا الذى لا يفـوت
فمن كان يفرح منكم لـــه ... فقل يفرح اليوم من لايمـــوت

وكانت نكبته رحمه الله أوائل سنة ست وسبعين وسبعمائة ، وعند اللـه تجتمع الخصوم .



بقية اخبار امير مراكش عبد الرحمن بن ابى يفلوسن رحمه الله

قد تقدم لنا ما كان من معاقدة السلطان أبى العباس والامير عبد الرحمن ابن أبى يفلوسن على ولاية سجلماسة أولا ثم التعويض عنها بمراكش ثانيا ، فلما فتح السلطان أبو العباس فاسا وفى للامير عبد الرحمن بعقده فسار الى مراكش واستولى عليها وعلى أعمالها ، واقتسمت مملكة المغرب الاقصى يومئذ بنصفين .

وكان الحد بين الدولتين ثغر آزمور فكانت فى ايالة صاحب فاس ، وما وراءها الى مراكش فى ايالة صاحب مراكش ، ثم كانت بينهما بعد ذلك مواصلات ومناقضات ومسالمات ومحاربات يطول جلبها ، واتصل ذلك الى منتصف سنة أربع وثمانين وسبعمائة فظفر السلطان أبو العباس بعبد الرحمن بعد محاصرته بقصبة مراكش تسعة أشهر ، ولما أشرف السلطان أبو العباس على فتحها وانفض الناس من حول الامير عبد الرحمن ونزلوا من الاسوار ناجين الى السلطان وبقى هو فى قصبته منفردا بات ليلته يراود ولديه على الاستماتة وهما:سليم وأبو عامر ، وركب السلطان أبو العباس من الغد فى التعبية الى القصبة فاقتحمها بمقدمته ولقيه الامير عبد الرحمن وولداه مسابقين الى الميدان ومباشرين القتال بين أبواب دورهم فجالوا معهم جولة قتل فيها الولدان قتلهم على بن ادريس وزيان بن عمر الوطاسى .

قال ابن خلدون : « وطالما كان زيان يمترى ثدى نعمتهم ويجر ذيله خيلاء فى جاههم فذهب مثلا فى كفران النعمة وسوء الجزاء والله لا يظلم مثقال ذرة» وكان ذلك خاتم جمدى الآخرة سنة أربع وثمانين المذكورة لمضى عشر سنين من امارة عبد الرحمن على مراكش ، ثم رحل السلطان أبو العباس منقلبا الى فاس وقد استولى على سائر أعمال المغرب وظفر بعدوه ودفع النازعين عن ملكه والله غالب على أمره .

ذكر الشاوية وبيان نسبهم وأوليتهم وشرح لقبهم وتسميتهم

ذكر ابن خلدون أن الشاوية من ولد حسان بن أبى سعيد الصبيحى نسبة الى صبيح بالتصغير بطن من سويد ، وسويد احدى قبائل بنى مالك بن زغبة الهلاليين ، وكان دخول حسان وأخيه موسى ابنى أبى سعيد الى المغرب الاقصى أيام السلطان يعقوب بن عبد الحق رحمه الله ، قدموا فى صحبة عبد الله بن كندوز العبد الوادى ثم الكمى ، وكان عبد الله هذا قد نزع عن يغمراسن بن زيان الى السلطان يعقوب المذكور فقدم عليه قبل فتح مراكش ، فاهتز السلطان يعقوب لقدومه وأحله بالمكان الرفيع من دولته وأنزل قومه بجهات مراكش وأقطعهم البلاد التى كفتهم مهماتهم وجعل انتجاع ابله ورواحله وسائر ظهره فى احيائهم ، فقدم عبد الله بن كندوز على رعايتها حسان وأخاه موسى الصبيحيين وكانا عارفين برعاية الابل والقيام عليها فاقاموا يتقلبون فى تلك البلاد ويتعدون فى نجعتها الى أرض سوس ، وكانت ماشية السلطان يعقوب منفرقة فى سائر المغرب فجمعها لعبد الله بن كندوز ، وجمعها عبدالله لحسان الصبيحى المذكور ، فكان حسان باشر أمور السلطان فى شأن تلك الماشية ويطالعه بمهماته فحصلت له مداخلة معه جلبت اليه الحظ حتى ارتفع قدره ، ونشأ بنوه فى ظل الدولة وعزها وتصرفوا فى الولايات منها وانفردوا بخطة الشاوية فلم تزل ولايتها متوارثة فيهم منقسمة بينهم لهذا العهد الى ما كانوا يتصرفون فيه من غير ذلك من الولايات ، وكان لحسان من الولد على ويعقوب وطلحة وغيرهم ، ومن حسان هذا تفرعت شعوبهم فى ولده

قال ابن خلدون : « وهم لهذا العهد يتصرفون فى الدولة على ما كان لسلفهم من ولاية الشاوية والنظر فى رواحل السلطان والظهر الذى يحمل من الابل ولهم عدد وكثرة ونباهة فى الدولة » اه قلت : ولفظ الشاوية نسبة الى الشاء التى هى جماعة الغنم مثلا قال الصحاح : « والنسبة الى الشاء شاوى قال الراجز :

لا ينفع الشاوى فيها شاته * ولا حماراه ولا علاتــه
وان سميت به رجلا قلت شائى وان شئت شاوى ، اه .

واعلم أن الشاوية اليوم يطلقون على سكان تامسنا من قبائل شتى بعضها عرب وبعضها زناتة وبربر غير أن لسان الجميع عربى ، وكان أصل جمهورهم من هؤلاء الذين ذكر ابن خلدون ، ثم انضافت اليهم قبائل أخر ، واختلطوا بهــم فأطلق على الجميع شاوية تغليبا ، وهكذا وقع فى سائر عرب المغرب الاقصى المواطنين بتلوله فانهم وقع فيهم اختلاط كبير حتى نسوا أنسابهم وأصولهــم الاولى الا فى النادر ، وذلك بسبب تعاقب الاعصار وتناسخ الاجيال وتــوالى المجاعات والانتجاعات ووقعات الملوك بهم فى كثير من الاحيان وتفريق بعضهم من بعض ونقل بعضهم الى بلاد بعض ، ومع ذلك فأسماؤهم الاولى لا زالت قائمة فيهم لم تتغير الى الان فمنها يهتدى الفطن الى التنقير عن أنسابهم والحاق فروعهم باصولهم متى احتاج الى ذلك . والله تعالى أعلم .

نهوض السلطان ابى العباس الى تلمسان وفتحها و تخريبها

لما نهض السلطان أبو العباس الى مراكش وحاصر بها عبد الرحمن بن أبى يفلوسن خالفه الى المغرب أبو حمو بن يوسف الزيانى فى جمع من أولاد حسين عرب معقل وذلك باغراء عبد الرحمن المذكور ، فدخلوا الى أحــواز مكناسة وعاثوا فيها ثم عمدوا الى مدينة تازا فحاصروها سبعا وخربوا قصر الملك هنالك ومسجده المعروف بقصر تازروت وبينما هم على ذلك بلغهم الخبر اليقين بفتح مراكش وقتل الامير عبد الرحمن فاجفلوا من كل ناحية ومر أبو حمو فى طريقه الى تلمسان بقصر ونزمار بن عريف السويدى فى نواحى بطوية المسمى بمرادة فهدمه .

ووصل السلطان أبو العباس الى فاس فأراح بها أياما ثم أجمع النهوض الى تلمسان فانتهى الى تاوريرت ، وبلغ الخبر الى أبى حمو فاضطرب رأيــه

واعتزم على الحصار وجمع أهل البلد عليه فاستعدوا له ، ثم بدا له فخرج في بعض تلك الليالى بولده وأهله وخاصته وأصبح مخيما بالصفيصف فأهرع أهل البلد اليه بعيالهم وأولادهم متعلقين به تفاديا من معرة هجوم العسكر عليهم فلم يزعه ذلك عن قصده ، وارتحل ذاهبا الى البطحاء ، ثم قصد بلاد مغراوة فنزل في بني بو سعيد قريبا من شلف وأنزل أولاده الاصاغر وأهله بحصن تاجحمومت. وجاء السلطان أبو العباس الى تلمسان فملكها واستقر بها أياما ثم هدم أسوارها وقصور الملك بها باغراء وليه ونزمار جزاء بما فعله أبو حمو في تخريب قصر تازروت وحصن مرادة ، ثم خرج من تلمسان في اتباع أبي حمو ونزل على مرحلة منها وهنالك بلغه الخبر باجازة موسى بن أبي عنان من الاندلس الى المغرب ، وانه خالفه الى دار الملك فانكفأ راجعا عوده على بدئه ورجع أبو حمو الى تلمسان فاستقر ملكه بها الى أن كان ما نذكره ان شاء الله .

خلع السلطان ابى العباس بن ابى سالم وتغريبه الى الاندلس والسبب في ذلك



قد قدمنا ما كان من تحكم ابن الاحمر في مملكة المغرب ودالته على السلطان أبي العباس بما أنه كان السبب في ولايته وبما تحت يده من القرابة المرشحين الذين أرصدهم للتشغيب على دار الملك بالمغرب متى رأى من أحدهم ما لا يوافق هواه، وكان مع كثرة تحكمه فيهم يتجنى عليهم في بعض الاوقات بما يأتونه من تقصير في شفاعة أو مخالفة في أمر لا يجدون عنها محيصا فيضطغن ذلك عليهم ، وكان يعتد على السلطان أبي العباس بشيء من هذه الهنات .

فلما نهض الى تلمسان واستولى عليها سنة خمس وثمانين وسبعمائة اتصل بابن الاحمر أن دار الملك بفاس قد بقيت عورة من الجند والحامية فانتهز الفرصة وبادر بتسريح موسى ابن السلطان أبي عنان الى المغرب واستوزر له مسعود بن عبد

الرحمن بن ماساى رئيس الفتنة وقطب رحاها ، وكان عنده بالاندلس بعد مفارقة عبد الرحمن بن أبى يفلوسن ، فنزل موسى بن أبى عنان سبتة فاستولى عليها وسلمها لابن الاحمر فدخلت فى طاعته ، ثم تقدم الى فاس فدخلها من يومه واستقر قدمه بها .

واتصل الخبر بالسلطان أبى العباس وهو بتلمسان فجاء مبادرا ونزل بتازا فأقام بها أربعا ثم تقدم الى الموضع المعروف بالركن فانتقض عليه رؤساء جيشه وتسللوا الى موسى طوائف وأفرادا ولما رأى ما نزل به رجع الى تازا بعد ان انتهب معسكره وأضرمت النار فى خيامه وذلك يوم الاحد الموفى ثلاثين من ربيع الاول سنة ست وثمانين وسبعمائة .

ثم بعث موسى بن أبى عنان من أتاه بالسلطان أبى العباس فى الامان فقدم عليه وقيده وبعث به الى ابن الاحمر فبقى عنده محتاطا عليه الى أن كان من أمره ما نذكره ان شاء الله .

وكانت دولته هذه عشر سنين وشهرين وأربعة وعشرين يوما ، ومن وزرائه فى هذه الدولة : محمد بن عثمان بن الكاس المجذولى ومن كتابه : عبد المهيمن بن أبى سعيد بن عبد المهيمن الحضرمى تغمد الله الجميع برحمته .

الخبر عن دولة السلطان المتوكل على الله ابى فارس موسى ابن ابى عنان بن ابى الحسن

أمه: مولدة اسمها تاملالت ، صفته : أسمر مائل الى السواد قصير القامة جاحظ العينين عظيم اللحية تملأ صدره قائم الانف واذا تكلم يملأ لسانه فمه فيخرج من بين شفتيه ويتحرك فيقبح كلامه ، بويع يوم الخميس الموفى عشرين من شهر ربيع الاول سنة ست وثمانين وسبعمائة وقام بامر دولته وزيره مسعود بن ماساى مستبدا عليه ، ولما استقر أمره بالحضرة وجه اليه ابن الاحمر أمه وعباله وكانوا عنده وهناه وزيره أبو عبد الله بن زمرك بتوشيح يقول فى

مطلعه :

قد نظم الشمل أتم انتظــــام ولاحت الاقمار بعد المغيـــب
وضاحك الروض ثغور الغمــام عن مبسم الزهر البرود الشنيب

الى أن قال فى آخره :

مولاى يهنيك. وحق الهنـا قد نظم الشمل كنظم السعـود
قد فزت بالفخر ونيل المنـــى وأنجز السعد جميع الوعـــود
وقرت العين وزال العنـــ وكلما مر صنيع يعـــود
ولم يزل ملكك حلف الـدوام يحوز فى التخليد أوفى نصيـــب
يتلو عليك الدهر بعد الســلام نصر من الله وفتح قريب

خروج الحسن بن الناصر بغمارة ونهوض الوزير ابن ماساى اليه

كان الحسن بن الناصر بن أبى على بن أبى سعيد قد لحق من مقـــره بالاندلس بحضرة تونس فى سبيل طلب الملك ، وكان الوزير مسعود بن ماساى قد قتل محمد بن عثمان بن الكاس وافترقت حاشيته فى الجهات فطلبوا بطن الارض دون ظهرها ، ولحق منهم ابن أخيه العباس بن المقداد بتونس فعثر على الحسن بن الناصر بها فثاب له رأى فى الرجوع به الى المغرب لطلب الامر ، فخرج به من تونس وقطع المفاوز الى أن انتهى الى جبال غمارة ونزل على أهل الصفيحة منهم فأكرموا مثواه ومنقلبه وأعلنوا بالقيام بدعوته ، واستوزر العباس ابن المقداد .

وبلغ الخبر الى مسعود الوزير فجهز العساكر مع أخيه مهدى بن عبد الرحمن بن ماساى فحاصره بجبل الصحيفة أياما فامتنع عليه فنهض اليه مسعود بنفسه على ما تذكره .

وفاة السلطان موسى بن ابى عنان رحمه الله

لما كان من استبداد ابن ماساى على السلطان موسى ما قدمناه استنكف من ذلك وداخل بطانته في الفتك به فنما ذلك اليه وحصلت له نفرة من السلطان طلب لاجلها البعد عنه وبادر الى الخروج لمدافعة الحسن بن الناصر القائم بغمارة ، واستخلف على دار الملك أخاه يعيش بن عبد الرحمن بن ماساى ، فلما انتهى الى قصر كتامة بلغه الخبر بوفاة السلطان موسى ، وكانت وفاته فى جمدى الآخرة طرقه المرض فهلك ليوم وليلة من مرضه ، وكان الناس يرمون يعيش أخا الوزير بانه سمه ، قاله ابن خلدون .

وقال ابن القاضى فى الجذوة : « توفى السلطان موسى بن أبى عنان مسموما يوم الجمعة الثالث من شهر رمضان سنة ثمان وثمانين وسبعمائة وله احدى وثلاثون سنة فكانت دولته سنتين وأربعة أشهر وولى بعده محمد بن أحمد بن أبى سالم » اهـ

ومن كتابه: أبو الفضل محمد بن محمد بن أبى عمرو التميمى وأبو القاسم محمد بن سودة المرى ، ومن قضاته : أبو عبد الله محمد بن محمد المغيلى والله تعالى أعلم .

الخبر عن دولة المنتصر بالله السلطان ابى زيان محمد بن ابى العباس ابن ابى سالم بن ابى الحسن



أمه: حرة وهى رقية بنت السلطان أبىعنان، صفته: أبيض اللون قائم الانف أسيل الخدين ، بويع بعد خاله موسى بن أبى عنان يوم الجمعة الثالث من شهر رمضان سنة ثمان وثمانين وسبعمائة ، وسنه يوم بويع خمس سنين

وخلع يوم الجمعة الخامس عشر من شوال من السنة المذكورة وغرب الى الاندلس مع أبيه فكانت دولته ثلاثة وأربعين يوما تحت استبداد الوزير مسعود عفا الله عنه .

الخبر عن دولة السلطان الواثق بالله
ابى زيان محمد بن ابي الفضل بن ابى الحسن

أمه : أم ولد اسمها عسيلة ، صفته : أسود اللون عظيم الخلق رحب الوجه طويل القامة والساقين ممتلىء الانف عظيم الساعدين ، وكان قبل ولايته عند ابن الاحمر بالاندلس فى جملة القرابة ، ولما استوحش الوزير مسعود من السلطان موسى بن أبى عنان بعث ابنه يحيى الى ابن الاحمر يسأل منه اعادة السلطان أبى العباس الى ملكه فأخرجه ابن الاحمر من الاعتقال وجاء به الى جبل الفتح يروم اجازته الى العدوة ، فلما توفى السلطان موسى بدا للوزير مسعود فى أمره ودس لابن الاحمر فى رده وأن يبعث اليه بالواثق هذا ورآه أليق بالاستبداد والحجر فأسعفه ابن الاحمر فى ذلك ورد السلطان أحمد الى مكانه بالحمراء وجىء بالواثق فحضر بجبل الفتح عنده فاجازه الى سبتة ، واتفق أن جماعة من الحاشية انتقضوا على الوزير مسعود ولحقوا بسبتة فقدم عليهم الواثق بها ورجعوا به الى المغرب وتقلبوا فى نواحيه الى أن وصلوا الى جبل مغيلة قرب فاس ، فبرز الوزير مسعود فى العساكر ونزل قبالتهم وقاتلهم هنالك أياما ثم وقع الاتفاق على أن يبايع مسعود للواثق بشرط الاستبداد فتم العقد على ذلك .

قال فى «الجذوة» : بويع السلطان الواثق بالله أبو زيان محمد بن أبى الفضل يوم الجمعة الخامس عشر من شوال سنة ثمان وثمانين وسبعمائة وقام بامره الوزير مسعود بن ماساى ، ثم حدثت الفتنة بين الوزير المذكور وابن الاحمر بسبب أن الوزير طلب منه اعادة سبتة الى الايالة المرينية وكان موسى بن أبى

عنان قد نزل له عنها كما مر وكان طلبه على سبيل الملاطفة فاستشاط ابن الاحمر غضبا وأساء الرد فجهز ابن ماساى العساكر لحصار سبتة مع العباس بن عمر ابن عثمان الوسنافى ويحيى بن علال بن آمصمود والرئيس محمد بن أحمد الابكم من بنى الاحمر فاستولى عليها ، ثم سرح ابن الاحمر السلطان أبى العباس من اعتقاله وبعثه الى المغرب لطلب ملكه وللتشغيب على ابن ماساى الجاحد لاحسانه ، فعبر السلطان أبو العباس البحر الى المغرب فاحتل سبتة واستولى عليها ، ثم تقدم الى فاس فحاصرها وضيق على ابن ماساى وسلطانه الواثق بالله ، وأهرع الناس الى الدخول فى طاعته حتى من مراكش ، فاستمر الحصار على فاس الجديد ثلاثة أشهر ، ثم أذعن الوزير مسعود للطاعة على شرط أن يبقى وزيرا ويغرب سلطانه الى الاندلس فاجيب وخلع الواثق بالله، ثم خرج الى السلطان أبى العباس فبايعه وتقدم أمامه فدخل دار ملكه يوم الخميس خامس رمضان سنة تسع وثمانين وسبعمائة ، ولحين دخوله قبض على الواثق بالله فقيده وبعث به الى طنجة فقتل بها بعد ذلك وسنه يوم قتل ثمان وثلاثون سنة وبها قبر .

ومن وزرائه : يعيش بن على بن فارس اليابانى ومسعود بن رحو بن ماساى، ومن كتابه: منصور بن أحمد بن محمد التميمى ، وأبو يحيى محمد ابن محمد بن أبى القاسم بن أبى مدين ، ومن قضاته : أبو يحيى محمد بن محمد السكاك رحمهم الله تعالى بمنه .

الخبر عن الدولة الثانية للسلطان ابى العباس بن ابى سالم بن ابى الحسن

لما دخل السلطان أبو العباس حضرة فاس الجديد فى التاريخ المتقدم بويع البيعة العامة فى اليوم الثالث من دخوله وهو يوم السبت السابع من رمضان سنة تسع وثمانين وسبعمائة لمضى ثلاث سنين وخمسة أشهر وستة أيام من

خلعه .

ولما ملك أمر نفسه قبض على الوزير ابن ماساى وعلى اخوته وحاشيته وامتحنهم امتحانا بليغا فهلكوا من العذاب ، ثم سلط على مسعود من العذاب والانتقام ما لا يعبر عنه واعتد عليه بما كان يفعله فى دور بنى مرين النازعين عنه اليه ، فانه كان متى هرب منهم أحد عمد الى بيوته فنهبها فامر السلطان أبو العباس بعقابه فى اطلالها فكان يؤتى به الى كل بيت منها فيضرب عشرين سوطا الى أن برح به العذاب وتجاوز الحد ، ثم أمر به فقطعت أربعته فهلك عند قطع الثانية وذهب مثلا للآخرين .

ظهور محمد بن عبد الحليم بن ابي علي بسجلماسة ثم اضمحلاله بعد ذلك

قد قدمنا أن الامير عبد الحليم بن أبى سعيد كان تغلب على سجلماسة ثم غلبه عليها أخوه عبد المؤمن ، وسافر عبد الحليم الى المشرق فهلك فى سفرته تلك ، وكان قد ترك ابنه محمدا هذا رضيعا فشب متقلبا بين الدول من ملك الى آخر على أن أكثر مقامه انما كان عند أبى حمو صاحب تلمسان ، ولما حاصر السلطان أبو العباس فاس الجديد كان محمد هذا عند العرب الاحلاف ، فلما اشتد الحصار على مسعود بن ماساى دس الى الاحلاف أن ينصبوا محمد ابن عبد الحليم للامر ويجلبوا به على المغرب ليأخذ بحجزة السلطان أبى العباس عنه ففعلوا ودخل محمد بن عبد الحليم سجلماسة فملكها حتى اذا استولى السلطان أبو العباس على فاس الجديد وأوقع بمسعود بن ماساى واخوته خرج محمد بن عبد الحليم عن سجلماسة ولحق باحياء العرب فسارت طائفة منهم معه الى أن أبلغوه مأمنه ونزل على أبى حمو بتلمسان الى أن هلك فسار الى تونس ونزل على صاحبها أبى العباس الحفصى ، ثم ارتحل بعد وفاته الى المشرق لحج الفريضة والله تعالى أعلم .

٧٥

نكبة الكاتب ابن ابى عمرو وحركات بن حسون ومقتلهما

كان محمد بن محمد بن أبى عمرو التميمى ، وقد تقدم ذكر والده، فى دولة السلطان أبى عنان كاتبا عند السلطان أبى العباس فى دولته الاولى ، فلما خلع وولى موسى بن أبى عنان تقرب اليه بسالف المخالصة لابيه من أبى عنان فقد كان أعز بطانته كما مر ، فاستخلصه السلطان موسى للشورى ورفع منزلته على منازل أهل الدولة وجعل اليه كتابة علامته على المراسم السلطانية كما كان لابيه ، وكان يفاوضه فى مهماته ويرجع اليه فى أموره حتى غص به أهل الدولة وسعى هو عند السلطان موسى فى جماعة من بطانة السلطان أبى العباس فاتى عليهم النكال والقتل لكلمات كانت تجرى بينهم وبينه فى مجالس المنادمة عند السلطان أبى العباس حقدها عليهم ، فلما ظفر بالحظ من السلطان موسى سعى بهم عنده فقتلهم ، وكان القاضى أبو اسحق ابراهيم اليزناسنى من بطانة السلطان أبى العباس وكان يحضر مع ندمائه فحقد عليه ابن أبى عمرو وأغرى به السلطان موسى فضربه وأطافه ، وجاء بها شنعاء غريبة فى القبيح ، ثم سفر ابن أبى عمرو عن سلطانه موسى الى الاندلس فكان يمر بمجلس السلطان أبى العباس من محل اعتقاله فلا يلم به وربما يلقاه فلا يحييه ولا يوجب له حقا ، فأحفظ ذلك السلطان أبا العباس فلما رد الله عليه ملكه وفرغ من ابن ماساى قبض على ابن أبى عمرو هذا وأودعه السجن ثم امتحنه بعد ذلك الى أن هلك تحت السياط وحمل الى داره ، وبينما أهله يحضرونه الى قبره اذا بالسلطان قد أمر بان يسحب فى نواحى المدينة ابلاغا فى النكال فحمل من نعشه وقد ربط فى رجله حبل وسحب فى سكك المدينة ثم ألقى على بعض المزابل .

ثم قبض السلطان على حركات بن حسون شيخ العرب وكان مجلبا فى الفتنة ، وكان العرب المخالفون من معقل لما أجاز السلطان أبو العباس الى سبتة

وحركات هذا بتادلا، راودوه على طاعة السلطان فامتنع أولا ثم أكرهوه وجاءوا به الى السلطان فطوى على ذلك حتى اذا استقام أمره وملك حضرة فـــاس الجديد قبض عليه وامتحنه الى أن هلك . والى الله عاقبة الامور .

اخبار تلمسان واستيلاء السلطان ابى العباس عليها

كان السلطان أبو حمو بن يوسف الزيانى قد عاد الى تلمسان وثبت قدمه بها كما قلنا الى أن خرج عليه ابنه أبو تاشفين آخر سنة ثمان وثمانين وسبعمائة فوقعت بينهما حروب وشرق أبوه بدائه ، ثم عادت لـه الكرة عليه فى أخبار طويلة ، فاستمد أبو تاشفين السلطان أبا العباس فامده بابنه الامير أبى فارس ووزير محمد بن يوسف بن علال عقد لهما على جيش كثيف من بنى مرين وغيرهم ، فانتصر أبو تاشفين على أبيه فقتله وبعث برأسه الى السلطان أبى العباس ، ثم تقدم فدخل تلمسان آخر سنة احدى وتسعين وسبعمائـــة واستمر بها مقيما لدعوة السلطان أبى العباس فكان يخطب له على منابر تلمسان ويبعث اليه بالضريبة كل سنة كما شرط على نفسه عند توجيه العساكر معه واستمر على ذلك الى أن مات سنة خمس وتسعين وسبعمائة (*) ، فتغلب على تلمسان أخوه الامير يوسف بن أبى حمو .

ولما اتصل الخبر بالسلطان أبى العباس خرج من الحضرة الى تازا ومن

(*) وكان نازعه اخوه ابو زيان بن ابى حمو صاحب الجزائر وزحف اليه مرارا فلم يغن شيئا ثم وفد على السلطان ابى العباس متطارحا عليه على الانتصاف من اخيه فاقام عنها مدة ثم اسعفه وجهز معه عسكرا الى تلمســـان منتصف سنة ٧٩٥ فانتهى الى تازا وهناك اتصل به خبر وفاة ابى تاشفين وحينئذ خرج السلطان ابو العباس من فاس انظر « كشف العرين » للمؤلف

هنا لك بعث ابنه الامير أبا فارس فى العساكر الى تلمسان فاستولى عليها وأقام فيها دعوة والده وفر يوسف بن أبى حمو الى بعض الحصون فاعتصم به الى أن كان ما نذكره .

وصول هدية صاحب مصر السلطان الظاهر برقوق الى السلطان ابى العباس بتازا والسبب فى ذلك

كان العلامة الرئيس ولى الدين ابن خلدون قد استوطن فى آخر عمره مصر القاهرة ونزل من سلطانها بالمنزلة الرفيعة قال رحمه الله : « وكان يوسف ابن على بن غانم أمير أولاد حسين من معقل ثم من أولاد جرار منهم قد حج سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ، واتصل بصاحب مصر الملك الظاهر برقوق أول ملوك الجراكسة من الترك قال : فتقدمت الى السلطان المذكور فيه وأخبرته بمحله من قومه فاكرم تلقيه وحمله بعد قضاء حجه هدية الى صاحب المغرب يطرفه فيها بتحف من بضائع بلده على عادة الملوك ، فلما قدم يوسف بها على السلطان أبى العباس أعظم موقعها وجلس فى مجلس حفل لعرضها والمباهاة بها وشرع فى المكافأة عليها بمتخير الجياد والبضائع والثياب حتى اذا استكمل من ذلك ما رضيه وعزم على بعثها مع يوسف بن على حاملها الاول وانه يبعثه بها من موضع مقامه بتازا اخترمته المنية دون ذلك .



وفاة السلطان ابى العباس بن ابى سالم رحمه الله

كانت وفاة السلطان أبى العباس بمحل مقامه من تازا وهو يشارف أحوال ابنه أبي فارس ووزيره صالح بن حمو اليابانى وكان قد قدمهما لفتح تلمسان والبلاد الشرقية فاصابه حمامه هنالك ليلة الخميس السابع من محرم فاتح سنة ست وتسعين وسبعمائة وحمل الى فاس فدفن بالقلة وسنه يومئذ تسع وثلاثون سنة فكانت دولته الثانية ست سنين وأربعة أشهر ، ومن وزرائه في هذه الدولة: صالح بن حمو اليابانى ومحمد بن يوسف بن علال الصنهاجى، ومن حجابه : أبو العباس أحمد بن على القبائلى، ومن كتابه: الشريف أبو القاسم محمد بن عبد الله الحسينى السبتى، والقائد محمد بن موسى بن محمود الكردى، ويحيى بن الحسن بن أبى دلامة التسولى، ومن قضاته: القاضى أبو اسحق ابراهيم بن محمد بن ابراهيم اليزناسنى : قال فى «الجذوة» : وكان السلطان أبو العباس شاعرا مفلقا بديع التشبيه فمن نظمه قوله :

أما الهوى يا صاحبى فألفته   وعهدته من عهد أيام الصبا
ورأيته قوت النفوس وحليها   فتخذته دينا الى ومذهبا
ولبست دون الناس منه حلة   كان الوفاء لها طرازا مذهبا
لكن رأيت له الفراق منغصا   لا بفراقنا لا مرحبا »

ومن أخبار السلطان أبى العباس ما حكاه فى «نفح الطيب» : «أن الاديب الكاتب أبا الحسن على ابن الوزير لسان الدين ابن الخطيب كان مصاحبا للسلطان أبى العباس هذا ، فحضر معه ذات يوم فى بستان سح فيه ماء المذاكرة الهتان وقد أبدى الاصيل شواهد الاصفرار وأزمع النهار لما قدم الليل على الفرار فقال السلطان أبو العباس لما لان جانبه وسالت بين سرحات البستان جداوله ومذانبه :

يا فاس انى وايم الله ذو شغف   بكل ربع به مغناه يسبينى

وقد أنست بقرب منك يا آملي ونظرة فيكم بالانس تحيينـي

فأجابه أبو الحسن ابن الخطيب بقوله المصيب :

لا أوحش الله ربعا أنت زائره يا بهجة الملك والدنيا مع الدين

يا أحمد الحمد أبقاك الاله لنـا فخر الملوك وسلطان السلاطين»

ومن أخباره أيضا : أن كاتبه أبا زكرياء يحيى بن أحمد بن عبد المنان دخل عليه عشاء فقال له : «أنعم الله صباح مولانا» فأنكر السلطان ذلك وظن انه ثمل فتفطن أبو زكرياء لما صدر منه وتدارك ذلك فانشد مرتجلا (*) :

صبحته عند المسـاء فقـال لى ماذا الكلام وظن ذاك مزاحـا

فأجبته اشراق وجهك غرنـي حتى توهمت المساء صباحـا

الخبر عن دولة السلطـان المستنصر بالله ابي فارس عبد العـزيز

ابن ابي العباس بن ابي سالم رحمه الله

من الاتفاق الغريب : أن سلطان فاس والمغرب فى هذا التاريخ كان اسمه عبد العزيز بن أحمد ، وسلطان تونس وافريقية كان اسمه أيضا عبد العزيز ابن أحمد ، وكانت ولايتهما فى سنة واحدة الا أن مدة الحفصى طالت جدا .

أم هذا السلطان : أم ولد اسمها جوهر ، صفته : شاب السن ربعة من القوم أدعج العينين جميل الوجه .

لما توفى السلطان أبو العباس بن أبى سالم رحمه الله بتازا كان ابنه أبو فارس هذا بتلمسان فاستدعاه رجال الدولة منها فقدم عليهم بتازا وبايعوه بها يوم السبت التاسع من محرم سنة ست وتسعين وسبعمائة ، ولما تم أمره أطلق أبا زيان بن أبى حمو الزيانى وكان معتقلا عنده بفاس لا لتجائه الى أبيه من قبل فى خبر ليس تفصيله من غرضنا ، وبعثه الى تلمسان أميرا عليها من قبله ، فسار اليها أبو زيان وملكها وأقام فيها دعوة السلطان أبى فارس ، ثم خرج عليه أخوه

(*) انما تمثل بهما

يوسف بن أبى حمو واتصل باحياء بنى عامر بن زغبة وعزم على الاجلاب عليه بهم فسرب أبو زيان فيهم الاموال فقتلوه وبعثوا اليه برأسه فسكنت أحوال تلمسان وذهبت الفتنة بذهاب يوسف واستقامت أمور دولة السلطان أبى فارس قاله ابن خلدون ، وهو آخر ما ورخه من دولة المغرب .

واعلم أن ما نسوقه بعد هذا من الاخبار عن هذه الدولة المرينية لم يسمح لنا الوقت بالوقوف عليه فى تأليف يخصها أو موضوع يقص أخبارها نسقا وينصها ، وانما تتبعنا ما أثبتناه من ذلك فى مواضع ذكرت فيها بحسب التبع لا بالقصد الاول وعلى الله تعالى فى الهداية الى الصواب المعول .

بقية اخبار السلطان عبد العزيز ووفاته

قالوا: كان السلطان عبد العزيز بن أبى العباس رحمه الله كثير الشفقة رقيق القلب منقبضا عن الغدر متوقفا في سفك الدماء وكان فارسا عارفا بركض الخيل ويحسن قرض الشعر ويحب سماعه فمن نظمه ، وقد نزل المطر ، يشكر الله تعالى عليه ، قوله :

الله يلطف بالعباد فواجب ... أن يشكروا فى كل حال نعمته
فهو الذى فيهم ينزل غيثه ... من بعد ماقنطوا وينشر رحمته

توفى رحمه الله يوم السبت ثامن صفر سنة تسع وتسعين وسبعمائة ودفن مع أبيه بالقلة فكانت دولته ثلاث سنين وشهرا ومن وزرائه :صالح بن حمو اليابانى ويحيى بن علال بن آمصمود الهسكورى ومن كتابه : يحيى بن الحسن بن أبى دلامة ومن قضاته: عبد الحليم بن أبى اسحق اليزناسنى رحمهم الله تعالى بمنه .



الخبر عن دولة السلطان المستنصر بالله ابى عامر عبد الله ابن ابى العباس بن ابى سالم رحمه الله تعالى

هذا السلطان شقيق الذى قبله ، أمه : الجوهر المتقدمة . صفته : أدعج العينين حسن الانف لامى العذار . بويع بعد أخيه عبد العزيز يوم السبت الثامن من صفر سنة تسع وتسعين وسبعمائة ، وكان التصرف والنقض والابرام فى هذه المدة كلها للوزراء وتوفى السلطان المذكور بعد صلاة العصر من يوم الثلاثاء الموفى ثلاثين من جمدى الآخرة سنة ثمانمائة ، فكانت دولته سنة وخمسة أشهر سوى أيام ، ومن وزرائه : صالح بن حمو ويحيى بن علال ، ومن قضاته : عبد الرحيم اليزنابسنى ، ومن حجابه : أبو العباس أحمد بن على القبائلى وفارح بن مهدى العلج والله تعالى أعلم .

وأما أخبار الغنى بالله ابن الاحمر بالاندلس فانه كان أسقط رياسة الجهاد من بنى مرين بها ومحا رسمها من مملكته أيام أجاز عبد الرحمن بن أبى يفلوسن للتشغيب على أبى بكر بن غازى بن الكاس حسبما تقدم . وصار أمر الغزاة والمجاهدين اليه وباشر أحوالهم بنفسه واستمر الحال على ذلك الى أن هلك سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ، فولى مكانه ابنه أبو الحجاج يوسف وبايعه الناس وقام بامره خالد مولى أبيه وتقبض على اخوته : سعد ومحمد ونصر فكان آخر العهد بهم ولم يوقف لهم بعد على خبر ، ثم سعى عنده فى خالد القائم بدولته وانه أعد السم لقتله وان يحيى بن الصائغ اليهودى طبيب دارهم قد داخله فى ذلك ففتك بخالد وتناوشته السيوف بين يديه لسنة أو نحوها من ملكه ، ثم حبس الطبيب المذكور فذبح فى محبسه ، ثم هلك سنة أربع وتسعين وسبعمائة لسنتين أو نحوها من ولايته .

وقد وقفت لبعض الاصبنيوليين ، واسمه : منويل باولو القشتيلى ، على كتاب موضوع فى أخبار المغرب الاقصى فنقلت منه بعض أخبار لم أجدها الا عنده

وهو وان كان ينقل الغث والسمين والرخيص والثمين الا أن الناقد البصير يميز حصباءه من دره ويفرق بين حشفه وثمره، فمن ذلك انه حكى عن السلطان أبي الحجاج المذكور ما صورته قال : « كانت مراسلات السلطان المريني، يعني السلطان أبا العباس مع السلطان يوسف بن الغني بالله صاحب غرناطة حسنة في الظاهر تدل على الموافقة والمحبة وكان المريني في الباطن يحب الاستيلاء على مملكة غرناطة ولما لم يمكنه ذلك بالسيف عدل الى اعمال الحيلة فاهدى الى السلطان أبي الحجاج كسى رفيعة أحدها مسمومة فلبسها فهلك لحينه ومع ذلك فلم يدرك المريني غرضه فانه لم يلبث الا يسيرا حتى توفي أيضا » اه .

ولما توفي أبو الحجاج بويع ابنه محمد بن يوسف وقام بامره القائد أبو عبد الله محمد الخصاصي من صنائع أبيه، قال ابن خلدون: «والحال على ذلك لهذا العهد» ولنذكر ما كان في هذه المدة من الاحداث :

ففي سنة خمسين وسبعمائة كان الوباء الذي عم المسكونة شرقا وغربا على ما نبهنا عليه فيما مضى .

وفي سنة خمس وستين وسبعمائة توفي الولي الزاهد أبو العباس أحمد ابن عمر بن محمد بن عاشر الاندلسي نزيل سلا العارف المشهور قال أبو عبد الله بن صعد التلمساني في كتابه : «النجم الثاقب فيما لاولياء الله من المناقب» : كان ابن عاشر أحد الاولياء الابدال معدودا في كبار العلماء مشهورا باجابة الدعاء معروفا بالكرامات مقدما في صدور الزهاد منقطعا عن الدنيا وأهلها ولو كانوا من صالحي العباد ملازما للقبور في الخلاء المتصل ببحر مدينة سلا منفردا عن الخلق لا يفكر في أمر الرزق ، وله أخبار جليلة وكرامات عجيبة مشهورة ممن جمع الله له العلم والعمل وألقى عليه القبول من الخلق شديد الهيبة عظيم الوقار كثير الخشية طويل التفكر والاعتبار ، قصده أمير المؤمنين أبو عنان وارتحل اليه سنة سبع وخمسين وسبعمائة فوقف ببابه طويلا فلم يأذن له وانصرف وقد امتلأ قلبه من حبه واجلاله ثم عاود الوقوف ببابه مرارا فما وصل اليه فبعث اليه بعض أولاده بكتاب كتبه اليه يستعطفه لزيارته ورؤيته فأجابه بما قطع رجاءه منه وأيأسه من لقائه فاشتد حزنه وقال : « هذا ولي من

أولياء الله تعالى حجبه الله عنا » اه . ومناقب الشيخ ابن عاشر وكراماته كثيرة وقد ألف فيها أبو العباس ابن عاشر الحافي من علماء سلا كتابه المسمى «بتحفة الزائر فى مناقب الشيخ ابن عاشر » فانظره .

وفى سنة ست وسبعين وسبعمائة وهى السنة التى قتل فيها ابن الخطيب كان الجوع بالمغرب قال أبو العباس ابن الخطيب القسنطيني المعروف: بابن قنفد فى كتابه «انس الفقير» ما حاصله : «انه رجع من هجرته بالمغرب الاقصى فى السنة المذكورة الى بلده قسنطينة فاجتاز فى طريقه بتلمسان» قال : وفى هذه السنة كانت المجاعة العظيمة وعم الخراب المغرب فأقمت بتلمسان نحو شهر أنتظر تيسر سلوك الطريق فالتجأت الى قبر الشيخ أبى مدين ودعوت الله عنده فوقع ما أملته وارتحلت بعد أيام يسيرة فرأيت فى الطريق من الخير ما كان يتعجب منه من شاهده ، وكان أمر الطريق فى الخوف والجوع بحيث أن كل من تقدم عليه يتعجب من وصولنا سالمين ، ثم عند ارتحالنا من عنده يتأسف علينا حتى ان منهم من يسمعنا ضرب الاكف خلفنا تحسرا علينا حتى انتهى سفرنا على وفق اختيارنا والحمد لله » .

وفى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة توفى الشيخ الفقيه المحدث أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عمران الفنزارى السلاوى المعروف بابن المجراد صاحب «لامية الجمل» «وشرح الدرر» وغيرهما من التآليف الحسان ، قال صاحب «بلغة الامنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة فى الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب» فى حق الشيخ المذكور : «كان محدثا حافظا راوية له معرفة بالرجال والمغازى والسير وكان رجلا صالحا حسن السيرة صادق اللهجة انتفع به الناس وظهرت بركته على كل من عرفه أو لازم مجلسه أو قرأ عليه من صغير أو كبير » قال : « وذلك عندنا معروف بسبتة مشهور بين أهلها وانتقل الى بلده سلا وتوفى بها فى السنة المذكورة » قلت : وقبره مشهور بها الى الآن وعليه قبة صغيرة وهو من مزارات سلا خارج باب المعلقة منها عن يمين الخارج على نحو غلوة وأهل سلا يسمونه سيدى الامام السلاوى رحمه الله ورضى عنه

وفى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة توفى الشيخ الامام العارف المحقق الربانى أبو عبد الله محمد بن ابراهيم النفزى المعروف بابن عباد شارح (الحكم العطائية) وأحد تلامذة الشيخ ابن عاشر المذكور آنفا، قال صاحبه وأخوه فى الله الشيخ أبو زكرياء السراج فى حقه مانصه: «كان حسن السمت طويل الصمت كثير الوقار والحياء جميل اللقاء حسن الخلق والخلق عالى الهمة متواضعا معظما عند الخاصة والعامة، نشأ ببلدة رندة على أكمل طهارة وعفاف وصيانة وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، ثم اشتغل بعد بطلب العلوم النحوية والادبية والاصولية والفروعية حتى رأس فيها وحصل معانيها، ثم أخذ فى طريق الصوفية والمباحثة عن الاسرار الالهية حتى أشير اليه وتكلم فى علوم الاحوال والمقامات والعلل والآفات وألف فيها تآليف عجيبة وتصانيف بديعة غريبة، وله أجوبة كثيرة فى مسائل العلوم نحو مجلدين، ودرس كتبا وحفظها كلها أوجلها» الى أن قال: «ولقى بسلا الشيخ الحاج الصالح السنى الزاهد الورع أحمد بن عاشر وأقام معه ومع أصحابه سنين عديدة قال رحمه الله: «قصدتهم لوجدان السلامة معهم»، وتوفى رحمه الله بفاس بعد صلاة العصر من يوم الجمعة ثالث رجب من السنة المذكورة وحضر جنازته السلطان أبو العباس بن أبى سالم فمن دونه وهمت العامة بكسر نعشه تبركا به رحمه الله ورضى عنه.

- ومن فوائده التى نقلها عن شيخه ابن عاشر ما ذكره فى رسائله قال: «كنت قدما خرجت فى يوم مولد النبى صلى الله عليه وسلم صائما الى ساحل البحر فوجدت هنالك سيدى الحاج أحمد بن عاشر رحمه الله ورضى عنه وجماعة من أصحابه ومعهم طعام يأكلونه فأرادوا منى الاكل فقلت: انى صائم فنظر الى سيدى الحاج نظرة منكرة وقال لى: «هذا يوم فرح وسرور يستقبح فى مثله الصوم كالعيد» فتأملت قوله فوجدته حقا وكأنه أيقظنى من النوم» اه

واعلم انه فى آخر هذا القرن الثامن تبدلت أحوال المغرب بل وأحوال المشرق ونسخ الكثير من عوائد الناس ومألوفاتهم وأزيائهم. قال ابن خلدون فى مقدمة تاريخه بعد أن ذكر أن الاحوال العامة للآفاق والاجيال والاعصار هى أس المؤرخ الذى تبنى عليه أكثر مقاصده ما نصه: «وأما لهذا العهد وهو

آخر المائة الثامنة فقد انقلبت أحوال المغرب الذى نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة ، واعتاض من أجيال البربر أهله على القدم بمن طرأ فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب بما كثروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الاوطان، وشاركوهم فيما بقى من البلدان بملكتهم وبأسهم ، هذا الى ما نزل بالعمران شرقا وغربا فى منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذى تحيف الامم وذهب باهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها ، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلص من ظلالها وفل من حدها وأوهن من سلطانها وتداعت الى التلاشى والاضمحلال أحوالها ، وانتقص عمران الارض بانتقاص البشر فخربت الامصار والمصانع ، ودرست السبل والمعالم ، وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن وكأنى بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه ، وكأنما نادى لسان الكون فى العالم بالخمول والانقباض فبادر بالاجابة والله وارث الارض ومن عليها ، واذا تبدلت الاحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث » الى آخر كلامه رحمه الله، فافهم هذه الجملة وتفطن لاحوال الدول التى سردنا أخبارها فيما مضى وأحوال التى نسرد أخبارها فيما بعد وتأمل الفرق بين ذلك والسبب فيه والله تعالى الموفق للصواب بمنه .



الخبر عن دولة السلطان ابى سعيد عثمان بن ابى العباس ابن ابى سالم

هذا السلطان هو ثالث الاخوة الاشقاء من بنى أبى العباس الذين ولوا الامر من بعده ولاء. أمه: الجوهر أم أخويه قبله. بويع بعد صلاة العصر له من يوم الثلاثاء الموفى ثلاثين من جمدى الآخرة سنة ثمانمائة وسنه يومئذ ستعشرة سنة وكان النقض والابرام وسائر التصرفات فى دولته للوزراء والحجاب والسلطان متفرغ لاستيفاء لذاته ، ومن أكبر حجابه : أبو العباس القبائلى الذى نذكر خبره الآن .

حجابة ابي العباس القبائلى ونكبته ومقتله والسبب فى ذلك (*)

بيت بنى القبائلى بيت مشهور فى الوزارة والحجابة والكتابة من لدن الدولة الموحدية بمراكش الى هذا التاريخ ، وكان الرئيس الفقيه أبو العباس أحمد بن على القبائلى كاتبا مشهورا وحاجبا مذكورا وكان قد بذ الاقران وتصدر على الاعيان وبلغ من الجاه ونفوذ الكلمة مبلغا عظيما ، وكان يحابى بالخطط السلطانية الاقارب والارحام لا يعدل بها عمن سواهم فاضطغنت عليه القلوب وكثرت فيه السعايات الى أن نفذ أمر الله فأوقع به السلطان أبو سعيد وقعة شنعاء كان من خبرها: انه كان للحاجب المذكور ولد اسمه عبد الرحمن وكان من فضلاء وقته ، وكان لعبد الرحمن هذا ولد اسمه على وكان من نجباء الابناء فكان لجده أبى العباس لذلك ميل اليه ومحبة وافتتان به ، فاتفق أن

(*) انظر ترجمة القبائلى هذا فى «الضوء اللامع» للسخاوى و لابد. بقدافادج ١ صفحة ٤٧

مرض هذا الحافد ذات يوم فنزل جده أبو العباس من الحضرة بفاس الجديـــد لعيادته بدار ولده عبد الرحمن من عدوة القرويين من فاس القديم وكانت الدار بزنقة الجبلة من الطالعة فبات الشيخ عند حافده تلك الليلة ، وكان منذ ولي خطة الحجابة لم يغب عن دار الملك ليلة واحدة بل كان يأخذ في ذلك بالحزم بحيث يسد أبواب الحضرة ويفتحها ويباشر سائر الامور السلطانية بنفسه ، فلما أراد الله انفاذ قدره غطى على عقله وبصره فتساهل فى تلك الليلة وبعث ولده أبا القاسم ليقوم مقامه فى غلق الابواب وفتحها مع صاحب السقيـــف ومساهمه فى القيام بالامور السلطانية أبى محمد عبد الله الطريفى الآتـــى ذكره فغلقا الابواب على العادة ، ولما كان الصباح من الغد تقدم الولد أبو القاسم لاخذ المفاتيح من دار الخلافة فأخرجت اليه وتولى فتح الابواب وحده دون أن يحضر الطريفى المشارك له فى ولاية السقيف ، فلما جاء أبو محمد المذكور ورأى الابواب مفتحة بدون حضوره أخذه من ذلك ما قدم وما حدث وأسرها فى نفسه حتى اذا كان المساء وحضر الوقت المعهود لغلق الابواب طلع للحضرة ولد آخر من ولد الحاجب القبائلى يعرف بأبى سعيد فبادر أبو محمد فسد الابواب فى وجهه قبل أن يصل اليه وأمسك المفاتيح عنده واستبد بها فطلب منه أبو سعيد أن يفتح له الباب فتجهمه وامتنع وكأنه أمر دبر بليل ، ثم تقـــدم القائد أبو محمد المذكور الى السلطان أبى سعيد فاعلمه بما اتفق له مع أولاد الحاجب فأوعز اليه السلطان أن لا يفتح الباب بعد غلقه الا وقت فتحه المعتاد وزاد فى الوصية بان لا يفتح ولا يغلق الا بمحضر السعيد ابن السلطان أبى عامر رحمه الله . ولما رجع أبو سعيد الى والده بعدوة القرويين من فاس أعلمه بما اتفق له مع القائد الطريفى فامتلأ غيظا وقامت قيامته وكانت فيه دالة على السلطان فتخلف عن الحضور ولم يذكر ما قالته الحكماء : (اذا عاديت من يملكك فلا تلمه انه يهلكك)، ثم استعطفه السلطان فأبى أن يعطف ثم بعث اليه ببراءة بخطه ليزيل ما بصدره من الموجدة فكتب الحاجب جوابها ، وأقسم أن لا يطأ بساطا فيه فارح بن مهدى العلج وكان فارح هذا بعين التجلة من السلطان فلما وقف السلطان أبو سعيد على جواب الحاجب حمى أنفه وأظلمت الدنيا

فى عينيه وأمر بالايقاع بالحاجب فى الحين فذبح هو وولده عبد الرحمن يوم الخميس الموفى ثلاثين من شوال سنة اثنتين وثمانمائة ، وكان عبد الرحمن هذا فاضلا شاعرا فمن شعره فى الغزل قوله :

أتسمع فى الهوى قول اللواحى ... وقد أبصرت خشف بنى رياح
غزال خلف الصب المعنى ... من الوجد المبرح غير صاح
وقد قتلت ولا اثم عليها ... مراض جفونه كل الصحاح
يقول ولحظه بالعقل يزدى ... على م تطيل وصفى وامتداحى
فقلت فنون سحر فيك راقت ... قضت للقلب بالعشق الصراح
جبينك والمقلد والثنايا ... صباح فى صباح فى صباح

وبقى الحافد أبو الحسن على بن عبد الرحمن المذكور مرتبا فى جملة الكتاب وكان فاضلا شاعرا أيضا ولما مرض السلطان أبو سعيد فى شعبان سنة سبع وثمانمائة وصح من مرضه وهنأته الشعراء بقصائد كثيرة فكان من جملتهم أبو الحسن المذكور فقال :

هنيئا لنا ولكل الانام ... براحة فخر الملوك الهمام
امام أقام رسوم العلا ... وحل من المجد أعلى السنام
به قرت العين لما بدا ... صحيحا وما ان به من سقام
وهل هو الا كبدر الدجا ... يوارى قليلا وراء الغمام
ويظهر طورا فيجلو به ... عن الناس ياصاح ساجى الظلام
أو الليث يعكف فى غيله ... فتحذر منه السباع اهتجام
أمولاى عثمان بحر الندى ... ومردى العداة ونجل الكرام
لقد رفع الله مقداركم ... فنفسى الفداء لكم من امام
أمولاى عبدك قد ضره ... أفول رضاكم وبعد المرام
وأضحى كئيبا لابعادكم ... مشوقا لتقبيل ذاك المقام
فكن راحما يا امام الورى ... عطوفا بمملوكك المستهام
لعل الذى ناله ينقضى ... وتشمل منك هبات جسام
فأيدك الله بالنصر ما ... ترنم فوق الغصون حمام

٨٩

حجابة فارح بن مهدي واوليته وسيرته

قال ابن خلدون : « فارح بن مهدى من معلوجى السلطان يعنى أبا العباس وأصله من موالى بنى زيان ملوك تلمسان » اهـ. وقال فى «الجذوة» : «هو من موالى السلطان أبى سعيد بن أبى العباس » . ولا منافاة بين الكلامين والله أعلم . ولما قتل أبو العباس القبائلى ولى الحجابة من بعده فارح بن مهدى هذا. قال فى «الجذوة»: ولم يكن من أهل العلم لكنه كان شيخا مجربا للامور عارفا مجيدا فى التدبير قد أعطى الرياسة حقها والخطط مستحقها وكان ممسكا عنانه فلا يميل مع نفسه ولا يسحب أردانه ولا يوحش سلطانه موسوما عند الخلافة بالامانة ملحوظا لديها بعين المروءة والصيانة . وكان السلطان أبو سعيد يعتنى به لاجل كبر سنه وتربيته الحرة: آمنة بنت السلطان أبى العباس(*): كانت تبدى له وجهها فى حالى صغرها وكبرها فكانت له بذلك مزية لم تكن لغيره . بهذا ذكره التاورتى ولعل فيه تعريضا بالحاجب قبله . ولما تكلم أبو عبد الله محمد العربى الفاسى فى كتابه: «مرآة المحاسن» على مدينة تيجساس وصفها بقوله: «انها فى شرقى تطاوين على مسيرة يوم منها فى موضع كثير الحجارة والصخر فى سفح جبل من غربيها وتحتها من شمالها جرف كثير الصخر عظيمه على مكسر موج البحر ولها نهر نفاع يجلب اليها منه جدول ولها بسيط تركبه الجداول من كل جهة فتسقى الزرع والكتان والثمار فأهلها فى أمن من القحط» الى أن قال: «ولم تزل عامرة الى حدود ثمانمائة فجلا عنها أهلها بسبب جور فارح بن مهدى الوالى عليها من قبل بنى مرين فخلت من سكانها وإنتقلوا الى القبائل وغيرها ولم يزل سورها ماثلا الى الآن» اهـ : قلت : وفى هذه المدة خربت تطاوين القديمة أيضا فزعم منويل فى تاريخه : أن قراصين المسلمين من أهل تطاوين وغيرهم كانت تغير على سواحل اصبانيا وتغنم مراكبها ولما كانت سنة ألف وأربعمائة مسيحية الموافقة لسنة ثلاث وثمانمائة هجرية بعث الطاغية الريكى الثالث شكسوادرة لغزو تطاوين ومراكبها فانتهت الى وادى مرتيل وأفسدت قراصين

(*) آمنة المرينية التى ينسب اليها البستان (للمؤلف)

المسلمين التى به ثم نزلت عساكر الاصبنيول للبر فاقتحمت مدينة تطاوين بعد أن جلا أهلها عنها وخربتها وعاثت فيها وبقيت خربة نحو تسعين سنة ثم جدد بناؤها على يد الرئيس أبى الحسن على المنظرى الغرناطى كماسيأتى . وكانت وفاة فارح بن مهدى فى الثانى والعشرين من ربيع الاول سنة ست وثمانمائة والله تعالى أعلم .

حجابة ابى محمد الطريفى وسيرته

لما توفى الحاجب فارح بن مهدى ولى الحجابة من بعده أبو محمد عبد الله الطريفى وكان من فضلاء الحجاب وهو الذى بنى مسجد السوق الكبير بفاس الجديد وحبس عليه كتبا كثيرة فكان ذلك من حسناته الباقية نفعه الله بقصده .

حدوث الفتنة بين السلطان ابى سعيد والسلطان ابي فارس الحفصى والسبب في ذلك

لما توفى السلطان أبو العباس الحفصى صاحب تونس ولى الامر من بعده ابنه أبو فرس المذكور فوزع الوظائف من الامارة والوزارة وولاية الاعمال على اخوته فاعتضد بهم ، وكان من جملتهم أخوه أبو بكر بن أبى العباس بقسنطينة فنازعه بها ابن عمه الامير أبو عبد الله محمد بن أبى زكرياء الحفصى صاحب بونة وألح عليه فى الحصار فصمد اليه السلطان أبو فارس الحفصى وأوقع به على سيبوس وقعة شنعاء انتهت به هزيمتها الى فاس مستصرخا صاحبها ، وهو يومئذ أبو فارس المرينى، فأقام أبو عبد الله بفاس الى سنة عشر وثمانمائة فى دولة السلطان أبى

سعيد فاتفق أن فسد ما بين السلطان أبى فارس الحفصى وبين اعراب افريقية من سليم فقدمت طائفة منهم حضرة فاس مستنجدين السلطان أبا سعيد على صاحبهم أبى فارس فألفوا عنده الامير أبا عبد الله المنهزم بسبيوس كمامر، فعقد له السلطان أبو سعيد على جيش من بنى مرين وغيرهم وبعثه مع العرب فلما انتهى الى بجاية تلقته اعراب افريقية طائعة وهون عليه المرابط شيخ حكيم منها أمر تونس فرد الجيش المرينى وقصدها بمن انضم اليه من الحشود فأخذ بجاية من أبى يحيى وفر فى البحر، وعقد أبو عبد الله عليها لابنه المنصور ثم زحف الى السلطان أبى فارس فخالفه الى بجاية فافتكها من يد ابنه المنصور ووجه به مع جماعة من كبار أهلها معتقلين الى الحضرة، وعقد عليها لاحمد ابن أخيه ونهض لقتال ابن عمه أبى عبد الله المذكور فنزع المرابط عنه الى السلطان أبى فارس لعهد كان بينهما، فانفض جمع أبى عبد الله وقتل واحتز رأسه ووجهه السلطان أبو فارس مع من علقه بباب المحروق احد ابواب فاس اغاظة للسلطان أبى سعيد وذلك سنة اثنتى عشرة وثمانمائة. ثم تحرك السلطان أبو فارس الى جهة المغرب قاصدا أخذ الثار من السلطان أبى (*) سعيد فاستولى على تلمسان ثم قصد حضرة فاس فلما شارفها جنح السلطان أبو سعيد الى السلم فوجه اليه بهدايا جليلة فقبل ذلك أبو فارس وكافأ عليه وانكفأ راجعا الى حضرته، ولحقته فى طريقه بيعة أهل فاس وانتظم له ملك المغرب وبايعه صاحب الاندلس أيضا قاله صاحب « الخلاصة النقية » وهو الاديب أبو عبد الله محمد الباجى أحد كتاب الدولة التركية بتونس.

(*) كان زحف ابى فارس الى المغرب سنة ٨٢٧ كما عند الزركشى صحيفة ١١٠ وهلك ابو سعيد سنة ٨٢٣ وعليه فان السلطان المرينى الماخوذ منه الثار هو احد الملوك الذين تعاقبوا على مملكة المغرب قبل السلطان عبد الحق كما يعلم تحقيق ذلك فى تاليفنا الموضوع في تاريخ المغرب فراجعه تستفد والله اعلم المؤلف

٩٢

استيلاء البرتقال على مدينة سبتة اعادها الله

كان جنس البرتقال وهو البردقيز فى هذه السنين قد كثر بعد القلة واعتز بعد الذلة وظهر بعد الخمول وانتعش بعد الذبول فانتشر فى الاقطار وسما الى تملك الامصار فانتهى الى أطراف السودان بل وأطراف الصين على ما قيل ، وألح على سواحل المغرب الاقصى فاستولى فى سنة ثمان عشرة وثمانمائة على مدينة سبتة أعادها الله بعد محاصرته لها حصارا طويلا ،وسلطان المغرب يومئذ أبو سعيد بن أحمد صاحب الترجمة ، وسلطان البرتقال يومئذ خوان الاول

وذكر منويل فى تاريخه : أن سلطان المغرب يومئذ عبد الله بن أحمد أخو أبى سعيد المذكور وسيأتى كلامه بتمامه .

وذكر صاحب «نشر المثانى» : فى كيفية استيلاء البرتقال على سبتة قصة تشبه قصة قصير مع الزباء قال: « رأيت بخط من يظن به التثبت والصدق أن النصارى جاءوا بصناديق مقفلة يوهمون أن بها سلعا وأنزلوها بالمرسى كعادة المعاهدين وذلك صبيحة يوم الجمعة من بعض شهور سنة ثمان عشرة وثمانمائة وكانت تلك الصناديق مملوءة رجالا عددهم أربعة آلاف من الشباب المقاتلة فخرجوا على حين غفلة من المسلمين واستولوا على البلد وجاء أهله الى سلطان فاس مستصرخين له، وعليهم المسوح والشعر والوبر والنعال السود رجالا ونساء وولدانا فانزلهم بملاح المسلمين ثم ردهم الى الفحص قرب بلادهم لعجزه عن نصرتهم حتى تفرقوا فى البلاد والامر لله وحده» قال: «وسمعت من بعضهم أن الذى جر النصارى على ارتكاب تلك المكيدة هو أنهم كانوا قد قاطعوا أمير سبتة على أن يفوض اليهم التصرف فى المرسى والاستبداد بغلتها ويبذلوا له خراجا معلوما فى كل سنة فكان حكم المرسى حينئذ لهم دون المسلمين ولو كان المسلمون هم الذين يلون حكم المرسى ما تركوهم ينزلون ذلك العدد من الصناديق مقفلة لا يعلمون ما فيها والله أعلم بحقيقة الامر » .

ولما استولى البرتقال على سبتة اعتنى بها وحصنها واستمرت فى ملكتهم مدة تزيد على مائتين وخمسين سنة ثم ملكها منهم طاغية الاصبنيول فى سبيل مهادنة وشروط انعقدت بينهم بمدينة أشبونة فى حدود الثمانين وألـــف ، وأخبار السلطان أبى سعيد كثيرة ، وقد أرخ دولته وسيرته الكاتب أبواسحق ابراهيم بن أحمد التاورتى رحمه الله . وتوفى السلطان المذكور سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة ، وولى الامر من بعده ابنه عبد الحق الاخير ، كـــذا ذكره فى «جذوة الاقتباس» .وقد ذكر منويل فى أمر أبى سعيد ووفاته ما يخالف هذا ، قال : « لما كانت دولة السلطان أبى سعيد المرينى كان المسلمون أهل جبل طارق قد سئموا ملكة ابن الاحمر صاحب غرناطة وتحققوا بان المرينى أقوى منه شوكة وأقدر على تخليصهم مما عسى أن ينالهم به الاصبنيول من حصـــار ونحوه ، فبعثوا اليه يخطبون ولايته ويعرضون عليه الدخول فى طاعته ان هو أمدهم بما يدفعون به فى نحر ابن الاحمر فأعجب أبا سعيد ذلك وللحين بعث اليهم أخاه عبد الله بن أحمد المعروف بسيدى عبو ومعـــه طائفة من الجيش امدادا لهم وكان قصد أبى سعيـد ببعـــث أخيه عبد الله الحصول على احدى الفائدتيـن : اما فتـح جبـــل طـــارق ان كان الظهور له ، أو الاستراحة منه ان كان عليه ، لانه كان يشوش عليه فجاء الاخ المذكور حتى نزل بازاء جبل طارق ففتح أهل البلد الباب وأدخلـــوه وأدخلوا جنده ، وتحصن قائد الغرناطى وعسكره بقلعة الجبل وطير الاعلام بذلك الى صاحبه ، فبعث اليه جيشا قويت به نفسه فنزل من القلعة وانضم اليه مدده وقاتلوا جيش المرينى فهزموه ، وقبضوا على عبد الله باليد وعلى جماعة من أصحابه وبعثوا بهم أسرى الى صاحب غرناطة ، فعمد صاحب غرناطة الى عبد الله وأنزله فى محل معتبر وأحسن اليه ، فتخلف ظن السلطان أبى سعيد فيما كان يحب لاخيه من التلف وغاظه فعل ابن الاحمر معه من الاحسان والابقاء عليه ، ثم ان أبا سعيد دبر حيلة بان بعث من قبله رجلا الى أخيه ليسقيه السم ويستريح منه ، مع أن غوغاء أهل المغرب وقبائله المنحرفة عن السلطان كانوا قد تشوفوا لقدومه عليهم وقيامهم معه ، فبطلت حيلة أبى سعيد فى السم ولم يحصل

على طائل . ثم ان ابن الاحمر اتفق مع عبد الله على أن يمده بالعسكر والمال ويسرحه الى المغرب ليستولى على ملكه ويأخذ له بالثار من أخيه ، فقبل عبد الله ذلك وأمده ابن الاحمر وسرحه الى المغرب ، فلما احتل به تبعه عدد وافر من قبائله الذين كانوا مستثقلين لوطأة أبى سعيد ، فنهض اليه أبو سعيد فكانت الكرة عليه ورجع مفلولا فى يسير من الجند الى فاس فتقبض عليه أهلها وسجنوه وأعلنوا بنصر أخيه عبد الله ، وفتحوا الباب فدخل الحضرة واستولى عليها وتم أمره ، وسجن أخاه أبا سعيد الى أن مات ». قال : « ولما استقل عبد الله بأمر المغرب كله هدأت الرعية واستقامت الاحوال ، الا انه تكدر عيشه بذهاب سبتة التى استولى عليها طاغية البرتقال خوان الاول بعد ما حاصرها أشد الحصار ، وكان ذلك على السلطان من أعظم النحوس ، وتكدر المسلمون غاية لفوات هذه المدينة العظيمة منهم . ثم ثاروا على السلطان عبد الله واعتورته رماحهم حتى فاظ ، ولما قتل تنازع الملك بعده اثنان من اخوته ، وبعد قتال شديد ولم ينتصف احد منهما من صاحبه اتفق أهل الحل والعقد على أن يولوا عبد الحق بن أبى سعيد » اه كلام منويل . وهذا السلطان عبد الله الذى زاده منويل بين أبى سعيد وعبد الحق لم يذكره صاحب « جذوة الاقتباس » ويبعد أن يكون هذا الخبر الذى ساقه منويل لا أصل له والله أعلم بحقيقة الامر .

ومن جملة حجاب السلطان أبى سعيد الرئيس أبو فارس عبد العزيز بن أحمد الملياني . قال فى «الجذوة»: «أصله من زرهون وتولى حجابة السلطان المذكور » قال : « فغدر مولاه ومخدومه ، وهتك ستره ، وخرب داره وعبث بحريمه ، وقتل أولاده واخوانه ، ورفع الاذناب ، وحط الرؤساء ، وكان فساد المغرب على يده ، وقد ذكره التاورتى فأثنى عليه . قال فى « الجذوة » : « ووجدت فى طرة ذمه وتنقيصه » والله أعلم .

ومن وزراء السلطان أبى سعيد : صالح بن حمو اليابانى ، ويحيى بن علال بن آمصمود الهسكورى ، وقد تقدم ذكرهما ، ومن كتابه : الفقيه الاديب أبو زكرياء يحيى بن أبى الحسن بن أبى دلامة ، وكان صاحب العلامة عند السلطان المذكور ، وممن شهد له أهل عصره بالتبريز فى النظم الفائق . ثم

ابنه محمد من بعده ، ومن قضاته : الفقيه أبو محمد عبد الرحيم بن ابراهيم اليزناسني وقد تقدم ذكره ، والله تعالى أعلم .

الخبر عن دولة السلطان عبد الحق بن ابي سعيد بن ابى العباس ابن ابى سالم المرينى رحمه الله

هذا السلطان هو آخر ملوك بني عبد الحق من بنى مرين ، وهو أطولهم مدة ، وأعظمهم محنة وشدة ، وهو أبو محمد عبد الحق بن أبى سعيد عثمان ابن أبى العباس أحمد بن أبى سالم ابراهيم بن أبى الحسن على بن أبى سعيد عثمان بن أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق الزناتى المرينى ، أمه علجة اصبنيولية على ما ذكره منويل ، وفى أيامه ضعف أمر بنى مرين جدا وتداعى الى الانحلال وكان التصرف للوزراء والحجاب شأن دولة أبيه من قبله على ما نذكره .

زحف البرتقال الى طنجة ورجوعهم عنها بالخيبة

قال منويل : « كان لطاغية البرتقال خمسة اخوة شجعان ، فأرادوا أن يدركوا فخرا باستيلائهم على ثغر من ثغور المغرب ، يضيفونه الى سبتة ويوسعون به ما ملكوه من أعمالها ، فركبوا قراصينهم فى ستة آلاف عسكرى ونزلوا بسبتة . ثم زحفوا الى طنجة سنة احدى وأربعين وثمانمائة وحاصروها وضيقوا على أهلها ثم عاجلهم سلطان فاس وسلطان مراكش وأرهقوهم عن فتحها وأوقعوا بهم وقبضوا على كبير عسكرهم فرناندو وجماعة من أصحابه

وعادوا بهم أسرى الى فاس ، فلما صارت عظماء البرتقال فى يد المسلمين وأسرهم جنحوا الى السلم فسالمهم المسلمون على أن يردوا لهم سبتة ويسرحوا لهم كبيرهم وأصحابه الذين معه ، فرضى البرتقال بذلك وانعقد الصلح عليه ثم كان من قدر الله أن هلك كبير البرتقال الذى وقع الشرط عليه فى سجن فاس واستمرت سبتة فى يد العدو وعد ذلك من سوء بخت المسلمين والامر لله وحده » .

وقد ذكر صاحب « المرآة » : أن البرتقال استولى على طنجة سنة احدى وأربعين وثمانمائة وهو غير صواب ، وانما كان الحصار فقط . والله تعالى أعلم .

اخبار الوزراء والحجاب وتصرفاتهم

كان من جملة وزراء السلطان عبد الحق الوزير صالح بن صالح بن حمو اليابانى ، قالوا : وهو الذى أوقع بالفقيه القاضى أبى محمد عبد الرحيم ابن ابراهيم اليزناسنى قتله ذبحا سنة أربع وثلاثين وثمانمائة . ومن وزراء السلطان المذكور الوزير أبو زكرياء يحيى بن زيان الوطاسى . قالوا : وفى سنة ست وأربعين وثمانمائة غزا الوزير المذكور الشاوية ، وكانوا قد تمردوا على الدولة وأعضل داؤهم ففل الوزير المذكور جمعهم وخرب منازلهم ثم كانت وفاته سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة ، قتله عرب انقاد على سبيل الغدر قعصا بالرماح وحمل قتيلا الى فاس فدفن بالقلة خارج باب الجيسة . وولى الوزارة بعده على بن يوسف الوطاسى ، قالوا : فكانت أيامه مواسم لديانته وصيانته وحفظه أمور الملك ورفقه بالرعية مع العدل وحسن الادارة ، ثم توفى بتامسنا خامس رمضان سنة ثلاث وستين وثمانمائة ، وحمل الى فاس فدفن بالقلة أيضا . وفى هذه السنة أو التى قبلها استولى البرتقال على قصر المجاز وهو المعروف بقصر

مصمودة والقصر الصغير وهو الآن خراب . والله أعلم .

وزارة يحيى بن يحيى الوطاسي ومقتله ومقتل الوطاسيين معه والسبب في ذلك

لما توفى الوزير على بن يوسف رحمه الله قدم للوزارة بعده أبو زكرياء يحيى بن يحيى بن عمر بن زيان الوطاسي، قالوا: فكانت ولاية هذا الوزير هي مبدأ الشر ومنشأ الفتنة ، وذلك انه لما استقل بالحجابة أخذ فى تغيير مراسم الملك وعوائد الدولة ، وزاد ونقص فى الجند ونقض جل ما أبرمه قبله الوزراء ، وعامل الرعية بالعسف ومن جملة ما نقم عليه انه عزل قاضي فاس الفقيه أبا عبد الله محمد بن محمد بن عيسى بن علال المصمودى وقدم مكانه الفقيه يعقوب التسولى(*): وكان المصمودى من الدين وتحرى المعدلة بمكان ، فلما رأى السلطان عبد الحق فعل الوزير واستحواذه على أمور الدولة وتبين له أن الوطاسيين قد التحفوا معه رداء الملك وشاركوه فى بساط العز وكادوا يغلبونه على أمره سطا بهم سطوة استأصلت جمهورهم إلا من حماه الاجل منهم فتقبض على الوزير يحيى وعلى أخويه أبى بكر وأبى شامة وعلى عمهم فارس ابن زيان وقريبهم محمد بن على بن يوسف وأتى الذبح على جميعهم واستمر البحث عن محمد الشيخ ومحمد الحلو أخوى الوزير المذكور فلم يوجدا لذهاب الشيخ فى ذلك اليوم للصيد واختفاء الحلو عند قيام الهيعة، فكان ذلك من لطف الله بهما ، واتصل بهما ما جرى على عشيرتهم وبنى أبيهم فذهبا الى منجاتهما وكان من أمرهما ما نذكره . وكانت هذه الحادثة الصماء بعد مضى سبعين يوما من وزارة يحيى بن يحيى المذكور ، وصفا للسلطان عبد الحق

(*) راجع «درة الحجال» ج ١ ص ٢٢٠ فقد ذكر ان الذى قدم للقضاء بعده هو ابو عبد الله محمد بن عبد الله المكناسى .

أمره ورأى أن قد شفا نفسه من الوطاسيين ونقى بساط حضرته من قضضهم ، وأبرأ جسم ملكه من مرضهم والله غالب على أمره .

رياسة اليهوديين هرون وشاويل وما نشأ عن استبدادهما من المحنة والفتنة

قالوا : كان السلطان عبد الحق منذ أوقع ببنى وطاس لم تسمح نفسه باعطاء منصب الوزارة لاحد ، ثم نما اليه أن العامة وكثيرا من الخاصة قد نقموا عليه ايقاعه بالوطاسيين ، وأن أذنهم صاغية الى محمد الشيخ صاحب آصيلا ، وكان قد استولى عليها بعد فراره حسبما تذكر ، وربما شافهه البعض منهم بذلك . فولى عليهم اليهوديين المذكورين تأديبا لهم وتشفيا منهم زعموا فشرع اليهوديان فى أخذ أهل فاس بالضرب والمصادرة على الاموال ، واعتز اليهود بالمدينة وتحكموا فى الاشراف والفقهاء فمن دونهم ، وكان اليهودى هرون قد ولى على شرطته رجلا يقال له : الحسين لا يألو جهدا فى العسف واستلاب الاموال ، واستمر الحال على ذلك والناس فى شدة .

وفى سنة سبع وستين وثمانمائة انتزع الاصبنيول جبل طارق من يد ابن الاحمر .

استيلاء البرتقال على طنجة

ثم فى سنة تسع وستين وثمانمائة استولى البرتقال على طنجة ، زحفوا اليها من سبتة فى ألوف من العساكر واستولوا عليها واستمرت بايديهم أكثر من مائتين وخمس سنين ثم بذلوها لطاغية النجليز سنة أربع وسبعين وألف فى سبيل المهاداة والصهر الذى انعقد بينهما كما سيأتى .

مقتل السلطان عبد الحق بن ابى سعيد والسبب في ذلك

ثم ان اليهودى عمد الى امرأة شريفة من أهل حومة البليدة فقبض عليها والبليدة حومة بفاس . قالوا : وكانت بدار الكومى قرب درب جنيارة فانحى عليها بالضرب ، ولما ألهبتها السياط جعلت تتوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم فحمى اليهودى وكاد يتميز غيظا من سماع ذكر الرسول ، وأمر بالابلاغ فى عقابها ، وسمع الناس ذلك فاعظموه ، وتمشت رجالات فاس بعضهم الى بعض ، فاجتمعوا عند خطيب القرويين الفقيه أبى فارس عبد العزيز بن موسى الورياكلى وكانت له صلابة فى الحق وجلادة عليه ، بحيث يلقى نفسه فى العظائم ولا يبالى ، وقالوا له : « ألا ترى الى ما نحن فيه من الذلة والصغار وتحكم اليهود فى المسلمين والعبث بهم حتى بلغ حالهم الى ما سمعت » فنجع كلامهم فيه وللحين أغراهم بالفتك باليهود وخلع طاعة السلطان عبد الحق وبيعة الشريف أبى عبد الله الحفيد فأجابوه الى ذلك واستدعوا الشريف المذكور فبايعوه ، والتفت عليه خاصتهم وعامتهم ، وتولى كبر ذلك أهل حومة القلقليين منهم ، ثم تقدم الورياكلى بهم الى فاس الجديد فصمدوا الى حارة اليهود فقتلوهم واستلبوهم واصطلموا نعمتهم واقتسموا أموالهم ، وكان السلطان عبد الحق يومئذ غائبا فى حركة له ببعض النواحى . قال فى «نشر المثانى » : « خرج السلطان عبد الحق بجيشه الى جهة القبائل الهبطية وترك اليهودى يقبض من أهل فاس المغارم ، فشدد عليهم حتى قبض على امرأة شريفة وأوجعها ضربا » وحكى ما تقدم ، فاتصل بعبد الحق الخبر وانفض مسرعا الى فاس واضطرب عليه أمر الجند ، ففسدت نياتهم ، وتنكرت وجوههم ، وصار فى كل منزلة تنفض عنه طائفة منهم ، فأيقن عبد الحق بالنكبة وعاين أسباب المنية . ولما قرب من فاس استشار هرون اليهودى فيما نزل به فقال اليهودى له : «لا تقدم على فاس لغليان قدر الفتنة بها وانما يكون قدومنا على مكناسة الزيتون لانها

بلدنا وبها قوادنا وشيعتنا، وحينئذ يظهر لنا ما يكون، فما استتم اليهودى كلامه حتى انتظمه بالرمح رجل من بنى مرين يقال له تيان، وعبد الحق ينظر، وقال: «ومازلنا فى تحكم اليهود واتباع رأيهم والعمل باشارتهم » ثم تعاورته الرماح من كل جانب وخر صريعا لليدين والفم » . ثم قالوا للسلطان عبد الحق «تقدم أمامنا الى فاس فليس لك اليوم اختيار فى نفسك » . فأسلم نفسه ، وانتهبت محلته ، وفيئت أمواله وحلت به الاهانة، وجاءوا به الى أن بلغوا عين القوادس خارج فاس الجديد ، فاتصل الخبر بأهل فاس وسلطانهم الحفيد فخرج الى عبد الحق وأركبه على بغل بالبردعة، وانتزع منه خاتم الملك وأدخله البلد فى يوم مشهود حضره جمع كبير من أهل المغرب وأجمعوا على ذمه وشكروا الله على أخذه ، ثم جنب الى مصرعه فضربت عنقه صبيحة يوم الجمعة السابع والعشرين من رمضان سنة تسع وستين وثمانمائة ودفن ببعض مساجد البلد الجديد ، ثم أخرج بعد سنة ونقل الى القلة فدفن بها وانقرضت بمهلكه دولة بنى عبد الحق من المغرب والبقاء لله وحده . (*)

ونقل الثقات أن الشيخ أبا العباس أحمد زروق رحمه الله كان قد ترك الصلاة خلف الفقيه أبى فارس الورياكلى لما صدر منه فى حق السلطان عبد الحق ، وكان يقول : « لا آمن الغندور على صلاتى يعيبه بذلك ، والغندور فى لسان المغاربة ذو النخوة والاباية وما أشبه ذلك ، والله يتغمدنا والمسلمين برحمته آمين .

ولنذكر ما كان فى هذه المدة من الاحداث فنقول :

فى سنة سبع وثمانمائة توفى الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن على بن صالح المكودى عالم فاس وأديبها ونحويها صاحب المقصورة وشرح الخلاصة وغير ذلك من التآليف ، قيل : هو آخر من درس كتاب سيبويه فى النحو بفاس .

وفى سنة ثمان عشرة وثمانمائة توفى الشيخ أبو عبد الله محمد بن

(*) وكانت دولته منذ تاريخ وفاة والده ابى سعيد ستا واربعين سنة

عمر بن الفتوح التلمساني ثم المكناسي ، يقال : ان سبب انتقاله من تلمسان أنه كان شابا حسن الصورة ، جميل الشارة ، فمرت به امرأة جميلة فجعل ينظر اليها من طرف خفي فقالت : « اتق الله يا ابن الفتوح يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور » فتأثر لقولها واتعظ وتاب الى الله تعالى ، وجعل من تمام توبته أن يهاجر من الارض التي قارف الذنب فيها فارتحل الى فاس فاقام بها مدة وانتفع الناس به ، ثم انتقل بعدها الى مكناسة فتوفي بها في السنة المذكورة . قالوا : وهو أول من أدخل مختصر الشيخ خليل مدينة فاس والمغرب

وفي سنة ست وأربعين وثمانمائة كان الوباء العظيم بالمغرب ، هلك فيه جمع من كبار العلماء والاعيان ، ويسمى هذا الوباء عند أهل فاس بوباء عزونة .

وفي سنة تسع وأربعين وثمانمائة في ذي القعدة منها توفي الشيخ أبو محمد عبد الله العبدوسي مفتي فاس وعالمها الكبير ومحدثها الشهير وكان من أهل الصلاح والخير والايثار .

وفي سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة في أواخر ذي القعدة منها توفي امام الجماعة بفاس الشيخ أبو عبد الله محمد بن قاسم الاندلسي الاصل المعروف بالقوري ودفن بباب الحمراء منها .

وفي سنة تسع وتسعين وثمانمائة في أواخر صفر منها توفي الشيخ العارف بالله المحقق أبو العباس أحمد البرنسي الشهير بزروق وكانت وفاته بمسراته من أعمال طرابلس . والله أعلم .



بقية اخبار بنى الاحمر واستيلاء العدو على غرناطة وسائر الاندلس منها وانقراض كلمة الاسلام منها

كانت دولة بنى الاحمر فى هذه المدة متماسكة . والفتنة بين أعياصها متشابكة ، والعدو فيما بين ذلك يخادعهم عما بايديهم ويراوغهم ويسالمهم تارة ويحاربهم الى أن كانت دولة السلطان أبى الحسن على بن السلطان سعد بن الامير على ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمد الغنى بالله ، فنازعه أخوه أبو عبد الله محمد بن سعد المدعو بالزغل ، قدم من بلاد النصارى وبويع بمالقة وبقى بها مدة ، وعظم الخطب واشتدت الفتن ، وشرق المسلمون بداء الخلاف الواقع بين هذين الاخوين ، وتكالب العدو عليهم ووجد السبيل الى تفريق كلمتهم والتمكن من فسخ عهدهم وذمتهم ، وذلك أعوام الثمانين وثمانمائة . ثم انقاد أبو عبد الله لابى الحسن فسكنت أحوال الاندلس بعض الشيء ثم خرج عليه ولده أبو عبد الله محمد بن أبى الحسن وأسره النصارى فى بعض الوقعات فراجع الناس طاعة أبى الحسن ثم نزل لاخيه أبى عبد الله الزغل عن الامر لآفة أصابته فى بصره . ثم ان العدو عمد لاسيره أبى عبد الله بن الحسن فوعده ومناه ، وأظهر له من أكاذيبه وخدعه غاية مناه ، وبعثه للتشغيب على عمه طلبا لتفريق كلمة المسلمين وعكس مرادهم وتوصلا الى ما بقى عليه من حصون المسلمين وبلادهم وطالت الفتنة بين العم وابن الاخ وكل عقد كان بين العدو وبينه انحل وانفسخ ، وخبت العامة الذين هم أتباع كل ناعق فى ذلك ووضعت ، وكان ذلك من أعظم الاسباب المعينة للعدو على التمكن من أرض الاندلس والتهامها واستئصال كلمة الاسلام منها .
ثم ان ابن الاخ استولى على غرناطة بعد خروج العم عنها الى الجهاد ففت ذلك فى عضده وعطف الى وادى آش فاعتصم بها ، وحاصر العدو مالقة فقاتله أهلها بكل ما أمكنهم حتى اذا لم يجدوا للقتال مساغا نزلوا على الامان ، فاستولى العدو عليها أواخر شعبان سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة ، ثم استولى

بعد ذلك على وادى آش وأعمالها صلحا ودخل فى طاعته صاحبها أبو عبد الله العم بعد أن استهوى العدوقواده بالاموال الجزيلة، ثم ان العدو خذله الله راسل أبا عبد الله بن أبى الحسن صاحب غرناطة وعرض عليه الدخول فى الخطة التى دخل فيها عمه من النزول له عن البلاد على أموال جزيلة يبذلها له ويكون تحت حكمه مخيرا فى أى بلاد الاندلس شاء فشاور رعيته فاتفق الناس على الامتناع والقتال ، فعند ذلك أرهف العدو حده. وجعل غرناطة وأهلها من شأنه بعد أن استولى أثناء هذه الفتن والتضريبات على حصون كثيرة لم نتعرض لذكرها ، حتى لم يبق له الا غرناطة وأعمالها ، وقد اختصرنا معظم هـذه الاخبار اذ لم تكن من موضوع الكتاب وانما ألممنا بهذه النبذة تتميما للفائدة وزيادة فى الامتاع . ولما كان اليوم الثانى والعشرون من جمدى الآخرة سنة ست وتسعين وثمانمائة خرج العدو بمحلاته الى مرج غرناطة وأفسد الزرع ودوخ الارض ، وهدم القرى وأمر ببناء موضع بالسور والحفير فاحكمه ، وكان الناس يظنون أنه عازم على الانصراف ، فاذا به قد صرف عزمه الى الحصار والاقامة وصار يضيق على غرناطة كل يوم ودام القتال سبعة أشهر ، واشتد الحصار بالمسلمين غير أن النصارى على بعد ، والطريق بين غرناطة والبشرات متصلة بالمرافق ، والطعام يأتى من ناحية جبل شلير الى أن تمكن فصل الشتاء وكلب البرد ونزل الثلج ، فانسد باب المرافق ، وانقطع الجالب وقل الطعام ، واشتد الغلاء ، وعظم البلاء واستولى العدو على أكثر الاماكن خارج البلد ، ومنع المسلمين من الحرث والسبب وضاق الحال وبان الاختلال وعظم الخطب ، وذلك أول سنة سبع وتسعين وثمانمائة . وطمع العدو فى الاستيلاء على غرناطة بسبب الجوع والغلاء دون الحرب والقتال ففر نـاس كثيرون من الجوع الى البشرات ، ثم اشتد الامر فى شهر صفر من السنة وقل الطعام وتفاقم الخطب ، فاجتمع ناس مع من يشار اليه من أهل العلم كأبى عبد الله المواق شارح «المختصر» وغيره وقالوا : « انظروا لانفسكم وتكلموا مـع سلطانكم » فاحضر السلطان أبو عبد الله بن أبى الحسن أهل دولته وأرباب مشورته وتكلموا فى هذا الامر وأن العدو يزداد مدده كل يوم ونحن لامدد لنا وكنا

نظن أنه يقلع عنا فى فصل الشتاء فخاب الظن وبنى وأسس وأقام وقرب منا فانظروا لانفسكم وأولادكم » . فاتفق الرأى على ارتكاب أخف الضررين ، وشاع أن الكلام وقع بين النصارى ورؤساء الاجناد قبل ذلك فى اسلام البلد خوفا على نفوسهم وعلى الناس ، ثم عددوا مطالب وشروطا أداروها وزادوا أشياء على ما كان فى صلح وادى آش ، منها : أن صاحب رومة يوافق على الالتزام والوفاء بالشرط اذا مكنوه من حمراء غرناطة والمعاقل والحصون ويحلف على عادة النصارى فى العهود ، وتكلم الناس فى ذلك وذكروا أن رؤساء أجناد المسلمين لما خرجوا للكلام فى ذلك امتن عليهم النصارى بمال جزيل وذخائر ، ثم عقدت بينهم الوثائق على شروط قرئت على أهل غرناطة فانقادوا اليها ووافقوا عليها وكتبوا البيعة لصاحب قشتالة فقبلها منهم، ونزل سلطان غرناطة أبو عبد الله عن الحمراء ولا حول ولا قوة الا بالله .

وفى ثانى ربيع الاول من السنة ، أعنى سنة سبع وتسعين وثمانمائة ، استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد ان استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الاعيان رهنا خوف الغدر ، وكانت الشروط سبعة وستين شرطا، منها: تأمين الصغير والكبير فى النفس والاهل والمال ، وابقاء الناس فى أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ، ومنها : اقامة شريعتهم على ما كانت ، ولايحكم على أحد منهم الا بشريعته ، وأن تبقى المساجد كما كانت والاوقاف كذلك ، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحدا ، وأن لا يولى على المسلمين نصرانى أو يهودى ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم ، وأن يفتك جميع من أسر فى غرناطة حيث كانوا وخصوصا أعيانا نص عليهم ، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا لغيره ، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه ، ومن أراد الجواز الى العدوة لا يمنع ويجوزون فى مدة عينت فى مراكب السلطان لا يلزمهم الا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم والكراء ، وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره ، وأن لا يجبر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم ، وان من تنصر من المسلمين يوقف أياما حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى فان أبى الرجوع

الى الاسلام تمادى على ما أراد ، ولا يعاتب على من قتل نصرانيا أيام الحرب ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة ، ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى ولا يسفر لجهة من الجهات ولا يزيدون على المغارم المعتادة ، وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة ، ولا يطلع نصرانى للسور ولا يتطلع على دور المسلمين ، ولا يدخل مسجدا من مساجدهم ، ويسير المسلم فى بلاد النصارى آمنا فى نفسه وماله ، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن ، ولايمنع مؤذن ولا صائم ولا مصل ولاغيره من أمور دينه ومن ضحك منهم يعاقب ، ويتركون من المغارم سنين معلومة . وان يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده وأمثال هذا مما تركنا ذكره .

وبعد انبرام ذلك ودخول النصارى للحمراء والمدينة جعلوا قائـــدا بالحمراء وحكاماً ومقدمين بالبلد ، ولما علم بذلك أهل البشرات دخلوا فى هذا الصلح وشملهم حكمه على هذا الوجه ، ثم أمر العدو ببناء ما يحتاج اليه في الحمراء وتحصينها وتجديد بناء قصورها واصلاح سورها ، وصار الطاغية يختلف الى الحمراء نهارا ويبيت بمحلته ليلا الى أن اطمأن من خوف الغدر فدخل المدينة وتطوف بها وأحاط خبرا بما يرومه منها ، ثم أمر سلطـــان المسلمين ان ينتقل لسكنى البشرات وانها تكون له في سكناه بأنـــدرش ، فانصرف اليها وأخرج الاجناد منها، ثم احتال عدو الله فى نفيه لبر العدوة وأظهر أن السلطان المذكور طلب منه ذلك ثم كتب لصاحب المرية انه ساعة وصول كتابى هذا لاسبيل لاحد أن يمنع مولاى أبا عبد الله من السفر حيث أراد من من بر العدوة ، ومن وقف على هذا الكتاب فليصرفه وليقف معه وفاء بما عهد له ، فانصرف السلطان أبو عبد الله فى الحين بنص هذا الكتاب وركب البحر فنزل بمليلة واستوطن فاسا وكان قبل ذلك قد طلب الجواز لناحيـــة مراكش فلم يسعف بذلك ، وحين جوازه لبر العدوة لقى شدة وغلاء وبلاء . ثم ان النصارى نكثوا العهد ، ونقضوا الشروط عروة عروة الى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة أربع وتسعمائة بعد أمور وأسباب أعظمها عليهم انهم قالوا: ان القسيسين كتبوا على جميع من أسلم من النصارى أن يرجع

مهرا لدينه ، ففعلوا ذلك وتكلم الناس ولا جهد لهم ولا قوة . ثم تعدوا ذلك الى أمر آخر وهو أن يقولوا للرجل المسلم ان جدك كان نصرانيا فأسلم فنرجع أنت نصرانيا . ولما تفاحش هذا الامر قام أهل البيازين على الحكام فقتلوهم وهذا كان السبب الاعظم فى التنصر ، قالوا: لان الحكم خرج من عند السلطان أن من قام على الحاكم فليس الا الموت الا أن يتنصر فينجو من الموت وبالجملة فانهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة ، وامتنع قوم من التنصر واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك ، وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق واندرش وغيرهما فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبيا الا ما كان من جبل بللنقة فان الله تعالى أعانهم على عدوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة وأخرجوا على الامان الى فاس بعيالهم وما خف من أموالهم دون الذخائر .

ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله فى خفية ويصلى فشدد النصارى فى البحث عنهم حتى انهم أحرقوا كثيرا منهم بسبب ذلك ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة فضلا عن غيرها من الحديد ، وقاموا فى بعض الجبال على النصارى مرارا فلم يقيض الله تعالى لهم ناصرا الى أن كان اخراج النصارى اياهم جملة أعوام سبعة عشر وألف بعد أن ساكنوهم بغرناطة وأعمالها نحوا من مائة وعشرين سنة كانوا فيها تحت ذمة النصارى كما رأيت والامر لله وحده . ولما أجلاهم العدو عن جزيرة الاندلس خرجت ألوف منهم بفاس وألوف أخر بتلمسان ووهران وخرج جمهورهم بتونس فتسلط عليهم فى الطرقات الاعراب ومن لا يخشى الله تعالى من الاوباش ونهبوا أموالهم وهذا ببلاد تلمسان وفاس ونجا القليل من هذه المضرة . وأما الذين خرجوا بنواحى تونس فسلم أكثرهم وكذلك بتطاوين وسلا وبيجة الجزائر ولما استخدم سلطان المغرب الاقصى ، وهو المنصور السعدى ، منهم عسكرا جرارا وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد فى البحر ما هو مشهور ، وحصنوا قلعة سلا . وهى رباط الفتح ، وبنوا بها القصور والحمامات والدور .

قال أبو العباس المقرى فى « نفح الطيب » : وهم الان – يعنى فى حدود

الثلاثين وألف ـ بهذا الحال ، ووصل جماعة منهم الى القسطنطينية العظمى والى مصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام وانقضى أمر الاندلس وعـــادت نصرانية كما كانت أول مرة ، والله وارث الارض ومن عليها وهو خيـــر الوارثين .

وفى السنة التى استولى الاصبنيول على غرناطة انكشفـــت لهم أرض ماركان التى كانت مجهولة قبل هذا التاريخ لسائر الامم . وذلك أن الحكماء الاقدمين من اليونان وغيرهم أجمعوا على أن شكل الارض كرة وان الماء قد غمر أحد جانبيها كله بحيث صارت الارض فيه كأنها بيضة مغرقة فى طست ماء قد رسب فيه أكثرها وبرز أقلها ، وأجمعوا على أن هذا البارز منها هو المسكون ببنى آدم وغيرهم من الحيوانات وهو المقسم الى سبعة أقسام تسمى الاقاليم ولم يهتدوا الى أن الجانب الآخر منكشف عنه الماءولا انه مسكون كهذاالجانب بل جزموا بانه ماء صرف يسمى البحر المحيط ، واستمر هذا الاعتقاد عندهم ونقله الخلف عن السلف ووضعوا فيه التآليف العديدة الى أن كانت سنة سبع وتسعين وثمانمائة وهى السنة التى استولى فيها الاصبنيول على غرناطة وسائر الاندلس، فاتفق أن ظهرفى تلكالمدة رجلمن فر نج جنوة اسمه كلنب بضمالكاف واللام كانت حرفته الملاحة والسفر فى البحر وكان بعيد الهمة ، مولعا بالشهرة مغرى بالذكر وحسن الصيت ، فخطر بباله أن جانب الارض الذى أغفـل الحكماء الاولون ذكره وزعموا انه بحر صرف رُبما يكونمسكونا كهذا الجانب

وكان جنس البرتقال فى هذه المدة قد كثرت أسفارهم فى البحر وملكواعدة محال من جزائره الخالدات ، فحصل لكلنب الجنويزى بعض غيرة ونفاسة منهم وأراد أن يأتى بأعظم مما فعلوا فعزم على التلجيج فى البحر المحيط والابعاد فيه عسى أن يظفر بمراده ، فتطارح على ملك البرتقال واسمه يومئذ يوحنا الثانى فى أن يعينه على ما هو بصدده ويمده بما يكون سببا فى نيل مقصده ، فلم يلتفت الى قوله ولا عرج على رأيه ومن قبل ما كان أهل جنوة يحمقونـــه وينسبونه الى التهور بمثل هذه الآراء ، فلما لم يجد عند ملك البرتقال مراده تطارح على ملكة الاصبنيول ، وهى يومئذ ايسابيلا الشهيرة الذكر عندهـــم ،

فاسعفته وهيأت له ثلاث سفائن وشحنتها بالرجال والسلاح والزاد والمال ودفعت ذلك اليه ، فسافر بها كلنب فى البحر المحيط على سمت المغرب حتى أرسى ببعض الجزائر الخالدات فأراح بها أياما ثم سافر على السمت المذكور ملججا مدة من شهرين ، ولما طال السفر على أصحابه الذين معه أرادوا قتله، وبينما هم فى ذلك ظهرت له أرض ماركان فسار حتى أرسى باجفانه على ساحلها فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة سنة سبع وتسعين وثمانمائة المذكورة ، فعثر منها على أرض واسعة ذات أقطار ونواحى وجبال وأنهار تفوت الحصر ، حتى قيل : انها تساوى نصف هذا المسكون من الارض أو تزيد ، واذا فيها خلق كثير من بنى آدم كهذه الا أنهم لم يفقهوا قوله ولا فقه قولهم . فعاد كلنب الى ملكة الاصبنيول بعد أن بنى هنالك خصنا وترك به بعض الجند وساق من تلك الارض بعض الغرائب من حيوان وغيره ، اثباتا لمدعاه فلما قدم على الملكة بعد مغيبه سبعة أشهر وأحد عشر يوما أعظمت قدره ، ونوهت باسمه ، وسرت بما أتى به من ذلك كله ، وعدت ذلك من سعادتها الى ما تسنى لها من الظفر بجزيرة الاندلس والاستيلاء عليها ، وتبين للفرنج حينئذ أن الارض معمورة من كلا الجانبين لا من جانب واحد كما اعتقده الاقدمون ، فحينئذ تسارعت أجناسهم الى أرض ماركان واقستموها واعتنوا بعمرانها وسموها: الدنيا الجديدة ، فكانت من أعظم الاسباب فى انتعاشهم وتقويتهم وضخامة دولهم واتساع خطط ممالكهم ، والامور كلها بيد الله .

ومن جملة ما كان مفقودا بأرض ماركان نوع الخيل وكذا غيرها من الحيوانات الاهلية . ولما رأوا الآدمى راكبا على الفرس مسرجا ظنوه قطعة واحدة وأن الفارس وفرسه حيوان واحد خلق على تلك الكيفية الى غير ذلك وأخبار أرض ماركان وكيفية العثور عليها ثم التردد اليها واعتمارها بعد ذلك طويلة وملخصها ما ذكرناه ، والله تعالى الموفق بمنه .

وهذا آخر النصف الاول من كتاب الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ، قد شرعنا فى املائه بمنتصف رجب الفرد الحرام من سنة سبع وتسعين ومائتين والالف وفرغنا منه فى منتصف

لذى الحجة الحرام فى السنة المذكورة . ونشرع بعون الله تعالى فى الجزء الثانى منه مفتتحا بما يكون كالتوطئة لدولة بنى وطاس من أخبار البرتقال على الجملة ، وعلى الله تعالى الكمال بمنه وفضله » (*)

اخبار البرتقال بالمغرب الاقصى على الجملة

اعلم أن هذا المغرب الاقصى حرسه الله وكلأه بعين حفظه ، لم يزل بجميع ثغوره وسواحله وأقطاره منذ الفتح الاسلامى الى المائة التاسعة محفوظا الجوانب من طروق أمم الفرنج وغيرهم من أعداء الدين ، محفوف الاكناف بالحامية من جنود المسلمين ، مرهوبة شوكة ملوكه عند أمم النصرانية جيلا بعد جيل، وأمة بعد أمة، ودولة بعد دولة. لم تكن الفرنج تحدث نفسها بغزو شىء من بلاده، أو طرق ثغر من ثغوره، أو الاستيلاء على شىء من سواحله، ولم يكن أهله أيضا يتوقعون ذلك منهم ولا يخشونه ، بل هم الذين كانوا يغزون الفرنج فى عقر ديارهم وأعز بلادهم ، ويحامون عن بلاد الاندلس وسواحل افريقية وغيرها متى هاج أهلها هيج من ذلك حسبما تقدمت الاخبار المفصحة عن ذلك ، ولم يبلغنا أن جنسا من أجناس الفرنج فيما قبل المائة التاسعة غزا شيئا من أطراف المغرب الاقصى ، أو ثغرا من ثغوره بقصد الاستيلاء والتملك ، الا ما كان من مدينة سلا التى دخلها الاصبنيول غدرا أيام الفتنة بين اليعقوبين ثم خرجوا عنها لمدة يسيرة حسبما مر، والا ما كان من محاصرة أهل جنوة لسبتة ثم الاقلاع عنها كذلك ، ونحو هذا مما لا يعتبر ، فلما دخلت المائة التاسعة ومضى صدرها وتداعت دول المغرب من بنى أبى حفص بافريقية ، وبنى زيان بالمغرب الاوسط ، وبنى مرين بالمغرب الاقصى ، وبنى الاحمر بالاندلس ، وأشرفت على الهرم وحدثت الفتن بين المسلمين ودامت فيهم واشتغلوا بانفسهم دون الالتفات الى جهاد العدو ومطالبته فى أرضه وبلاده على ما كان لهم من العادة قبل ذلك، وافق ذلك ابتداء ظهور الجلالقة وهم الاصبنيول

(*) ما بين قوسين هو زيادة بخط المؤلف فى الاصل بعد الطبعة الاولى

والبرتقال ، وهم البرطقيز ، بجزيرة الاندلس واستفحال أمرهم ، فكثرت أسفار البرتقال فى البحر المحيط ودام تقلبهم فيه ومرنوا عليه حتى حصلوا على عـدة جزائر منه ، واكتشفوا بعض الرؤوس الساحلية من أرض السودان وغيرها، ثم شرهوا لتملك سواحل المغرب الاقصى ، فهجموا عليها وجالدوا أهلها دونها حتى تمكنوا منها ونشبوا فيها ، فقويت شوكتهم وعظم ضررهم على الاســـلام وطمحت نفوسهم للاستيلاء على ما وراء ذلك حسبما تقف عليه مبينا فى مواضعه ان شاء الله .

فاستولوا فى سنة ثمان عشرة وثمانمائة على مدينة سبتة بعد محاصرتهم لها ست سنين على ما فى بعض تواريخ الافرنج ، ثم فى سنة اثنتين وستيـــن وثمانمائة استولوا على قصر المجاز ، ثم استولوا فى سنة تسع وستين وثمانمائة على طنجة ، ثم فى حدود سنة ست وسبعين وثمانمائة ملكوا آصيلا ، وفى هذا التاريخ نفسه أو قبله بيسير استولوا على مدينة آنفا وبعض سواحل السوس ، ثم فى حدود سنة سبع وتسعمائة نزلوا بأرض الجديدة فيما بين آزمور وتيط وبنوا بها حصن البريجة وطال مقامهم بها ، ثم فى سنة عشر وتسعمائة استولوا على مدينة العرائش ، ثم بعد ذلك بيسير فى حدود العشر وتسعمائة على مــا تقتضيه تواريخ الفرنج ملكوا حصن آكادير وما اتصل به من سواحل السوس الاقصى ، ثم ملكوا فى حدود اثنتى عشرة وتسعمائة رباط آسفى ثم عطفوا على ثغـر آزمور فاستولـوا عليـه فـى سنـة أربـع عشرة وتسعمائة . ثم المعمورة وهـى ، المهديـة ، ملكوهـا أيضـا فـى حـدود سنـة عشريـن وتسعمائة وفى هذا التاريخ نفسه رجعوا الى مدينة آنفـا بعد هدمها فبنوهــا وسكنوها ، وبالجملة فلم يبق من ثغور المغرب الاقصى بيد المسلمين الا القليل مثل سلا ورباط الفتح وفجىء المسلمون من هذا البرتقال بالامر العظيم ، ودهوا منه بالخطب الجسيم، واستحوذ عدو الله على بلاد الهبط وضايقهم بها حتى انحازوا الى الامصار المنزوية عن الاطراف والقرى النائية عن السواحل ، وكان ذلك كله فيما بين انقراض دولة بنى وطاس وظهور دولة الشرفاء السعديين، ولقد ذكر فى « مرآة المحاسن » أن قصر كتامة كان فى صدر المائة العاشرة مقصدا

للتجار وسوقا تجلب اليه بضائع العدوتين وسلعها ، قال : « اذ كان القصـــر المذكور ثغرا بين بلاد المسلمين وبين بلاد النصارى تحط به رحال تجـــار المسلمين من آفاق المغرب وتجار الحربيين من آصيلا وطنجة وقصر المجاز وسبتة ولانه كان محل عناية سلطان المغرب اذ ذاك محمد الشيخ بن أبى زكرياء الوطاسى ، فان القصر قاعدة بلاد الهبط التى كانت موقد شرارة السلطـــان المذكور ، ومشب ناره ، وموشج عصبيته مع مجاورته لبلاد الحرب ، فكـــان نظره مصروفا اليه واختصاصه موقوفا عليه وتقبل بنوه من بعده مذهبه فيه» اه كلامه فهذا يدلك على ماكان عليه العدو خذ له الله من المضايقة للمسلمين فى ثغورهم وبلادهم ولله الامر من قبل ومن بعد .

ولما نزل باهل المغرب الاقصى ما نزل من غلبة عدو الدين واستيلائه على ثغور المسلمين ، تباروا فى جهاده وقتاله ، وأعملوا الخيل والرجل فى مقارعته ونزاله ، وتوفرت دواعى الخاصة منهم والعامة على ذلك ، وصرفوا وجـــوه العزم لتحصيل الثواب فيما هنالك ، فكم من رئيس قوم قام لنصرة الدين غيرة واحتسابا ، وكم من ولى عصر أو عالم مصر باع نفسه من الله ورأى ذلك صوابا حتى لقد استشهد منهم أقوام وأسر آخرون ، وبلغ الله تعالى جميعهم مـــن الثواب ما يرجون ، فمن استشهد منهم فى سبيل الله سيدى عيسى بن الحسن المصباحى دفين الدعداعة بأرض البروزى من بلاد طليق ، وأبو الحسن على ابن عثمان الشاوى من أصحاب الشيخ أبى محمد الغزوانى ، وأبو الفضل فرج الاندلسى ثم المكناسى ، وأبو عبد الله محمد القصرى المعروف بسقين قتله النصارى عند ضريح الشيخ أبى سلهام ، وكان قد قصده للزيارة ففتكوا به هنالك ، وكل هؤلاء معدود فى أولياء الله تعالى ، وممن أسر منهم ثم خلصه الله الشيخ أبو محمد عبد الله بن ساسى دفين تانسيفت من أحواز مراكش ، والشيخ أبو محمد عبد الله الكوش دفين جبل العرض من أحواز فـــاس ، ووالد صاحب «دوحة الناشر» وهو أبو الحسن على بن مصباح الحسنى عرف بابن عسكر ، والشيخ العلامة أبو العباس أحمد بن القاضى المكناسى أحد قضاة سلا وهو صاحب «جذوة الاقتباس» و «المنتقى المقصور» وغيرهما من التآليف

الحسان أسر وهو ذاهب الى الحج ، وأبو عبد الله محمد بن أبى الفضل التونسى المعروف بخروف نزيل فاس وشيخ الجماعة بها ، هؤلاء كلهم أصابه الاسر ثم خلصه الله بعد حين ، وغير هؤلاء ممن لم يحضرنا ذكرهم ، أجزل الله ثوابهم ويسر بمنه حسابهم ، ولقد ألف الناس فى ذلك العصر التآليف فى الحض على الجهاد والترغيب فيه ، وقال الخطباء والوعاظ فى ذلك فأكثروا ، ونظم الشعراء والادباء فيه ونثروا ، فممن ألف فى ذلك الباب فأفاد : الشيخ المتفنن البارع الصوفى أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن يجبش التازى، قال فى «الدوحة» : «وقفت له على تأليف ألفه فى الحض على الجهاد فى سبيل الله فكان مما ينبغى أن يتناول باليدين ، ويكتب دون المداد باللجين، أودعه نظما ونثرا » وممن نظم فى ذلك فأجاد، الشيخ الصالح المتصوف المجاهد أبو عبد الله محمد بن يحيى البهلولى ، قال فى « الدوحة » : كان هذا الشيخ ممن لازم باب الجهاد وفتح له فيه ، وله فى ذلك أشعار وقصائد زجليات وغيرها » وكان معاصرا للسلطان أبى عبد الله محمد بن محمد الشيخ الوطاسى المعروف بالبرتقالى ، فكان اذا جاءه زائرا حضه على الغزو فيساعده على ما أراد من ذلك ، ولما توفى السلطان المذكور ، ودالت الدولة لولده السلطان أحمد ، وغص بالشرفاء القائمين عليه ببلاد السوس ، عقد الهدنة مع النصارى المجاورين له ببلاد الهبط وصاحبهم سلطان البرتقال ، فبلغ ذلك الشيخ أبا عبد الله المذكور فآلى على نفسه أن لا يلقى السلطان المذكور ولا يمشى اليه ولا يقبل منه ما كان عينه له والده من جزية أهل الذمة بفاس لقوته وضرورياته ، فمكث على ذلك الى أن حضرته الوفاة ، وكان فى النزع وأصحابه دائرون به فقال له بعضهم : «ياسيدى أخبرك أن السلطان أمر بالغزو ونادى به وحض الناس عليه ، والمسلمون فى شره لذلك وفرح» . ففتح الشيخ عينيه وتهلل وجهه فرحا وحمد الله وأثنى عليه ،ففاضت نفسه وهو مسرور بذلك ، ولهذا الشيخ زجليات ومقطعات حسان فى الحض على الجهاد ، منها اللامية المشهورة التى خاطب بها السلطان أبا عبد الله المذكور ومطلعها :

قل للامير محمد   يا طلعة الهلال

لويلة في السواحل من أفضل الليال

ومنها القصيدة التي مطلعها :

ظهر الرمل مرادي والعسكر يا كرام
نفسي على الجهاد سبلت والسلام

ومنها القصيدة التي أولها :

قم للجهاد رعاك الله منتهجا نهج الرشاد الى الاقوام لو فهموا
من بعد اندلس ما زلت محتدما لوكان يمكنني في الليل احتزم

الى غير ذلك مما يطول ذكره قال صاحب «الدوحة» : « حدثني الفقيه العدل أبو العباس أحمد الدغموري القصري ، قال : كان الشيخ أبو عبد الله يقول : « ما غزونا غزوة قط الا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ، ويخبرني بجميع ما يتفق لي ولاصحابي في تلك الغزوة » ، وله رضي الله عنه في شأن الجهادوالرجوليةحكاية ظريفة وهي انه غزا مرة غزوة الى الثغورالهبطية ثم قدم منها مع أصحابه فوجد زوجته فلانة بنت الشيخ أبي زكرياء يحيى بن بكار قد توفيت وصلى الناس عليها بجامع القرويين ، وامامهم الشيخ غازي بن الشيخ أبي عبد الله محمد بن غازي الامام المشهور ، فوصل الشيخ أبو عبد الله ووجد جنازتها على شفير القبر والناس يحاولون دفنها فقال لهم : مهلا ثم تقدم وأعاد الصلاة عليها مع أصحابه الذين قدموا معه فبادر الناس اليه بالانكار في تكرير الصلاة على الجنازة بالجماعة مرتين ، فقال لهم على البديهة: « صلاتكم التي صليتم عليها فاسدة ، لكونها بغير امام » ، فقالوا له : «كيف ذلك ياسيدي ؟» قال : « لان من شرط الامام الذكورية وهي مفقودة في صاحبكم لان الذي لم يتقلد سيفا في سبيل الله قط ولم يضرب به ولا عرف الحرب كما كان نبينا صلى الله عليه وسلم ولم يتعبد بالسيرة النبوية فكيف يعد اماما ذكرا بل امامكم والله من جملة النساء » اه . وحكى أيضا في ترجمة الشيخ أبي محمد عبد الله الورياكلي الذي قال له العلامة ابن مرزوق وقد عزم على الرحلة الى بلاد المشرق في طلب العلم: «ليس أمامك أحد أعلم منك» ، قال: «فرجع من هنالك فوجد النصارى قد تغلبوا على طنجة وآصيلا ، فلازم الثغور الهبطية

لاجل الرباط والجهاد في سبيل الله ، وبث العلم ونشره» ، قال : « وكان من عادته أن يشتغل بالتدريس في فصلي الشتاء والربيع ، ويخرج في الصيف والخريف فيربط في ثغور القبائل الهبطية» الى آخر كلامه ، وأمثال هذا كثير ذكرنا منه هذه النبذة اليسيرة لتقف بها على أحوال القوم وما كانوا عليه من الرغبة في الجهاد والمثابرة عليه قدس الله أرواحهم وجعل في دار النعيم غدوهم ورواحهم .

وقد آن أن نشرع في الاخبار عن دولة بني وطاس بعد أن نذكر دولة الشريف العمراني الذي بايعه أهل فاس يوم مقتل السلطان عبد الحق بن أبي سعد رحمه الله .

الخبر عن دولة الشريف ابي عبد الله الحفيد وأوليته

هذا الشريف هو أبو عبد الله محمد بن علي الادريسي الجوطي العمراني من بيت بني عمران فرقة من أدارسة فاس ، وهم واسطة عقد البيت الادريسي ، وأوضحهم نسبا ، وأعلاهم حسبا ، قال ابن خلدون : « ليس في المغرب فيما نعلمه من أهل البيت الكريم من يبلغ في صراحة نسبه ووضوحه مبلغ أعقاب ادريس رضي الله عنه » قال : « وكبراؤهم لهذا العهد بنو عمران بفاس من ولد يحيى الجوطي بن محمد بن يحيى العدام بن القاسم بن ادريس ابن ادريس ، وهم نقباء أهل البيت هناك والساكنون ببيت جدهم ادريس ولهم السيادة على أهل المغرب كافة » اه والجوطي قال في «المرآة» : «نسبة الى جوطة بجيم مضموم وواو مد وطاء مفتوحة وهاء تأنيث وهي قرية عظيمة على نهر سبو في العدوة الجنوبية خربت ولم يبق منها الا آثار ، ولها مسيل شنبوي يعرف بمخروط جوطة ، نزلها السيد يحيى فنسب اليها وقبره هنالك معروف » اه .

بيعة السلطان ابى عبد الله الحفيد والسبب فيها

كان بنو مرين أيام ولايتهم على المغرب يعظمون هؤلاء الاشراف الادارسة ويوجبون حقهم ويتقربون الى الله تعالى برفع منزلتهم وجبر خواطرهم لما فاتهم من رتبة الخلافة التى كانت تكون لهم بطريق الاستحقاق الشرعى ، فكان بنو مرين لما جبلوا عليه من الجنوح الى مراسم الدين وانتحالها يرون فى أنفسهم كأنهم متغلبون مع وجود هؤلاء الاشراف . فلذا كانوا يخضعون لهم ، ويتأدبون معهم ما أمكن ، ولقد حكى أبو عبد الله بن الازرق : أن الشيخ الكبير أبا عبد الله المقرى كان يحضر مجلس السلطان أبا عنان لبث العلم وكان نقيب الشرفاء بفاس اذا دخل مجلس السلطان يقوم له السلطان وجميع من فى المجلس اجلالا له ، الا الشيخ المقرى فانه كان لا يقوم له ، فجرت بين الشريف والفقيه المذكور معاتبة ومراجعة فى حكاية مشهورة ، تركناها لعدم تعلق الغرض بها (*) اذ الغرض هو الوقوف على ما كان عليه القوم من الجلة والتعظيم لاهل هذا البيت الكريم ، فلما اضطربت أحوال الدولة المرينية بفاس واجتمع رؤساء فاس الى الفقيه أبى فارس الورياكلى فى شأن اليهوديين اللذين كانا يحتكمان فى المدينة ويعنسفان أهلها ، أجمع رأيهم على مبايعة هذا الشريف الحفيد ، وكان يومئذ يلى نقابة الاشراف بفاس ، فاستدعوه فحضر وبايعوه فى العشر الاواخر من رمضان سنة تسع وستين وثمانمائة ، وتم أمره وكان من قتله للسلطان عبد الحق ما تقدم ذكره والله أعلم.



(*) راجع ذلك فى «نيل الابتهاج بتطريز الديباج» للشيخ أحمد بابا ص ٢٥٤ طبع فاس و« نفح الطيب » للمقرى - ج ٣ - صفحة ١٤٨

فتنة الشـاوية ووصولهم الى بـلاد الغرب

قد قدمنا ما كان من أمر الشاوية وفتنتهم فى أيام السلطان عبد الحق . ولما كانت أيام الحفيد هذا تزايد ضررهم واستطال شررهم فزحفوا الى بـــلاد الغرب من أحواز مكناسة وفاس ، وعاثوا وأفسدوا ، ولما تكلم أبو عبد الله محمد العربى الفاسى فى «مرآة المحاسن» على الشيخ عبد الوارث اليالصوتى وانه أخذ عن جماعة منهم: أبو النجاء سالم الروداني الشاوى ، والشيخ أبو عبد الله الصغير السهلى ، والشيخ أبو محمد الغزوانى ، قال: «وكان الشيخ أبو النجاء أولا يقرأ بالمدرسة العنانية ، فلما نزل الشاوية الغرب ، خرج من فاس خائفا يترقب ، وذلك فى أيام الحفيد» اه ، وبلاد الغرب تطلق فى عرف أهله على خصوص بسيط ازغار وما اتصل به الى ساحل البحر والله أعلم .

استيــلاء البرتقال على مدينة آنفى وآصيــلا

برأيت فى بعض تواريخ الفرنج أن استيلاء البرتقال على آنفى كان فى حدود أربع وسبعين وثمانمائة ، وانهم هدموها وبقيت كذلك مدة تزيد على أربعين سنة ، ثم شرعوا فى تحصينها والبناء بها ، ولم يزالوا مقيمين بها الى حدود أربع وخمسين ومائة وألف وفى سنة ست وسبعين وثمانمائة استولوا على آصيلا ، وظفروا فيها ببيت مال الوطاسى ، وأسروا ولده محمدا المدعـــو بالبرتقالى ، وابنته وزوجتيه وجماعة من الاعيان ، وكان الخطب عظيما ، وبقى ولد الوطاسى عند البرتقال سبع سنين ، ثم افتكه والده بعد ، وكان يوم أسر صبيا صغيرا ، وأما مدينة فضالة فلم يقع عليها استيلاء وانما كانت بها كمبانية خمسة نفر من تجار مادريد قاعدة قشتالة ، نزلوها بقصد التجارة باذن سلطان

الوقت(*) وكانت سلعهم توسق وتوضع من مرساها ، وبنوابها البناء الموجود اليوم والله تعالى أعلم .

خلع السلطان ابى عبد الله الحفيد وانقراض امره

قال في «الجذوة» : «لما قامت عامة فاس على السلطان عبد الحق وأقاموا هذا النقيب من أهل مدينة فاس اماما استمر بها ، وابنه وزير له ، الى سنة خمس وسبعين وثمانمائة ، فعزل عن الامامة وكان الذى خلعه أبا الحجاج يوسف ابن منصور بن زيان الوطاسى ، وكان ذلك سبب ذهاب الشريف المذكور الى تونس لمدة يسيرة من خلعه ، وبقيت حضرة فاس الجديد فى يد أخت أبى الحجاج المذكور وهى الزهراء المدعوة بزهور ، مع قائده السجيرى ، الى أن تولى الامر أبو عبد الله محمد الشيخ الوطاسى » والله غالب على أمره .



(*) مولاى سليمان اه من خط مؤلفه

الخبر عن دولة بنى وطاس

وذكر نسبهم وأوليتهم

اعلم ان بنى وطاس فرقة من بنى مرين غير انهم ليسوا من بنى عبد الحق ، ولما دخل بنو مرين المغرب وافتسموا أعماله حسبما تقدم ، كان لبنى وطاس هؤلاء بلاد الريف فكانت ضواحيها لنزولهم وأمصارها ورعاياها لجبايتهم ، وكان بنو الوزير منهم يسمون الى الرياسة ويرومون الخروج على بنى عبد الحق، وقد تكرر ذلك منهم حسبما مر، ثم أذعنوا الى الطاعة وراضوا أنفسهم على الخدمة ، فاستعملهم بنو عبد الحق فى وجوه الولايات والاعمال واستظهروا بهم على أمور دولتهم ، فحسن أثرهم لديها وتعدد الوزراء منهم فيها ، وذكر ابن خلدون : « أن بنى الوزير هؤلاء يرون أن نسبهم دخيل فى بنى مرين ، وانهم من أعقاب يوسف بن تاشفين اللمتونى لحقوا بالبدو ونزلوا على بنى وطاس ووشجت فيهم عروقهم حتى لبسوا جلدتهم ، ولم يزل السرو متربعا بين أعينهم لذلك والرياسة شامخة بانوفهم » اه ولما كانت دولة السلطان أبى عنان واستولى على بجاية ، عقد عليها لعمر بن على الوطاسى من بنى الوزير هؤلاء فثار عليه أهلها واستلحموه فى خبر مر التنبيه عليه .

ثم لما كانت الدولة الاولى للسلطان أبى العباس بن أبى سالم ، وخلص ملك مراكش وأعمالها الى ابن عمه الامير عبد الرحمن بن أبى يفلوسن ، كان من جملة من تحيز اليه وصار فى جملته ، زيان بن عمر بن على المذكور، فكانت له فى دولته الوجاهة الكبيرة ، والمنزلة الرفيعة ، ثم لما فسد ما بين السلطان أبى العباس والامير عبد الرحمن كان زيان بن عمر فى جملة النازعين الى السلطان أبى العباس ، فاتصل به وصار فى جملته الى أن حاصر

السلطان أبو العباس قصبة مراكش ، وبها يومئذ الامير عبد الرحمن ، فابلى زيان بن عمر فى ذلك الحصار وكان أحد الذين باشروا قتل ولدى الامير عبد الرحمن .

قال ابن خلدون : « وطالما كان زيان هذا يمترى ثدى نعمتهم ويجر ذيله خيلاء فى جاههم ، فذهب مثلا فى كفران النعمة وسوء الجزاء ، والله لا يظلم مثقال ذرة » . ثم جاء بعده ابنه أبو زكرياء يحيى بن زيان فولى الوزارة للسلطان عبد الحق كما مر ، ثم بعده ابنه يحيى أيضا ، وهو الذي قتله السلطان عبد الحق فى جماعة من عشيرته ، وفر أخوه أبو عبد الله محمد الشيخ الى الصحراء وبقى متنقلا فى البلاد الى أن كان من أمره ما نذكره .

الخبر عن دولة السلطان أبى عبد الله محمد الشيخ بن أبى زكرياء الوطاسى رحمه الله

قد تقدم لنا ما كان من ايقاع السلطان عبد الحق ببنى وطاس وافلات محمد الشيخ ومحمد الحلو من النكبة ، وان الشيخ كان قد خرج للصيد فاتصل به الخبر فذهب على وجهه لا يلوى على شىء ، وان الحلو اختفى حتى اذاسكنت الهيعة تسلل ولحق بالشيخ فسارا الى جهة الصحراء وجعلا يترددان فيما بينها وبين البلاد الهبطية حتى ملكا آصيلا ، وذلك قبل استيلاء البرتقال عليها . ولما ملك الشيخ آصيلا واستفحل أمره بها تشوفت اليه الاعيان من أهل فاس والرؤساء من أهل دولة السلطان عبد الحق وصاروا يكاتبونه ويقدمون اليه الوسائل سرا وربما دعوه الى القدوم على أن يبذلوا له من الطاعة والنصرة ما شاء فاستمر الحال على ذلك الى أن قتل عبد الحق وبويع الحفيد ، فحينئذ أرهف الشيخ حده ، واستفرغ فى المطالبة جهده ، الى أن استولى على الحضرة وصفا له ملك المغرب

قال فى « المرآة» : « لما بايع أهل فاس أبا عبد الله الحفيد قام محمد الشيخ الوطاسى فى آصيلا واستتبع القبائل واستفحل أمره ، وحاصر فاسا وقتا بعد وقت الى أن دخلت فى طاعته فى رمضان سنة ست وسبعين وثمانمائة . وخرج عنها الحفيد ودخلها محمد الشيخ المذكور فى أوائل شوال من السنة المذكورة وهو مورث الملك لبنيه بها » اه . وقد تقدم لنا أن الذى خلع الشريف من الملك هو أبو الحجاج يوسف بن منصور الوطاسى ، وان حضرة فاس الجديد قد بقيت بعد ذهاب الشريف الى تونس فى يد زهور الوطاسية والقائد السجيرى الى أن قدم السلطان محمد الشيخ والله تعالى أعلم .

وقال منويل فى أخبار محمد الشيخ هذا ما صورته : « كانت مملكة المغرب الاقصى فى غاية الاضطراب والانتكاس حتى طمع فى ملكها كل من كانت توسوس له نفسه بذلك ، واستولى ابن الاحمر على جميع الثغور التى كانت لبنى مرين بارض الاندلس ولم يترك لهم قيد شبر ، واشرأبت آجناس الفرنج للتغلب على المغرب ، وفى تلك المدة كان با صيلا محمد الشيخ الوطاسى ، وكان شجاعا مقداما ، وأحس من نفسه بالقدرة على الاستيلاء على كرسى فاس وتنحية الشريف عنه ، لا سيما مع ما كان الناس فيه من افتراق الكلمة فجمع جندا صالحا وزحف الى فاس فبرز اليه الشريف والتقوا باحواز مكناسة فوقعت بينهما حرب عظيمة كانت الكرة فيها على الوطاسى، ثم جمع عسكرا آخر وزحف به الى فاس وحاصرها نحو سنتين والشريف فيها مع أرباب دولته ، وفى أثناءالحصار ورد عليه الخبر باستيلاء البرتقال على آصيلا وعلى بيت ماله الذى كان بها وعلى حظاياه وأولاده ، فأفرج عن فاس ورجع مبادرا الى آصيلا فحاصرها ، ولما امتنعت عليه عقد مع البرتقال هدنة وعاد سريعا الى فاس فحاصرها وضيق على الشريف بها حتى خرج فارا بنفسه وأسلمها اليه فدخلها محمد الشيخ وتمت بيعته وتفرغ لتدويخ القبائل التى باحواز فاس وغيرها ، فدخلوا فى طاعته واغتبطوا به » اه كلامه .

رياسة بني راشد من شرفاء العلم بغمارة وبناؤهم مدينة شفشاون وما يتبع ذلك

قال في «نشر المثاني»: اختط بعض شرفاء العلم مدينة شفشاون بقصد تحصين المسلمين من نصارى سبتة ، اذ كانوا بعد استيلائهم عليها يتطاولون على أهل تلك المداشر في أواخر دولة بني وطاس » .

وقال في «المرآة» : «كان ابتداء اختطاط مدينة شفشاون في الجهة المعروفة عندهم بالعدوة ، وهي عدوة وادي شفشاون ، في حدود سنة ست وسبعين وثمانمائة ، على يد الشريف الفقيه الصالح الناصح المجاهد أبي الحسن بن أبي محمد المعروف بأبي جمعة العلمي ، واسمه الحسن بن محمد ابن الحسن بن عثمان بن سعيد بن عبد الوهاب بن علال بن القطب أبي محمد عبد السلام بن مشيش ، ومات شهيدا قبل اتمام ما شرع فيه ، بتدبير النصارى دمرهم الله مع أهل النفاق اذ ذاك من أهل الخروب ، وقد جاءهم في سبيل الجهاد وبينما هو يتهجد من الليل في مسجد هنالك ، اذ أضرموه عليه نارا فمات رضوان الله عليه ، وقام مقامه فيما كان بسبيله من الجهاد والاستنفار له وتجييش الجيوش ابن عمه الامير الجليل ، الفاضل الاصيل ، أبو الحسن على بن موسى بن راشد بن على بن بعيد بن عبد الوهاب الى آخر النسب المتقدم ، فشرع في اختطاط مدينة شفشاون في العدوة الاخرى فبنى قصبتها وشيدها وأوطنها باهله وعشيرته ، ونزل الناس بها فبنوا وصارت في عداد المدن الى أن توفي سنة سبع عشرة وتسعمائة ، وورثها بنوه من بعده ولم يزالوا فيها بين سلم وحرب الى أن أخرجهم منها الشرفاء السعديون عند استيلائهم على بلاد المغرب والله تعالى أعلم » .

ثورة عمرو بن سليمان السياف ببلاد السوس وشيء من اخباره

هذا الرجل هو عمرو بن سليمان الشيظمي المغيطي المعروف بالسياف، ويقال له المريدى بضم الميم، وكان ابتداء أمره أنه كان من تلامذة الشيخ أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي صاحب دلائل الخيرات ، نقل الثقات أنه كان يتردد الى الشيخ المذكور، أيام حياته ويأتيه بألواح فيها كلام كثير منسوب الى الخضر عليه السلام، فلا يقول له في ذلك شيئا غير أنه أثنى عليه مرات كثيرة، ثم لما مات الشيخ المذكور رحمه الله سنة سبعين وثمانمائة ثار عمرو المذكـــور مظهرا الطلب بثار الشيخ والانتقام من الذين سموه ، اذ كان سمه بعض فقهاء عصره ، فتتبعهم حتى قتلهم ، ثم صار يدعو الناس الى اقامة الصلاة ويقاتلهم عليها، فانتصر عليهم وشاع ذكره وتمكن ناموسه ، ثم تجاوز ذلك الى أن صار يدعو الناس الى نفسه ويقتل المنكرين عليه وعلى شيخه وأصحابه. وسمي اصحابه المريدين، بضم الميم، قال زروق: «وما أحقها بالفتح» وسمي المخالفين له الجاحدين ثم جعل ينفوه بالمغيبات ويزعم أنه مأذون ، وربما ادعى النبوة . وكان قد أخرج شلو الشيخ الجزولي من قبره وجعله في تابوت وصار يقدمه بين يديه فـي حروبه كتابوت بني اسرائيل فينتصر على من خالفه ، وقيل انه لم يدفنه وانما أخذه بعد موته فكفنه وجعله في التابوت ، وجمع الجموع ، وقاد الجيوش ، وسفك الدماء ، واستمرت فتنته في الناس عشرين سنة .

قال الشيخ زروق رحمه الله : « بلغني أن شيخنا الفقيه أبا عبد اللـــه القوري ورد عليه سؤال في شأن عمرو بن سليمان السياف فبادرت اليه كي أراه فقال لي : (قد خرج من يدي) ، فقلت له : (فما مقتضاه؟) ،قال: (مقتضاه انه يقول :ان أحكام الكتاب والسنة ارتفعت ولم يبق الا ما يقول له قلبه) . قـــال زروق : « وشاع من أمره انه يقول: انه وارث النبوة ، وان له أحكاما تخصه كما في قصة الخضر مع موسى عليهما السلام ، وان الخضر حي، ونبي مرسل ، وانه يلقاه ويأخذ عنه ، بل يدعي ذلك من هو دونه من تلامذته » .

وحكى بعضهم أن عمرا المذكور لما جعل شلو الشيخ فى التابوت ، كان اذا زجع به من حربه وضعه فى روضة عنده بسميها الرباط ، فاذا جنه الليل أطاف الحرس بالروضة يحرسون التابوت من السراق ويوقد عليه كل ليلة فتيلة عظيمة فى مقدار الثوب مغموسة فى نحو مدين من الزيت ليقوى الضوء وينتشر ، ويبلغ من كل الجهات الى مسافة بعيدة ، فتنكشف الطرق عمن يأتى عليها ، كل ذلك مخافة أن يؤخذ منه شلو الشيخ فينتصر به عليه .

ويقال: ان ثورة عمرو المذكور وفتنته كانت أثرا من آثار دعوات الشيخ الجزولى رحمه الله ، فقد ذكر تلامذته كالشيخ التباع وغيره : أن الشيخ الجزولى خرج عليهم من آخر الليلة التى قتل فى صبيحتها ، فقالوا له : «ياسيدى الناس يزعمون انك الفاطمى المنتظر» فقال : « ما يبحثون الا عمن يقطع رقابهم ، الله يسلط عليهم من يقطع رقابهم » وكرر ذلك مرارا ، فكانوا يرون أن أثر دعوته ظهر فى عمرو السياف والله أعلم .

وقتل عمرو المذكور سنة تسعين وثمانمائة واختلف فيمن قتله ، فقيل كان عمرو قد تزوج زوجة الشيخ الجزولى وبنته فلما رأتا ما هو عليه من الزندقة والفساد فى الارض قتلتاه امتعاضا للدين ، ترصدتاه حتى اذا نام عدتا عليه فقتلتاه ثم رمت احداهما وهى بنت الشيخ بنفسها من كوة هنالك فى البيت الذى كانوا به فوصلت الى الارض سالمة ونجت ، وبقيت الاخرى ، وهى الزوجة ، بالبيت فدخلوا عليها فقتلوها . وقيل : انما قتلته زوجته وربيبته ، وقيل : غير ذلك والله أعلم .

ولما هلك عمرو السياف دفن الناس الشيخ الجزولى ، وقيل : هو دفنه بموضع يعرف بتاصروت ثم نقل بعد الى مراكش على ما نذكر ان شاء الله ولما ذكر الشيخ أبو العباس الصومعى فى كتابه الموضوع فى مناقب الشيخ أبى يعزى قصة نقل الشيخ الجزولى الى مراكش ، وانه وجد طريا لم يتغير بعد وفاته بنحو سبعين سنة ، قال : « وأعجب من هذا أن عمرا المغيطى السياف زعموا أنه وجد كذلك ، ولعله أدركته بركة هذا الشيخ مع ما كان عليه والفضل بيد الله » اهـ .

وفى سنة احدي وتسعين وثمانمائة استدعى السلطان محمد الشيخ الامام أبا عبد الله بن غازى من مكناسة الى فاس فولى الخطابة أولا بالمسجد الجامع من فاس الجديد ثم ولى الامامة والخطابة ثانيا بمسجد القرويين من فاس وصار شيخ الجماعة بها واستوطنها الى أن مات رحمه الله .

وفى سنة خمس وتسعين وثمانمائة تحرك السلطان محمد الشيخ الى دبدو ثم عاد الى حضرته .وفيها أيضا فى يوم الخميس السابع من ذى القعدة توفى الوزير أبو عبد الله محمد الحلو الوطاسى ودفن بالقلة خارج بـــاب الجيسة .

وفى سنة سبع وتسعين وثمانمائة استولت الرينة ايسابيلا صاحبة مادريد قاعدة بلاد قشتالة على حمراء غرناطة ومحت دولة بنى الاحمر من جزيرة الاندلس ولم يبق للمسلمين بها سلطان ، وتفرق أهلها فى بلاد المغرب وغيرها أيادى سبا ، وقد تقدم الخبر عن ذلك مستوفى .

بنـاء مدينة تطـاوين

قال منويل: «لما استولى الاصبنيول على غرناطة خرج جماعة كبيرة من أهلها الى المغرب فنزلوا فى مرتيل قرب تطاوين ولما نزلوا به لم يقدموا شيئا على الوفادة على سلطان فاس محمد الشيخ الوطاسى ، فأجل مقدمهم ورحـــب بهم، فقالوا : ان ضيافتنا عندك أن تعين لنا موضعا نبنى فيه بلدا يكننا ونحفظ فيه عيالنا من أهل الريف» فأجابهم الى مرادهم وعين لهم مدينة تطاوين الخربة منذ تسعين سنة وولى عليهم كبيرهم أبا الحسن عليا المنظرى ، وكان رجلا شجاعا من كبار جند ابن الاحمر ، وكان قد أبلى معه فى حرب غرناطة البلاء الحسن ثم انتقل الى المغرب كما قلنا ، ولما عقد له الشيخ الوطاسى على أصحابه رجع بهم الى تطاوين وشرع فى بناء أسوار البلد القديم ، فجدده وبنى المسجد الجامع به واستوطنه هو وجماعته ، ثم أخذ فى جهاد البرتقال بسبتة وبلاد الهبط الى أن

أسر منهم ثلاثة آلاف فاستخدمهم فى اتمام ما بقى عليه من بناء تطاوين ، واتصلت الحرب بينهم وبين برتقال سبتة كاتصالها بين أهل آزمور وبرتقال الجديدة » اه .

وقوله ان بناء تطاوين كان عقب أخذ غرناطة مخالف لما يقول أهل تطاوين من أن تاريخ بنائها رمز : «تفاحة» ، وان ذلك كان باعانة الشريف أبى الحسن على بن راشد ، فيظهر والله أعلم أن أبا الحسن المنظرى كان قد قدم من الاندلس قبل أخذ غرناطة بسنين يسيرة موافق الرمز المذكور ، والله أعلم .

قدوم ابي عبد الله ابن الاحمر مخلوعا على السلطان محمد الشيخ الوطاسى رحمهما الله

لما استولى طاغية الاصبنيول على حضرة غرناطة وسائر الاندلس ، انتقل سلطانها أبو عبد الله ابن الاحمر الى حضرة فاس فاستوطنها تحت كنف السلطان محمد الشيخ بعد أن خاطبه من انشاء وزيره أبى عبد الله محمد العربى العقيلى بقصيدة بارعة يقول فى صدرها :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم — رعيا لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن — جار الزمان عليه جور منتقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلبا — وأفظع الخطب ما يأتى على الرغم.
حكم من الله حتم لا مرد لـه — وهل مرد لحكم منه منحتم

وهى طويلة . ثم وصلها برسالة يقول فيها بعد الحمد لله والصلاة على نبيه ما نصه .

« أما بعد فبامولانا ، الذى أولانا من النعم ما أولانا ، لا حط الله لكم من العزة ارواقا ، ولا أذوى لدوحة دولتكم أغصانا ولا أوراقا ، ولا زالت مخضرة العود ، مبتسمة عن زهرات البشائر متحفة بثمرات السعود ، ممطورة بسحائب البركات المتداركات دون بروق ولا رعود ، هذا مقام العائذ

بمقامكم ، المتعلق بأسباب ذمامكم ، المرتجى لعواطف قلوبكم ، وعـوارف انعامكم ، المقبل الارض تحت أقدامكم ، المتلجلج اللسان عند محاولة مفاتحـة كلامكم، وماذا الذى يقول من وجهه خجل وفؤاده وجل، وقضيته المقضية عن التنصل والأعتذار تجل ؟ بيد أنى أقول لكم ما أقوله لربى ، واجترائى عليه أكثـر واخترامى اليه أكبر ، « اللهم لا بـرىء فاعتـذر ، ولا قوى فانتصـر » لكنى مستقيل مستعتب مستغفـر ، « ومـا أبـرىء نفسـى ، ان النفس لأمارة بالسوء » هذا على طريق التنازل والاتصاف بما تقتضيه الحـال ممن يتحيز الى حيز الانصاف . وأما على جهة التحقيق ، فاقول ما قالته الام ابنة الصديق : « والله انى لا علم أنى ان أقررت بما يقوله الناس والله يعلم أنى منه بريئة لا قول ما لم يكن ، ولئن أنكرت ما تقولون لاتصدقونى . فأقول ما قاله أبو يـوسف : « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » على انى لا أنكر عيوبى فانا معدن العيوب ، ولا أجحد ذنوبى فانا جبل الذنوب ، الى الله أشكو عجرى وبجرى، وسقطاتى، وغلطاتى . نعم ، كل شىء ولا ما يقوله المتقـول المشنع المهول ، الناطق بفم الشيطان المسول ، ومن أمثالهم : « سبنى واصدق ، ولا تفتر ولا تخلق » أفمثلى كان يفعل أمثالها ويحتمل من الاوزار المضاعفـة أحمالها ، ويهلك نفسه ويحبط أعمالها ؟ عياذا بالله من خسران الدين وايثار الجاحدين والمعتدين ، « قد ضللت اذا وما أنا من المهتدين » وأيم الله لو علمت شعرة فى فو دى تميل الى تلك الجهة لقطعتها ، بل لقطفت ما تحت عمامتى من هامتى وقطفتها ، غير أن الرعاع فى كل أوان أعداء للملك وعليه أحزاب وأعوان، كان أحمق أو أجهل من أبى ثروان، أو أعقل أوأعلم من اشج بنى مروان «رب متهم برىء»، ومسربل بسربال وهو منه عرى ، وفى الاحاديث صـحيـح وسقيم ، ومن التراكيب المنطقية منتج وعقيم ، ولكن ثم ميزان عقل تعتبر به أوزان النقل ، وعلى الراجح الاعتماد ، ثم اساغة الاحماد المتصل التماد وللمرجوح الاطراح ، ثم التزام الصراح ، بعد النفض من الراح ، وأكثر ما تسمعه الكذب ، وطبع جمهور الخلق الامن عصمه الله تعالى اليه منجذب ، ولقد قذفنا من الاباطيل باحجار ، ورمينا بما لايرمى به الكفار ، فضلا عـن

الفجار ، وجرى من الامر المنقول على لسان زيد وعمرو ما لديكم منه حفظ الجار ، واذا عظم الالكاء ، فعلى تكأة التجلد الاتكاء ، أكثر المكثرون ، وجهد في تعثيرنا المتعثرون ، ورمونا عن قوس واحدة ، ونظمونا في سلك الملاحدة أكفرا أيضا كفرا ؟ ، غفرا اللهم غفرا ، أعد نظرا يا عبد قيس ، فليس الامر على ما خيل لك ليس ، وهل زدنا على أن طلبنا حقنا ، ممن رام محقه ومحقنا فطاردنا في سبيله عداة كانوا لنا غائظين ، فانفتق علينا فتق لم يمكنا له رتق ، «وما كنا للغيب حافظين» ، وبعد فاسأل أهل الحل والعقد والتمييز والنقد ، فعند جهينتهم تلقى الخبر يقينا ، وقد رضينا بحكمهم يوثمنا فيوبقنا ، أو يبرئنا فيقينا. ايه يامن اشرأب الى ملامنا ، وقدح حتى في اسلامنا ، رويدا رويدا ، فقد وجدت قوة وايدا ، ويحك انما طال لسانك علينا ، وامتد بالسوء الينا ، لان الزمان لنا مصغر ولك مكبر ، والامر عليك مقبل وعنا مدبر ، كما قاله كاتب الحجاج المتبر : وعلى الجملة فهبنا صرنا الى تسليم مقالك جدلا ، وذهبنا فاقررنا بالخطا في كل ورد وصدر فلله در القائل :

«ان كنت أخطأت فما أخطأ القدر» وكأنا بمعتسف اذا وصل الى هنا ، وعدم انصافا يعلمه الهنا ، قد ازور متجانفا ، ثم افتر متهانفا وجعل تمثل بقولهم: «اذا عيروا قالوا: مقادير قدرت» وبقولهم: «المرء يعجزه المحال» فيعارض الحق بالباطل ، والحالي بالعاطل» وينزع بقول القائل «رب مسمع هائل وليس تحته طائل» : وقد فرغنا أول أمس من جوابه ، وتركنا الضغن يلصق حرارة الجوى به ، وسنلم الآن بما يوسعه تبكيتا ، ويقطعه تسكيتا ، فنقول له : ناشدناك الله تعالى هل اتفق لك قط وعرض خروج أمر ما عن القصد منك فيه والغرض ، مع اجتهادك أثناءه في اصدارك ، وايرادك في وقوعه على وفق اقتراحك ومرادك ، أو جميع ما تزاوله بادارتك لا يقع الا مطابقا لارادتك ، أو كل ما تقصده وتنويه تحرزه كما تشاء وتحويه ؟ فلا بد أن يقر اضطرارا بان مطلوبه يشذ عنه مرارا ، بل كثيرا ما يفلت صيده من أشراكه ، ويطلبه فيعجز عن ادراكه ، فنقول : ومسألتنا من هذا القبيل : أيها النبيه النبيل ، ثم نسرد له من الاحاديث النوبة ما شئنا ، مما يسايرنا في غرضنا منه ويمانيا ،

كقوله صلى الله عليه وسلم : « كل شىء بقضاء وقدر حتى العجز والكيس » وقوله أيضا : « لو اجتمع أهل السموات والارض على أن ينفعوك بشىء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه » أو كما قال صلى الله عليه وسلم . فاخلق به أن يلوذ بأكناف الاحجام ، ويزم على نفث فيه كأنما الجم بلجام . حينئذ نقول له، والحق قد أبان وجهه وجلاه وقهره بحجته وعلاه . « ليس لك من الامر شىء » « قل ان الامر كله لله » ، وفى محاجة آدم وموسى ما يقطع لسان الخصم ، ويرخص عن أثواب أعراضنا ما عسى أن يعلق بها من درن الوصم ، وكيفما كانت الحال ، وان ساء الرأى والانتحال ووقعنا فى أوجال وأوحال، فثل عرشنا، وطويت فرشنا، ونكس لوانا، وملك مثوانا فنحن أمثل من سوانا ، « وما فى الشر خيار » ويد الالطاف تكسر من صولة الاغيار ، فحتى الآن لم نفقد من اللطيف تعالى لطفا ، ولا عدمنا أدوات أدعية تعطف بلا مهلة على جملتنا المقطوعة جمل النعم الموصولة عطفا ، والا فتلك بغداد دار السلام ، ومتبوأ الاسلام ، المحفوف بفرسان السيوف والاقلام مثابة الخلافة العباسية ، ومقر العلماء والفضلاء أولى السير الاويسية ، والعقول الاياسية ، قد نوزلت بالجيوش ونزلت ، وزوولت بالزحوف وزلزلت ، وتحيف جوانبها الحيف ، ودخلها كفار التتار عنوة بالسيف ، ولا تسل اذ ذاك عن كيف ، أيام تجلت عروس المنية ، كاشفة عن ساقها مبدية ، وجرت الدماء فى الشوارع والطرق كالانهار والاودية ، وقيد الائمة والقضاة تحت ظلال السيوف المنتضاة بالعمائم فى رقابهم والاردية ، وللنجيع سيول تخوضها الخيول فتخضبها الى ارساغها، وتهم ظماؤها بوردها فتنكل عن تجرعها ومساغها، فطاح عاصمها ومستعصمها ، وراح ولم يغد ظالمها ومتظلمها ، وخربت مساجدها وديارها ، واصطلم بالحسام أشرارها وخيارها ، فلم يبق من جمهور أهلها عين تطرف ، حسبما عرفت أو حسبما تعرف ، فلاتك متشككا متوقفا ، فحديث تلك الواقعة الشنعاء أشهر عند المؤرخين من قفا ، فأين تلك الجحافل والآراء المدارة فى المحافل ؟ حين أراد الله تعالى بادالة الكفر لم تجد ولا

قلامة ظفر، اذن من سلمت له نفسه التي هي رأس ماله، وعياله وأطفاله اللذان هما من أعظم آماله ، وكل أوجل أوقل رياشه وأسباب معاشه الكفيلة بانتهاضه وانتعاشه ثم وجد مع ذلك سبيلا الى الخلاص في حال مياسرة ومساهلة دون تعصب واعتياص، بعد ما ظن كل الظن أن لامحيد ولامناص فما أحقه حينئذ وأولاه أن يحمد خالقه ورازقه ومولاه ، على ما أسداه اليه من رفده وخيره ، ومعافاته مما ابتلى به كثير من غيره ، ويرضى بكل ايراد واصدار ،تتصرف فيهما الاحكام الالهية والاقدار ، فالدهر غدار ، والدنيا دار مشحونة بالاكدار والقضاء لا يرد ولا يصد ولايغالب ولايطالب، والدائرات تدور، ولا بد من نقص وكمال للبدور ، والعبد مطيع لا مطاع ، وليس يطاع الا المستطاع ، وللخالق القدير جلت قدرته في خليقته علم غيب للاذهان عن مداه انقطاع، ومالى والتكلف لما لا أحتاج اليه من هذا القول، بن يدى ذى الجلالة والمجادة والفضل والطول، فله من العقل الارجح ومن الخلق الاسجح ما لا تلناط معه تهمنى بصفره ، ولا تنفق عنده وشاية الواشي لاعد من نفره ، ولا فاز قدحه بظفره ، والمولى يعلم أن الدنيا تلعب باللاعب ، وتجر براحتها الى المتاعب ، وقديما للاكياس من الناس خدعت ، وانحرفت عن وصالهم أعقل ما كانوا وقطعت ، وفعلت بهم ما فعلت بيسار الكواعب الذى جبت وجدعت ، ولئن رهصت وهصرت فقد نبهت وبصرت ، ولئن قرعت ومعضت لقد أرشدت ووعظت ، وياويلنا من تنكرها لنا بمرة ، ورميها لنا في غمرة أى غمرة ، أيام قلبت لنا ظهر المجن ، وغيم أفقها المصمى وأدجن ، فسرعان ما عاينا حبالها منبته ، ورأينا منها ما لم نحتسب كما تقوم الساعة بغته ، فمن استعاذ من شيء فليستعذ مما صرنا اليه من الحور بعد الكور ، والانحطاط من النجد الى الغور :

فبينا نسوس الناس والامر أمرنا اذا نحن فيهم سوقة نتنصف
فتبا لدنيا لا يدوم نعيمها تقلب تارات بنا وتصرف

وأبيها لقد أرهقتنا ارهاقا ، وجرعتنا من صاب الاوصاب كأسا دهاقا ، ولم نفزع الى غير بابكم المنيع الجناب المنفتح حين سدت الابواب ، ولم نلبس غير لباس نعمائكم حين خلعنا ما ألبسنا الملك من الاثواب ، والى أمه يلجأ

الطفل لجأ اللهفان، وعند الشدائد تمتاز السيوف من الاجفان ، ووجه الله تعالى يبقى وكل من عليها فان ، والى هنا ينتهي القائل ثم يقول : حسبي هذا وكفان .
ولا ريب في اشتمال العلم الكريم على ما تعارفته الملوك بينها في الحديث والقديم من الاخذ باليد عند زلة القدم، وقرع الانسان وعض البنان من الندم، دينا تدينته مع اختلاف الاديان وعادة اطردت على تعاقب الازمان والاحيان، ولقد عرض علينا صاحب قشتالة مواضع معتبرة خير فيها ، وأعطى من أمانه المؤكد فيه خطه بأيمانه ما يقنع النفوس ويكفيها ، فلم نر ، ونحن من سلالة الاحمر ، مجاورة الصفر ، ولا سوغ لنا الايمان الاقامة بين ظهراني الكفر ، ماوجدنا عن ذلك مندوحة ولو شاسعة ، وأمنا المطالب المشاغب حمة شر لنا لا سعة ، وادكرنا أي ادكار قول الله تعالى المنكر لذلك غاية الانكار: « ألم تكن أرض الله واسعة » وقول الرسول عليه الصلاة والسلام المبالغ في ذلك بأبلغ الكلام: «أنا بريء من مؤمن مع كافر تتراأى ناراهما» وقول الشاعر الحاث على حث المطية المتثاقلة عن السير في طريق منجاتها البطية:

وما أنا والتلدذ نحو نجد وقد غصت تهامة بالرجال

وقد وصلت أيضا من الشرق الينا كتب كريمة المقاصد لدينا ، تستدعي الانحياز الى تلك الجنبات ، وتتضمن مالا مزيد عليه من الرغبات ، فلم نختر الا دارنا التي كانت دار آبائنا من قبلنا ، ولم نرتض الانضواء الا لمن بحبله وصل حبلنا ، وبريش نبله ريش نبلنا ، ادلالا على محل اخاء متوارث لا عن كلالة ، وامتثالا لوصاة أجداد لا نظارهم وأقدارهم اصالة وجلاله ، اذ قد روينا عن سلف من أسلافنا في الايصاء لمن يخلف بعدهم من أخلافنا : أن لا يبتغوا اذا دهمهم أمر بالحضرة المرينية بدلا ، ولا يجدوا عن طريقها في التوجه الى فريقها معدلا ، فاخترقنا الى الرياض الاريضة الفجاج ، وركبنا الى البحر الفرات ظهر البحر الاجاج ، فلا غرو أن نرد منه على ما يقر العين ويشفي النفس الشاكية من ألم البين ، ومن توصل هذا التوصل وتوسل بمثل ذلك التوسل تطارحا على سدة أمير المؤمنين ، المحارب للمحاربين ، والمؤمن للمستأمنين ، فهو الخليق الحقيق بأن يسوغ أصفى مشاربه ويبلغ أوفى مآربه على توالي الايام والشهور والسنين ، ويخلص من الثبور الى الحبور

وبخرج من الظلمات الى النور خروج الجنين ولعل شعاع سعادته يفيض علينا، ونفحة قبول اقباله تسرى الينا فتخامرنا أريحية تحملنا على أن نبادر لانشاد قول الشريف الرضى فى الخليفة القادر .

عطفا أمير المؤمنين فاننا ... فى دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت ... أبدا كلانا فى المعالى معرق
الا الخلافة ميزتك فاننى ... أنا عاطل منها وأنت مطوق

لا بل الاحرى بنا والاحجى ، والانجح لسعينا والارجى ، أن نعدل عن هذا المنهاج، ويقوم وافدنا بين يدى علاه مقام الخاضع المتواضع الضعيف المحتاج وينشد ما قال فى الشيرازى ابن حجاج :

الناس يفدونك اضطرارا ... منهم وأفديك باختيارى
وبعضهم فى جوار بعض ... وأنت حتى أموت جارى
فعش لخبزى وعش لمائى ... وعش لدارى وأهل دارى

ونستوهب من الوهاب تعالى جلت أسماؤه ، وتعاظمت نعماؤه ، رحمة تجعل فى يد الهداية أعنتنا وعصمة تكون فى مواقف المخاوف جنتنا ، وقبولا يعطف علينا نوافر القلوب ، وصنعا يسنى لنا كل مرغوب ومطلوب، ونسأله، وطالما بلغ السائل سؤلا ومأمولا ، متابا صادقا على موضوع الندم محمولا ، ثم عزاء حسنا وصبرا جميلا ، عن أرض أورثها من شاء من عباده معقبا لهم ومديلا ، وسادلا عليهم من ستور الاملاء الطويلة سدولا ، «سنة الله التى قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا » فليطر طائر الوسواس المرفرف مطيرا «كل ذلك كان فى الكتاب مسطورا» لم نستطع عن مورده صدورا ، « وكان أمر الله قدرا مقدورا » ، الا وان لله سبحانه فى مقامكم العالى الذى أيده وأعانه سرا من النصر يترجم عنه لسان من النصل ، وترجح فروع البشائر الصادقة بالفتوحات المتلاحقة من قاعدته المتأصلة الى أصل،فبمثله يجب اللياد والعياذ ولشبهه يحق الالتجاء والارتجاء ، ولامر ما آثرناه واخترناه ، بعد أن استرشدنا الله سبحانه واستخرناه ، ومنه جل جلاله

نرغب أن يخير لنا ولجميع المسلمين ، ويأوب بنا من حمايتـــه ووقايتـه الى معقل منيع وجناب رفيع . آمين ، آمين ، آمين . ونرجو أن يكون ربنا الـذى هو فى جميع الامور حسبنا قد خار لنا حيث أرشدنا وهدانا ، وساقنا توفيقه وحدانا الى الاستجارة بملك حفى ، كريم وفى ، أعز جارا من أبى دواد ، وأحمى أنفا من الحرث بن عباد ، يشهد بذلك الدانى والقاصى والحاضـر والباد ، ان أغاث ملهوفا فما الاسود بن قنان يذكر ، وان أنعش حشاشة هالك فما كعب بن مامة على فعله وحده يشكر ، جليسه كجليس القعقاع بن شور ، ومذاكـره كمذاكر سفيان المنتسب من الرباب الى ثور ، الى التحلى بأمهـات الفضائل التى أضدادها أمهـات الرذائــل وهـى الثــلاث : الحكمـة والعدل والعفة التى تشملها الثلاثة : الاقـــوال ، والافعـــال ، والشمائـــل ، وينشأ عنها ما شئت من عزم وحزم وعلم وحلـم ، وتيقـظ وتحفـظ واتقاء وارتقاء ، وصول وطول وسماح نائل ، فبنـور حـلاه المشـــرق يفتخر المغرب على المشرق ، وبمجده السامى خطره فى الاخطار وبيته الذى ذكره فى النباهة والنجابة قد طار ، يباهى جميع ملوك الجهات والاقطار ، وكيف لا ، وهو الرفيع المنتمى والنجار ، الراضع من الطهارة صفو البان الناشىء من السراوة وسط أحجار فى ضئضىء المجد وبحبوح الكرم ، وسرواه أسـرة المملكة التى أكنافها حرم ، وذؤابة الشرف التى مجادتها لم ترم ، من معشر أى معشر بخلوا أن وهبوا ما دون أعمارهم ، وجبنوا ان لم يحمواسوى دمارهم. بنو مرين ، وما ادراك ما بنو مرين « سم العداة وآفة الجزر » « النازلون بكل معترك ، والطيبون معاقد الازر » لهم عن الهفوات انتفاء ، وعندهم من السيـر النبوية اكتفاء انتسبوا الى بر بن قيس ، فخرجوا فى البر عن القيس ، مالهـم القديم المعروف قد نفد فى سبيل المعروف ، وحديثهم الذى نقلته رجـال الزحوف من طريق القنا والسيوف على الحسن من المقاصد موقـوف ، تحمد من صغيرهم وكبيرهم ، ذابلهم ولدنهم فلله آباء أنجبوهم ، وأمهـات ولدنهم ، « شم الانوف من الطراز الاول » اليهم فى الشدائـد الاستنـاد ، وعليهم فى الازمات المعول ، ولهم فى الوفاء والصفاء والاحتفاء والعنايـة

والحماية والرعاية الخطو الواسع والباع الاطول ، كأنما عناهم بقوله جرول:

أولئك قوم ان بنو أحسنوا البنا   وان عاهدوا وفوا وان عقدوا شدوا

وان كانت النعماء فيهم جزوا بها   وان أنعموا لاكدروها ولا كدوا

وتعذلنى أبناء سعد عليهم   وما قلت الا بالذى علمت سعد

وبقول الوثيق مبناه البليغ معناه :

قوم اذا عقدوا عقدا لجارهم   شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا

يزيحون عن النزيل كل نازح قاصم ، وليس له منهم عائب ولا واصم ، فهو أحق بما قاله فى منقر قيس بن عاصم :

لا يفطنون لعيب جارهم   وهم لحفظ جوارهم فطن

حلاهم هذه الغريزة التى ليست باستكراه ولا جعل ، وأمير المؤمنين دام نصره قسيمهم فيها حذو النعل بالنعل ، ثم هو عليهم وعلى من سواهم بالاوصاف الملوكية مستعل ، ارفض مزنهم منه عن غيث ملث يمحو آثار اللزبة ، وانشق غيلهم منه عن ليث ضار منقبض على براثنه للوثبة ، فقل لسكان الفلا : لا تغرنكم أعدادكم وأمدادكم فلا يبالى السرحان المواشى سواء مشى اليها النقرا أو الجفلى بل يصدمهم صدمة تحطم منهم كل عرنين، ثم يبتلع بعد أشلاءهم للمعفرة ابتلاع التنين ، فهو هو كما عرفوه وعهدوه وألفوه ، وأخو المنايا « وابن جلا وطلاع الثنايا» ، مجتمع أشده ، قد احتنكت سنه وبان رشده ، جاد مجد ، محتزم بحزام الحزم مشمر عن ساعد الجد .

لا يشرب الماء الا من قليب دم   ولا يبيت له جار على وجل

اسدى القلب آدمى الروا ، لابس جلد النمر يزنى العناد والنوى ،

وليس بشارى عليه دمامة   اذا ما سعى يسعى بقوس وأسهم

ولكنه يسعى عليه مفاضة   دلاص كأعيان الجراد المنظم

فالنجاء النجاء سامعين له طائعين ، والوجل الوجل لا حقين به خاضعين قبل أن تساقوا اليه مقرنين فى الاصفاد ، ويعيى الفداء بنفائس النفوس والاموال على الفاد ، حينئذ يعض ذو الجهل والقدامه على يديه حسرة وندامه ، اذا رأى أبطال الجنود تحت خوافق الرايات والبنود ، قد لفحتهم نار ليست

بذات خمود، وأخذتهم صاعقة مثل صاعقة الذين من قبلهم عاد وثمود، زعقات تؤز الكتائب أزا وهمزا، محققا للخيل بعد المد المشبع للاعنة همزا، وسلا للهندية سلا وهزا للخطية هزا، حتى يقول النسر للذئب : « هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا : » ثق خليفة الله بذاك فى كل من رام أذى رعيتك أو أذاك، فتلك عادة الله سبحانه فى ذوى الشقاق والنفاق، الذين يشقون عصا المسلمين ويقطعون طريق الرفاق، وينصبون حبائل البغى والفساد فى جميع النواحى والآفاق، فلن يجعلهم الله عز وجل من الآمنين، أنى وكيف وقد أفسدوا وخانوا وهو سبحانه « لا يصلح عمل المفسدين» و «ولا يهدى كيد الخائنين» وها نحن قد وجهنا الى كعبة مجدكم وجوه صلوات التقديس والتعظيم، بعد ما زينا معاطفها باستعطافكم بدر ثناء أبهى من در العقد النظيم منتظمين فى سلك أوليائكم، مشرفين بخدمة عليائكم، ولا فقد عزة ولا عدمها من قصد مثابتكم العزيزة وخدمها، وان الترامى على سنائكم لجدير بحرمتكم واعتنائكم، وكل ملهوف تبوأ من كنفكم حصنا حصينا عاش بقية عمره محروسا من الضيم مصونا، وقد قيل فى بعض الكلام : « من قعدت به نكاية الايام أقامته اغاثة الكرام»، ومولانا أيده الله تعالى ولى ما يزفه الينا من مكرمة بكر، ويصنعه لنا من صنيع حافل يخلد فى صحائف حسن الذكر، ويروى معنعن حديث حمده وشكره طرس عن قلم عن بنان عن لسان عن فكر، وغيره من ينام عن ذلك فيوقظ، ويسترسل مع الغفلة حتى يذكر ويوعظ، وما عهد منذ وجد الا سريعا الى داعى الندى والتكرم بريئا من الضجر بالمطالبة والتبرم، حافظا للجار الذى أوصى النبى صلى الله عليه وسلم بحفظه، مستفرغا وسعه فى رعيه المستمر ولحظه، آخذا من حسن الثناء فى جميع الاوقات والآناء بحظه .

فهو من دوحة السنا فرع عز ليس يحتاج مجتنيه لهز
كفه فى الامحال أغزر وبل وذراه فى الجوف أمنع حرز
حلمه يسفر اسمه لك عنه فتفهم يا مدعى الفهم لغزى
لا تسله شيئا ولا تستلنه نظرة منه فيك تغنى وتجزى

فنداه هو الفرات الذى فـــد عام فيه الانـــام عـــوم الاوز
وحماه هو المنيع الذى نـــر جع عنه الخطوب مرجع عجــز
فدعوا ذهنه يزاول قـــــولى فهو أدرى بما تضمن ومـــــزى
دام يحيى بكل صنع ومـــــن ويعافى من كل بوس ورجـــز

وكأنا به قد عمل على شاكلة جلاله من مد ظلاله وتمهيد خلاله ،وتلقى ورودنا بتهلله واستهلاله ، وتأنيسنا بجميل قبوله واقباله ، وايرادنا على حوض كوثره المترع بزلاله ، والله سبحانه يسعد مقامه العلى ويسعدنا به فى حله وارتحاله ، ومآله وحاله ، ويؤيد جنده المظفر ويؤيدنا بتأييده على نزال عدوه واستنزاله ، وهز الذوابل لاطفاء ذباله ، وهو سبحانه وتعالى المسؤل أن يريه قرة العين فى نفسه وأهله ، وخدامه وأمواله وأنظاره وأعماله ، وكافة شؤنه وأحواله ، وأحق ما نصل بالسلام وأولى ، على المقام الجليل مقام الخليفـــة المولى ، وأزكى الصلاة والسلام على خاتمة أنبيائه ، وارساله ، سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى جميع أصحابه وآله ، صلاة وسلاما دائمين أبدا موصولين بدوام الابد واتصاله ، ضامنين لمجددهما ومرددهما صـــلاح فساد أعماله ، وبلوغ غاية آماله ، وذلك بمشيئة الله تعالى واذنه وفضله وافضاله».
انتهت الرسالة وما كادت .

ووصل السلطان ابن الاحمر المخلوع بعد نزوله بمليلية الى مدينة فاس باهله وأولاده معتذرا عما أسلفه ، متلهفا على ما خلفه ، وبنى بفاس بعـــض قصور على طريق بنيان الاندلس ، وتوفى بها سنة أربعين وتسعمائة ودفـــن بازاء المصلى خارج باب الشريعة وخلف ذرية من بعده . قال فى «نشر المثانى»: «انقرضوا ولم يبق منهم أحد» . وزعم منويل أنه هلك فى وقعة أبى عقبة فـــى حرب الوطاسيين مع السعديين ، قال : « ولم يحسن هذا الرجل أن يدفع عن ملكه فدفع عن ملك غيره »

استيلاء البرتقال على ساحل البريجه وبناؤهم مدينة الجديدة صانها الله سبحانه وتعالى بمنه

قال مؤلفه عفا الله عنه : قد وقفت لبعض البرتقاليين واسمه لويز مارية على تأليف فى أخبار الجديدة من لدن بنوها الى أن انتزعها المسلمون منهم فاقتطفت منه ما أثبته فى هذه الترجمة . قال هذا المؤلف : لما كانت سنة ألف وخمسمائة واثنتين مسيحية قلت : ويوافقها من تاريخ الهجرة سنة سبع وتسعمائة تقريبا بعث سلطان البرتقال ، واسمه منويل ، من دار ملكه اشبونة عمارة فى البحر للاستيلاء على بعض ثغور المغرب فالجأهم هيجان البحر وموجه الى ساحل البريجة فيما بين آزمور وتيط ، وكانت البريجة على ما يفهم من كلامه بناء متخذا هنالك للحراسة ونحوها كان يسمى برج الشيخ ولا زال مسمى بهذا الاسم الى الآن ، فأرسى البرتقاليون على الساحل المذكور ونزلت طائفة منهم الى البر فنطوفوا بالبريجة وما حولها وأعجبهم المكان فعزموا على المقام به ، واتفق رأيهم أن يتركوا جماعة هنالك يحفظون المحل ويرجع باقيهم الى ملكهم ليستأذنوه فيما عزموا عليه، فتركوا اثنى عشر رجلا بالبريجة بعد أن حصنوها وشحنوها بما يحتاجون اليه من عدة وقوت ونحوهما، ورجع الباقون الى الملك فاخبروه بشأنهم ، فأذن لهم وبعث معهم جماعة من البنائين والعملة ليبنوا لهم ما يتحصنون به ، فقدموا على اخوانهم وشرعوا فى ادارة السور على قطعة من الارض ، فنذر بهم أهل تلك البلاد من المسلمين وتسابقوا اليهم على الصعب والذلول ففر النصارى الى البريجة وتحصنوا بها وأفسد المسلمون كل ما كانوا عملوه فى تلك الايام وأحجروهم بحصنهم ، ووضعوا عليهم الرصد الى أن فتر عزمهم وأيسوا من نجاح سعيهم ، فعاد جلهم أو كلهم الى أشبونة وأعادوا الكلام على ملكهم منويل فى شأن البريجة ووصفوا له حسن البقعة وصحة هوائها ومنزلتها من البحر ، ومن قبائل أهل المغرب من أهل تامسنا ودكالة وغيرهم ، وأنها عسى أن تكون سلما للاستيلاء على غيرها

من بلاد المغرب، لا سيما ودولة المسلمين به يومئذ قد تلا شت وملكهم قد ضعف، فوقر ذلك فى نفس الملك واستأنف العزم ، وبعث معهم حصة من العسكر تحصل بها الكفاية وتأتى بها المدافعة والممانعة مع جماعة وافرة من البنائين والمهندسين ، وحملهم ما يحتاجون اليه من آلة وغيرها ، فانتهوا الى الموضع المذكور بعد سبع سنين من مقدمهم الاول ، وتحينوا غفلة أهل البلاد وشرعوا فى بناء حصن مربع على كل ربع منه برج وثيق ، ودأبوا فى العمل ليلا ونهارا فلم تمض مدة يسيرة حتى فرغوا منه وامتنعوا على المسلمين به . وكان انشاؤهم لهذا الحصن على البريجة القديمة بان جعلوها أحد أرباعه وأضافوا اليهـــا ثلاثة أرباع أخر ، وأداروا السور على الجميع ، واتخذوا فى داخل هذا الحصن ماجلا عظيما لخزن الماء ، وهو النطفية فى لسان الجيل ، بنوه مربعا بتربيع الحصن ، مساحة كل ربع منه مائة وثلاثون شبرا وجوانبه وقبوه من حجر النصف العجيب النحت المحكم الوضع والالتئام ، محمولا ذلك القبـــو على ستة أقواس فى كل ربع . قال هذا المؤلف : وامتلاء نحو بلكاظة من هذا الماجن يسع عشرين بوطة من الماء ، ثم شيدوا على أحد أرباع هذا الحصن طريا عظيما مرتفعا جدا ، ليس صادق التربيع ولا الاستدارة غير مهنـــدس الشكل ، ثم بنوا فى أعلاه على أحد جوانبه بناء آخر لطيفا مستديرا صاعدا فى الجويرقى اليه على مدارج لطيفة ، وجعلوا فى أعلاه صاريا خارجا من جوفه ، وناقوسا للحراسة يشرف الحارس منه على نحو خمسة وعشرين ميلا مـــن سائر جهاته. وجميع هذه البناآت التى ذكرها المؤلف من الحصن وما معـــه لا زالت قائمة العين والاثر الى الان الا الطرى فانه قد اتخذ فى هذه الايام التى هى سنة سبع وتسعين ومائتين وألف منارا للمسجد الجامع ، وذلك أن عامل الجديدة فى هذا العصر، وهو الرئيس الفاضل أبو عبد الله محمد بن ادريس الجرارى حفظه الله ، استأذن الخليفة ، وهو السلطان الاعظم المولى الشريف أبو على الحسن بن محمد العلوى نصره الله ، فى جعله منارا لكـــون المنار القديم قصيرا لا يسمع الناس الاذان ، فأذن أعزه الله فى ذلك ، وهـــذا العامل اليوم جاد فى اصلاحه والزيادة فيه وقد أشرف على التمام ، وكذلك

استاذن هذا العامل حضرة السلطان المذكور فى ادارة جدار من داخل سور المدينة يكون سنرة على منازل أهلها وبيوتهم ، لان السور المذكور كان مرتفعا على البلد بحيث يكون الصاعد عليه متكشفا على البيوت ، واستأذنه فى اصلاح القبة المشرفة على البحر المعروفة بقبة الخياطين ، وكانت قد تلاشت ، وباتخاذ سجن متسع محكم عن يمين الداخل من باب المدينة المذكورةلانه لم يكن بهاسجن معتبر ، فاجابه الخليفة المذكور الى ذلك كله أدام الله علاه . وقد تم جل ذلك وعادت القبة الى أحسن حالاتها التى كانت عليها أيام البرتقال والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

ولنرجع الى موضوعنا الذى كنا فيه فنقول : ثم شرع نصارى البرتقال بعد الفراغ من الحصن المذكور فى ادارة سور المدينة على أوثق وجه وأحكمه وذلك انهم عمدوا الى بقعة مربعة من الارض مساحة كل ربع منهاثلاثمائة وخمس وسبعون خطوة ، وجعلوا مركزها الحصن المذكور ثم أداروا بهـــا سورين عاديين ثخن الخارج منهما نحو خمسة عشر شبرا ، والداخل على نحو الثلثين منه ، وبينهما فضاء مردوم بالتراب والحجارة الصغيرة ، فصار السوران بذلك سورا واحدا سعته خمسون شبرا ، وهذا فى غير الربع الموالى للبحر ، أما هو فليس فيه ردم وانما هو سور واحد مصمت أضيق مما عداه يسيرا وارتفاع هذه الاسوار من داخل البلد نحو ستين شبرا ومن خارجه نحو السبعين. ثم أداروا خارج السور خندقا فسيحا وجعلوا عمقه أربعة عشر شبرا بحيث بلغوا بـه الماء واذا فاض البحر ملأ ما بين جوانبه . واتخذوا للمدينة ثلاثة أبواب أحدها للبحر وهو باب المرسى ، وقد سد بالبناء فى هذه السنين، واثنان للبر وجعلوا أمامهما قنطرتين بالعمل الهندسى بحيث ترفعان وتوضعان وقت الحاجة الى ذلك ، فصارت المدينة بهذا كله فى غاية المناعة .

وكان بنو وطاس فى هذه المدة أشغل من ذات النحيين مع برتقال سبتة وطنجة وسائر بلاد الهبط ، فلذا تأتى لهؤلاء النصارى أن يفعلوا ما فعلوه فى هذه المدة اليسيرة ، وجعلوا داخل المدينة خمس حارات وسموا كل حارة باسم كبير من قدمائهم على عادتهم فى ذلك ، واتخذوا بها أربع كنائس ،

واتخذوا المخازن والاهراء للاختزان وسائر المرافق ومن جملتها هرى كان يسع ستمائة فنيكة من الحب وأوطنوها باهلهم وعيالهم ، وكان فيها جماعة من أشرافهم وذوى بيوتاتهم من أهل أشبونة وغيرها ، وكانوا يعدون فيها أربعة آلاف نفس ما بين المقاتلة والعيال والذرية ، وكانوا يأملون الاستيلاء منها على مراكش فخيب الله رجاءهم، ثم ذكر هذا المؤلف ما كان يقع بين المسلمين ونصارى الجديدة من الحروب والغارات مما لعلنا نشير الى بعضه فى محله ان شاء الله .

استيلاء البرتقال على سواحل السوس وبناؤهم حصن فونتى قرب اكادير وما قيل فى ذلك

ذكر بعض المؤرخين من الفرنج أن استيلاء البرتقال على آكادير كان فى مدة ملكهم منويل المذكور آنفا وان ذلك كان على حين غفلة من أهل تلك البلاد .

قال منويل : « لما علم طاغية البرتقال منويل أن مرسى آكادير جيدة لمناعتها وكثرة تجارتها بسبب مجاورتها لقبائل السوس أراد الاستيلاء عليها وكان يظن أن ذلك لا يتأتى له لحصانتها وكثرة القبائل المجاورين لها ، ثم خاطر وبعث اليها جيشا فاستولوا عليها على حين غفلة من أهلها وحصنوهـا وبنوا بها دورا وبرجا جيدا وأخذوا فى التجارة بها مع أهل السوس، وكثرت أرباحهم . ثم لما ضعفت شوكتهم خرجوا عنها وعن آسفى وآزمور » .قلت: مراده بآكادير حصن فونتى القريب منه ، والا فآكادير انما بنى بعد هذا التاريخ بكثير كما سيأتى . ثم مقتضى ما ذكره أن يكون زمان استيلائهم عليه موافقا أو قريبا لزمان استيلائهم على البريجة ، ومقتضى ما نقله فى « النزهة » عن ابن القاضى أن يكون استيلاؤهم عليه فى حدود سنة خمس وسبعين وثمانمائة فانه لما وصف حال السلطان محمد الشيخ السعدى الآتى ذكره ان شاء الله

قال : « وكان له بخت عظيم فى الجهاد فتح حصن النصارى بسوس بعد أن أقاموا به اثنتين وسبعين سنة » اه . وكان فتحه اياه فى حدود سبع وأربعين وتسعمائة ، والظاهر أنهم استولوا على بعض حصون السوس فى التاريخ الاول وعلى بعضها فى الثانى ، والله أعلم .

وفاة السلطان محمد الشيخ الوطاسى رحمه الله

ذكر ابن القاضى فى « الجذوة » : « أن وفاة السلطان المذكور كانت سنة عشر وتسعمائة » قال : « ومن حملة وزرائه أخوه الناصر بن أبى زكرياء » والله أعلم . وولى الامر من بعده ابنه محمد البرتقالى على ما نذكره .

الخبر عن دولة السلطان محمد بن محمد الشيخ الوطاسى المعروف بالبرتقالى رحمه الله

لما توفى السلطان محمد الشيخ بويع ابنه محمد البرتقالى فى التاريخ المتقدم وكان نصارى سبتة وطنجة وآصيلا قد استحوذوا على بلاد الهبط وضايقوا المسلمين بها حتى الجأوهم الى قصر كتامة ، فكان هو الثغر يومئذ بين بلاد المسلمين وبلاد النصارى كما مر ، وكان السلطان محمد هذا قد عنى بجهادهم وترديد الغزو اليهم والاجلاب عليهم حتى شغل بذلك عن البلاد المراكشية وسواحلها ، فكان ذلك سببا لظهور الدولة السعدية بها سنة خمس عشرة وتسعمائة على ما نذكره ان شاء الله.

١٤١

استيلاء البرتقال على ثغر آسفي حرسه الله

قال منويل : « كان البرتقال قد تشوفوا للاستيلاء على آسفي ، وكان أهلها فيهم شجاعة أكثر من غيرهم من أهل الثغور ، فزحفوا اليها وجرى بينهم وبين أهلها قتال شديد هلك فيه عدد كبير من البرتقال ، وعظم عليهم أن تمتنع منهم بلدة صغيرة ليس لها حامية سوى أهلها، ثم طاولوها بالحصار حتى قل القوت عند أهل آسفي وأشرفوا على الهلاك ، فحينئذ شارطوا البرتقال وأسلموها اليهم على الامان . فاستولوا عليها وحصنوها غاية لتوقعهم كرة المسلمين عليهم ، فكان كذلك فانهم زحفوا اليهم بعد ثلاث سنين من أخذها ووقع بينهم وبين البرتقال حرب شديدة ، كانت صفوف المسلمين تترادف فيها كأمواج البحر ، وقتل قواد عسكر البرتقال وكبارهم، ثم قدمت عليهم شكوا دره من مادرة بالعسكر والزاد فقويت نفوس البرتقال وارتحل المسلمون عنها بعد أن أشرفوا على الفتح ، وتبعهم البرتقال لينتهزوا فيهم الفرصة فكر المسلمون عليهم واستلبوهم . وهذا أول حصار كان على آسفي .

ثم بعد سنين قلائل زحف المسلمون اليها أيضا ومعهم عدد من المدافع ، وقاتلوا قتالا صعبا وزحفوا الى السور فهدموا منه ثلمة كبيرة واشتد القتال عليها بما خرج عن العادة ، ثم رحل المسلمون من غير فتح وأعرضوا عنها مدة لم يحدثوا أنفسهم بالقتال ، وعمرت آسفي بالنصارى وانتقل اليها التجار وبنوا بها الدور ، وكانوا يسقون منها الحب ويحملونه فى السفن الى بلادهم ، ولعل ذلك لهدنة كانت لهم مع المسلمين .

ثم عادت للمسلمين بعد نحو ثلاث وعشرين سنة وقال الشيخ أبو عبد الله محمد العربي الفاسي فى «مرآة المحاسن» ما نصه : «قرأت بخط شيخنا أبى عبد الله القصار أن صاحب آسفي أخرج الشيخ أبا عبد الله محمد بن سليمان الجزولى منها فدعا عليهم، فسئل منه العفو، فقال : «أربعين سنة» فأخذها النصارى بعدها » اه . وهذا يقتضى ان استيلاءهم عليها كان فى حدود عشر وتسعمائة ،

لان وفاة الشيخ الجزولي رحمه الله كانت في سنة سبعين وثمانمائة كما مر . وعند الفرنج ما يقتضي أن استيلاءهم عليها كان بعد ذلك بسنتين أو ثلاث . والله أعلم .

زحف السلطان ابي عبد الله البرتقالي الى آصيلا

قال منويل : « لما أفضى الامر الى السلطان محمد بن محمد الشيخ الوطاسي أراد أن يأخذ بثاره من البرتقال الذين أسروه لسبع سنين ، فزحف الى آصيلا في حدود أربع عشرة وتسعمائة وحاصرها وطال قتاله عليها ثم اقتحمها المسلمون عليهم اقتحاما واقتتلوا في وسط الازقة والاسواق يومين ثم جاء المدد الى البرتقال من طنجة وجبل طارق فقويت نفوسهم وخرج المسلمون عنهم ، لكن ما خرجوا حتى هدموها وأحرقوها ولم يتركوا لهم بها الا الخربات ، ثم جد البرتقال في اصلاحها وأقاموا بها برهة من الدهر الى أن رجعت للمسلمين » .

استيلاء البرتقال على ثغر آزمور حرسه الله

قال منويل : « بعث طاغية البرتقال أربع عشرة وتسعمائة الى ثغر آزمور شكوادره فيها ألفان من العسكر وأربعمائة خيالة ، فدافعهم زيان الوطاسي ابن عم السلطان ، ونشبت مراكب البرتقال في الساحل ، وتكسر جلها وعاث فيها المسلمون ، ورجع الباقي مفلولا . ثم بعد أربع سنين بعث اليها الطاغية منويل شكوادره فيها عشرون ألفا من العسكر وألفان وسبعمائة خيالة فانتهوا الى آزمور وحاصروها بحرا ، وزحفوا اليها من الجديدة برا ، ووقع حرب شديدة بينهم وبين أهل آزمور وأهل البادية . ثم انهزم المسلمون وخرجوا

من باب تركه لهم البرتقال قصدا » قال : « لانه يقال فى المثل : الفار منك فى الحرب اجعل له قنطرة من فضة يعبر عليها » .

وقال فى «النزهة» : «كان نزول النصارى بآزمور سنة أربع عشرة وتسعمائة » قال : « وفى هذه السنة بنى النصارى حجر باديس . وفى أواخر المحرم منها أخذ النصارى — يعنى الاصبنيول — مدينة وهران ونكبوا أهلها ، فما منهم الا أسير أو قتيل الى أن أعادها الله للاسلام على يد الاتراك فى حدود العشرين ومائة وألف » اه .

قلت : أهل آزمور يزعمون أن استيلاء البرتقال على مدينتهم كان متكررا وسيأتى ما يفهم منه ذلك والله أعلم .

ومن أخبار السلطان أبى عبد الله ما وقفت عليه فى تاريخ البرتقاليين من أن السلطان المذكور كتب لطاغيتهم منويل يطلب منه أن يتقدم بالوصاة لاصحاب قراصينه البحرية أن لا يتعرضوا لمركبين له كان قد عزم على بعثهما الى الجزائر ثم منها الى تونس . وكان الطاغية لم يجبه أو أبطأ بالجواب ، فكرر اليه الكتاب ثانيا فى القضية المذكورة ، وسرد هذا المؤرخ نص الكتابين معا مترجمين بلغته، وذكر أن تاريخ الاول منهما الثالث والعشرون من جمدى سنة عشرين وتسعمائة ، وتاريخ الثانى الثامن والعشرون من ذى القعدة من السنة . اه .

استيلاء البرتقال على ثغر المعمورة حرسه الله

قال فى «نشر المثانى» : «ان الذى اختط حصن المعمورة هو المهدى الشيعى على يد بعض عماله ، وزعم بعض الفرنج أن المعمورة من بناء يعقوب المنصور الموحدى » قال : « ولما كان زمن منويل البرتقالى بلغه أن مينا المعمورة جيدة، وبلادها نفاعة ، فبعث اليها طائفة من جنده ، فوصلوا الى ساحلها ونزلوا فى البر المقابل لها وبنوا هنالك برجا لحصارها ، ثم أردفهم ملكهم المذكور

بعمارة تشتمل على مائتى مركب مشحونة بثمانية آلاف من المقاتلة » قـــال : « وكان خروج هذه العمارة من مدينة اشبونة فى اليوم الثالث عشر من يونيــه العجمى سنة ألف وخمسمائة وخمس عشرة مسيحية ، قلت : يوافقها مـــن تاريخ الهجرة تقريبا سنة احدى وعشرين وتسعمائة ، فوافت مينا المعمورة فى الثالث والعشرين من يونيه المذكور وحاصروها وألحوا عليها بالقتال أياما وبلغ الخبر بذلك الى السلطان أبى عبد الله البرتقالى فبعث أخاه الناصـــر صريخا فى جيش كثيف ، فوصل سادس اغشت من السنة المذكورة ، وقاتل البرتقال قتالا شديدا وهزمهم هزيمة قبيحة ، ثم كانت لهم الكرة على المسلمين فهزموهم واستولوا على المعمورة وثبت قدمهم بها وحصنوها بالسور الموجود بها الان واستمروا بها نحو خمس سنين ثم استرجعها المسلمون منهم فى دولة السلطان المذكور والله تعالى أعلم، وفى السنة التى استولوا على المعمورة رجعوا الى موضع مدينة آنفى فشرعوا فى بنائها ، ومن يومئذ سميت الدار البيضاء ، وبقوا بها مدة طويلة الى زمن السلطان المولى عبد الله بن اسماعيل على ما زعم منويل -

اخبار السلطان ابى عبد الله البرتقالى مع الشيخ ابى محمد الغزوانى رضى الله عنه

أصل الشيخ أبى محمد عبد الله الغزوانى دفين حومة القصور مـــن مراكش من غزوان ، قبيلة من عرب تامسنا ، وكان فى ابتداء أمره يقرأ العلم بمدرسة الوادى من عدوة الاندلس بفاس ، فحصلت له ارادة فسافر الى مراكش ولازم الشيخ التباع وتخرج به . ثم انتقل الى بلاد الهبط فنزل بها على قبيلة يقال لهم بنو فزنكار ، واجتمع عليه الناس واشتهر أمره ، وعظم صيته ، فبلغ ذلك السلطان أبا عبد الله وكان يومئذ ببلاد الهبط قد خرج اليها بقصد الغارة على نصارى آصيلا ، وكان معه فى هذه الحركة الشيخ أبو عبد

الله محمد بن غازى ـ الامام المشهور ـ ، فتوهم السلطان المذكور من أمـــر الشيخ الغزوانى وخشى على الدولة عاقبة أمره ، وأغراه به مع ذلك الفقيــه ابن عبد الكبير البادسى السفيانى الاصل . وكان هذا الفقيه يصحب الـــولاة والعمال ويخرج فى بعوثهم قاضيا ، فكثرت سعايته بالشيخ حتى وقر ذلك فى نفس السلطان فبعث اليه فحضر وأمر بالقبض عليه بالموضع المعروف بتاجنـــاوت ، وجعله فى سلسلة وبعث به الى فاس ، وتقدم فى شأنه الى ابن شقرون صاحب شرطه بقصبة فاس القديم ، وكان الشيخ ابن غازى قد مرض فى هذه الغزوة وأمر السلطان بحمله الى منزله من فاس ، فلما وصل الى قرب عقبة المساجين اسند به الحال وأمر أصحابه أن يريحوا به هنالك ، فبينما هو كذلك اذ مر به الشيخ الغزوانى فى سلسلته فسأل الموكلين به أن يعوجوا به على الشيخ ابن غازى كى يعوده ويؤدى حقه ، فلما وقف عليه طلب ابن غازى منه الدعاء فدعا له بخير وانصرف ، فلما غاب عنه قال ابن غازى لاصحابه : « احفظوا وصيتى فانى راحل عنكم الى الله تعالى بلا شك » قالوا له ياسيدى : « ما عندك باس » فقال : « ان الله وعدنى أن لايقبض روحى حتى يرينى وليا من أوليائه ، وقد أرانيه الساعة فدلنى ذلك على انقضاء الاجل » فحملوه من حينه الى منزله فكان آخر العهد به. هكذا ساق هذا الخبر صاحب « الدوحة » فى ترجمتى الشيخين المذكورين .

وكانت وفاة ابن غازى أواخر جمدى الاولى سنة تسع عشرة وتسعمائة وقال صاحب «المرآة» عن بعض شيوخه بعد أن ذكر سعاية ابن عبد الكبير بالشيخ الغزوانى ما نصه : «فحرك الشيخ الغزوانى لزيارة ضريح الشيخ أبى سلهام فعرض له العروسى قائد القصر الكبير وناوله كتاب السلطان يأمره فيه بقدوم الشيخ الى فاس دار الملك اذ ذاك ، فقال له الشيخ : « طاعة السلطان واجبة » وقـــال للزائرين معه : « بلغت النية » فتوجه الشيخ الى فاس من ذلك المكان وكلما بات فى منزل ذهبت جماعة من الذين معه فلم يصل معه الا القليل . وكان الشيخ أبو البقاء عبد الوارث اليالصوتى اذ ذاك ساكنا بفاس ، ولم يكن صحب الشيخ قبل ذلك ، فلما دخل الشيخ حضرة فاس لقيه أبو البقاء المذكور فسلم

عليه ، فشد الشيخ يده على يده فلم يرسلها حتى عاهده على الرجوع ، فلما انفصل عنه اشترى خبزا وعنبا وحمل ذلك الى الشيخ وأصحابه فوجدهم عند القاضي أبي عبد الله محمد بن أحمد بن‌عبد الله اليفرني المكناسي ، وهو مؤلف « المجالس المكناسية » ، فوجدهم في المسجد القريب من دار القاضي المذكور بدرب السعود ، فناولهم ما معه ووجد الشيخ موكلا به وأصحابه يدخلون ويخرجون . ثم دخل القاضي على الشيخ بالمسجد فقال له : « ما هذا الذي يذكر عنك ؟ » قال أبو البقاء : «فتكلمت أنا وقلت : ان هذا الرجل قد نزل بلدا عظيمة المناكر وأخذت أعدد مناكرها ، وصار هذا السيد ينهاهم عن ذلك ، فهدى الله على يده من هدى وشنئه من أبى » فقام القاضي وركب الى دار السلطان ، ثم رجع الى منزله فبات ومن الغد ركب الى دار السلطان أيضا ومعه الشيخ الغزواني، فلما اطمأن بهم مجلس السلطان وكان فيه صاحب تازا ، وهو أبو العباس أحمد ابن الشيخ أخو السلطان المذكور ، سكت الجميع وتكلم كاتب السلطان وامام صلاته. قال صاحب «المرآة»: «ولم يسم لنا». فقال للشيخ : « ما هذا الذي يذكر عنك ؟ » فقال له الشيخ : أنت لا تتكلم حتى تغتسل من جنابتك فاستشاط الكاتب غضبا ، فقال له أخو السلطان : « هؤلاء القوم يعنون الجنابة غير ما تعنيه العامة » ــ يشير الى ما في الحكم ــ فقال له السلطان: «من أين تعرف هذا؟» فقال له: «من سيدي محمد بن عبد الرحيم بن يجبش»ففرح السلطان بمعرفة أخيه ذلك وقال للشيخ: «نحن نريد قربك وأن تكون معنا في هذه المدينة » فقال له : « على بركة الله » فانتقل الى فاس القديم وبنى خارج باب القليعة داخل باب الفتوح وأقام هنالك ما شاء الله ،قيل سبع سنين الى أن كانت سنة تعذر فيها المطر وأخذ الناس في استخراج السواقي للحرث فاخرج الشيخ من وادي اللبن ساقية لم يكن في سواقي السلطان وغيره مثلها ، فبعث اليه أخوه السلطان، وهو الناصر. الملقب بالكديد بالكاف المعقودة والدال المشددة على لغة العامة ، وقال له : « نحن أحق بتلك الساقية » فقال له الشيخ : « خذها » وأخذ في الرحيل الى مراكش ولما توجه تلقاءها أخذ خنيفه في يده وجعل يشير به من جهة فاس الى جهة مراكش ويقول :

«أيا ياسلطنة الى مراكش» ، قال صاحب المرآة : « هذا حديث شيخنا أبى عبد الله النيجى » قال «وآخنيف معروف وهو نوع من البرانس السود ومعنى أيا بلغةعامة المغرب : سيرى معى » : وموضع بنى فزنكار أظنه تاصروت فان بها رسما منسوبا اليه الى الآن ، وانه منزله الذى كان يأوى اليه ، وما زالت آثاره هنالك ، والدار التى بنى بباب القليعة هى المتصيرة الى تليمذه الشيخ أبى عبد الله محمد بن على الهروى المعروف بالطالب ، ولعل سنة اخراج السواقى هى سنة ست وعشرين وتسعمائة ، فانه قد تعذر فيها المطر وحدث الغلاء الكبير المؤرخ بسنة سبع وعشرين وتسعمائة ، وكأنه أشار الى انتقال السلطنة عن بنى وطاس ملوك فاس الى الشرفاء السعديين ملوك مراكش يومئذ والله أعلم .

نهوض السلطان ابي عبد الله البرتقالى الى مراكش ومحاصرته ابا العباس الاعرج السعدى بها

قد تقدم لنا أن ظهور الدولة السعدية ببلاد السوس كان فى سنة خمس عشرة وتسعمائة ، وما زال أمرهم فى الزيادة الى أن كانت دولة أبى العباس الاعرج منهم ، فاستفحل أمره وبعد صيته ، وفتك بنصارى السوس فكاتبه أمراء هنتاتة أصحاب مراكش ودخلوا فى طاعته ، فانتقل اليها وملكها فى حدود الثلاثين وتسعمائة . ولما اتصل خبره بالسلطان أبى عبد الله وهو يومئذ بفاس قامت قيامته ، وأقبل فى جموع عديدة ومعه وزيره ابن عمه المسعود بن الناصر كذا فى «النزهة» . والذى عند غيره: أن الوزير الذى جاء معه هو الناصر أخو السلطان المذكور . ولما رأى أبو العباس السعدى مالا قبل له به تحصن بمراكش وشحن أسوارها بالرماة، فتقدم السلطان أبوعبد الله ونصب الانفاض على مراكش ودام الحصار عليها أياما، فيحكى أنه قيل للشيخ أبى محمد الغزوانى وكان قد استوطن مراكش يومئذ : ان أهل مراكش سئموا الحصار ، فركب

الشيخ فى جماعة من أصحابه وخرج من باب فاس المعروف اليوم بباب الخميس ، فوجد رماة السلطان أبى عبد الله يرمون من علا الاسوار من أهل البلد ، فوقف الشيخ ينظر فجاءت رصاصة ضربت صدره وخرقت الجبة التى عليه و التصقت بلحمه كأنها وقعت فى صخرة صماء ، فقبض عليها بيده وقال : «هذه خاتمة حربهم » ثم رجع الى منزله فوردت الانباء على السلطان أبى عبد الله فى تلك الليلة بان بنى عمه قد قاموا عليه بفاس ونبذوا دعوته ، فأصبح من الغد راحلا الى فاس ، وظهر مصداق ما قال الشيخ الغزوانى ، ولم يعد لبنى وطاس وصول بعدها الى مراكش ولا الى أعمالها ، والله تعالى أعلم .

ذكر وزراء السلطان أبي عبد الله وما قيل فيهم

كان من جملة وزرائه: ابن عمه المسعود بن الناصر ، وهو الذى زحف معه الى مراكش على ما فى « النزهة » ، وكان من جملة وزرائه القائمين بامره: أخوه الناصر بن محمد الشيخ ، المعروف عند عامة فاس بابى علاقة وبالكدبد على ما مر . قال فى «الجذوة»: «لقب بذلك لكثرة سفكه الدماء واقدامه عليه ، فكان يقتل الناس ويجزرهم كثيرا ، وكذا بمكناسة أيام وزارته بها ، كذا حدث غير واحد ممن أدركه ورآه وتوفى الوزير المذكور سنة ثلاثين وتسعمائة » .

وفاة السلطان ابى عبد الله رحمه الله

كانت وفاة السلطان أبى عبد الله البرتقالى سنة احدى وثلاثين وتسعمائة على ما فى «الجذوة» . ويؤخذ من «النزهة» أنها كانت سنة اثنتين وثلاثين بعدها والله أعلم . وولى الامر من بعده أخوه أبو حسون بولاية عهده اليه .

الخبر عن الدولة الاولى للسلطان ابي حسون بن محمد الشيخ الوطاسي

هو أبو الحسن علي بن محمد الشيخ ابن أبي زكرياء يحيى بن زيان الوطاسي، ويعرف بأبي حسون البادسي. قال في «النزهة» : «بويع بفاس سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة ثم قبض عليه ولد أخيه أبو العباس أحمد بن محمد البرتقالي وخلعه وأشهد عليه بالخلع آخر ذي الحجة من السنة المذكورة انتهى

الخبر عن دولة السلطان ابي العباس احمد بن محمد الوطاسي رحمه الله تعالى

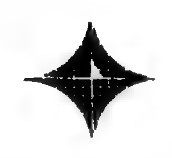
هو أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله محمد البرتقالي ابن أبي عبد الله محمد الشيخ ابن أبي زكرياء يحيى بن زيان الوطاسي ، بويع يوم خلع عمه أبي حسون آخر ذي الحجة متم سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة ، قال ابن القاضي : « وقد رأيت البيعة التي كتبت له بخط الامام أبي محمد عبد الواحد بن أحمد الوانشريسي من انشائه وعليها خطوط جماعة من فقهاء فاس كأبي العباس الحباك ، والفقيه أبي العباس أحمد الماواسي وغيرهما » اه .

قال أبو عبد الله اليفرني في «النزهة» : «وانظر ما وجه كتب البيعة لاحمد مع أن خلع أبي حسون لم يكن لموجب، والوانشريسي من أهل الورع وقال: ولعله لامر لم يظهر لنا والله أعلم» اه. وقال ابن عسكر في «الدوحة» : «لما توفي السلطان أبو عبد الله البرتقالي ودالت الدولة لولده السلطان أبي العباس أحمد وغص بالشرفاء القائمين عليه ببلاد السوس وزوحم بهم ، عقد الهدنة مع النصارى المجاورين له ببلاد الهبط ، وصاحبهم سلطان البرتقال ، فبلغ ذلك الشيخ أبا عبد الله محمد بن يحيى البهلولي ، وكان له رغبة في الجهاد وممن له وصلة بالسلطان أبي عبد الله ، فكان اذا جاءه زائرا حضه على الغزو

فيساعده على ما أراد من ذلك . فلما بلغ الشيخ المذكور ما عقده السلطان أبو العباس من الصلح آلى على نفسه أن لا يلقى السلطان المذكور ، ولا يمشي اليه ولا يقبل منه ما كان عينه له والده من جزية أهل الذمة بفاس لقوته وقوت عياله، فمكث على ذلك الى أن حضرته الوفاة ، وكان في النزع وأصحابه دائرون به فقال له بعضهم . « ياسيدى أخبرك أن السلطان أمر بالغزو وأمر بالنداء به وحض الناس عليه ، والمسلمون في شره لذلك وفرح » ففتح الشيخ عينيه وتهلل وجهه فرحا وحمد الله وأثنى عليه ، ففاضت نفسه وهو مسرور بذلك » . اه

وقعة آنماي بين الوطاسيين والسعديين

قد تقدم لنا في خبر السلطان أبي عبد الله أنه لما حاصر مراكش وأصابت الرصاصة الشيخ الغزواني قال: « هذه خاتمة حربهم » ولم يعد لبني وطاس وصول الى مراكش ولا الى أحوازها . قال في «النزهة» : فكان أبو العباس الاعرج يتلاقى مع أبي العباس الوطاسي بتادلا وأحوازها» قال : «وكانت بينهما معركة بموضع يقال له آنماى وذلك في ذى القعدة سنة خمس وثلاثين وتسعمائة فافترقا على اصطلاح » اه . وآنماى موضع قرب مراكش به زاوية الشيخ أبي العزم رحال الكوش .



عقد الصلح بين السلطانين ابي العباس الوطاسى و ابي العباس السعدى رحمهما الله تعالى



لما رأى أهل المغرب ما وقع بين السلطان أبى العباس أحمد الوطاسى صاحب فاس ، وأبى العباس أحمد السعدى المعروف بالاعرج صاحب مراكش من التقاتل على الملك والتهالك عليه ، وفناء الخلق بينهم ، دخلوا فى الصلح بينهم والتراضى على قسمة البلاد ، وحضر لذلك جماعة من العلماء والصلحاء منهم أبو حفص عمر الخطاب دفين جبل زرهون ،وأبو الرواين المحجوب دفين مكناسة الزيتون ، وكان صاحب حال وجذب ، فجعل الناس يوصونه بالسكوت مخافة أن يفسد عليهم أمرهم ، فلما دخلوا على أبى العباس الاعرج وأخيه وزيره محمد الشيخ وتكلموا فيما جاءوا لاجله ، وجدوا فيهما شدة وغلظة وامتناعا من مساعدتهم على ما أرادوا ، فحلف أبو حفص الخطاب لا دخلوها ـ يعنى فاسا ـ ما دمت على وجه الارض . فما دخلوها حتى مات بعد مدة . فكان بعضهم يقول لو كان بنو وطاس يعرفون شيئا ما دفنوا أبا حفص الخطاب ـ يعنى لتركوه فى تابوت على وجه الارض ـ لانه حلف لا دخلوها ما دام على وجه الارض ، حكاه صاحب « ممتع الاسماع» . وذكر فى شرح «زهرةالشماريخ» : أن الصلح انبرم بين الطائفتين ، على أن للاشراف من تادلا الى السوس ، ولبنى وطاس من تادلا الى المغرب الاوسط ، وان ممن حضر الصلح المذكور قاضى الجماعة بفاس أبا الحسن على بن هرون المطغرى ـ بالطاء المهملة ـ مطغرة تلمسان ، والامام الشهير أبا مالك عبد الواحد بن أحمد الوانشريسى وغيرهما من مشايخ فاس. ويذكر أنه لما تواطأت كلمة الحاضرين على الصلح وعقدوا شروطه ، وهدأت الاصوات ، وسكن اللجاج ، أتى بدواة وقرطاس ليكتب الصلح ، فما وضعت الدواة بين يدى أحد الفقهاء الحاضرين الا وجم وانقبض ودفعها عن نفسه ، استحياء فى ذلك المحفل أن يكتب ما لا يناسب الجهتين ، فقام قاضى الجماعة المذكور وأخذ الدواة وأساودها ووضعها

بين يدى أبى مالك المذكور ، فأنشأ أبو مالك فى الحين خطبة بليغة ونسج الصلح على منوال عجيب ، واخترع اسلوبا غريبا تحير فيه الحاضرون وعجبوا من ثبات جأشه ، وجموم قريحته فى مثل ذلك المشهد العظيم الذى تخرس فيه ألسن الفصحاء هيبة واكبارا ، فقام قاضى الجماعة وقبله بين عينيه وقال : « جزاك الله عن المسلمين خيرا » ، «وما هى بأول بركتكم يا آل أبى بكر » وكان ذلك كله فى حدود أربعين وتسعمائة » اه .

غزوة الحمر قرب آصيلا حرسها الله

ذكر صاحب « الدوحة » فى ترجمة الشيخ أبى الحسن على بن عثمان الشاوى رحمه الله ، انه استشهد فى وقعة الحمر التى كانت فى حدود أربعين وتسعمائة بين النصارى والقائد عبد الواحد بن طلحة العروسى على مقربة من آصيلا . قال : «حدثنى غير واحد ممن يوثق به ممن حضر الوقعة وبعضهم يصدق بعضا قالوا : لما انهزم الناس استقبل الشيخ أبو الحسن النصارى وسيفه فى يده وهو يتلو بردة البوصيرى ، فكان ذلك آخر العهد به ، ولما رجع الناس من الغد ليحملوا قتلاهم لم يوقف له على عين ولا أثر ، وانما وجد غنباز من لباسه عند النصارى وفيه أثر طعنة فى صدره » اه . كلام الدوحة .

وفى «المرآة»: «أن الشيخ المذكور مات فى حياة شيخه الغزوانى شهيدا فى الجهاد سنة خمس وعشرين وتسعمائة اه . ولعله الصواب .

و العروسى المذكور هو من أمراء بنى عبد الحميد العروسيين أصحاب قصر كتامة ، وكانت لهم رياسة وسياسة وجهاد فى العدو الى أن انقرض أمرهم أعوام الخمسين وتسعمائة .

قال فى « الدوحة » : « أخبر غير واحد من فقهاء قصر كتامة أن الشيخ أبا الرواين جاء الى القصر ، وصاحبه يومئذ القائد عبد الواحد العروسى ، فى عصبة من أقاربه أولاد عبد الحميد ، فصعد أبو الرواين صومعة المسجد ثم

نادى بأعلى صوته .« يابنى عبد الحميد اشنروا منى القصر والا خرجتم منه فى هذه السنة » ، فسمع القائد عبد الواحد ذلك فقال : « ان كان القصر له أو بيده فلينزعه منا ، ما بقى لنا الا كلام الحمقى نلتفت اليه » ومن الغد خرج الشيخ أبو الروابن من البلد وهو يقول: « القائد عبد الواحد وأهله يخرجون من القصر ولا يعودون اليه أبدا . فكان كذلك بقدرة الله تعالى .

وقعة ابى عقبة بوادى العبيد وما كان فيها بين الوطاسيين والسعديين من القتال الشديد



هذه الوقعة من أعظم الوقعات التى كانت تكون بين الوطاسيين والسعديين وما زالت العامة تتحدث بها فى أنديتها الى الان ، ويبالغون فى وصفها والاخبار عنها ، وقد ذكرها شعراؤهم فى أزجالهم الملحونة ، وهى محفوظة فيما بينهم ، وذلك انه لما طمى عباب السعديين على بلاد الحوز وكادوا يلجون على الوطاسيين دار ملكهم من فاس ، نهض اليهم السلطان أبو العباس الوطاسى أواخر سنة اثنتين وأربعين وتسعمائة يجر الشوك والمدر فى جمع كثيف من الجند وقبائل العرب فى حللها وظعنها ، وجاء أبو العباس السعدى فى قبائل الحوز بحللها وظعنها كذلك فكان اللقاء بمشرع أبى عقبة ، أحد مشارع وادى العبيد من تادلا فنشبت الحرب ، وتقاتل الناس ، وبرز أهل الحفائظ منهم والترات ، وقاتل الناس على حرمهم وأحسابهم وعزهم ، فافنى بعضهم بعضا الا قليلا ، ودامت الحرب أياما على ماقيل الى أن كانت الهزيمة على الوطاسيين عشية يوم الجمعة ثامن صفر سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة . قال فى «الجذوة» : « فرجع السلطان أبو العباس الوطاسى الى فاس وبقيت محلته وقصبة تادلا بيد الشريف السعدى» قال : « وتسمى هذه السنة سنة أبى عقبة . »

وقال فى «المرآة» : « ومما اشتهر من كرامات الشيخ أبى طلحة محمد

المصباحي الشاوي الزناتي أنه لما التقى مقاتلة فاس وسلطانهم أبو العباس أحمد الوطاسي ومقاتلة مراكش وسلطانهم أبو العباس أحمد الاعرج ومعه أخـــوه المتولى بعده أبو عبد الله محمد الشيخ سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة على مشرع أبي عقبة من وادي العبيد انهزم السلطان أبو العباس الوطاسي وتفرقت جموعه وتبعته الخيل فكادوا يقبضون عليه ، فحضر هنالك رجل على فرس أنثى فجعل يحول بينه وبينهم ويقول له: «سر ياأحمد ولا تخف» ولم يزل معه الى أن رجعوا عنه وأمن الطلب ، وقد عرف السلطان صفته وتحققها ولم يزل يسأل عن صاحب تلك الصفة حتى قيل له: هذه صفة أبي طلحة المصباحي ، وتحقق ذلك ، ولما كان خروج السلطان المذكور الذي وصل فيه تطاوين وتزوج بها الحرة بنت الامير السيد أبي الحسن على بن موسى بن راشد الشريف ، وذلك في ربيع الاول سنة ثمان وأربعين وتسعمائة . وبتطاوين بنى بها وقصد أبا طلحة المذكور ونزل عليه ، فلما رآه عرفه وأيقن أنه الرجل الذي أغاثه فاكب عليه السلطان وذكر ما وقع له معه فقال الشيخ : « يا رب كيف العيش مع هذه الشهرة فاقبضني اليك » فمات عقب ذلك من سنته قال في «المرآة» : « سمعت هذه الحكاية من غير واحد وسألت شيخنا أبا القاسم بن أبي طلحة المذكور فقال لي: «أعقل مجيء السلطان وانا صغير جدا أقعد في حجر أبي وعند ركبته » اه . قلت والامير أبو الحسن بن راشد المذكور هو الذي اختط مدينة شفشاون كمامر. وذكر «في المرآة» : أن وفاته كانت سنة سبع عشرة وتسعمائة ، فيكون السلطان المذكور انما تزوج ابنته بعد وفاته ولعله خطبها من أخيها الامير أبي عبد الله محمد بن أبي الحسن والله أعلم.

واعلم أن ما سلكناه هنا من تقديم قضية الصلح على وقعة أبي عقبة هو ما يقتضيه التاريخ الذي صرحوا به ، وسيأتي بعد هذا ما ربما يفهم منه أن الامر بالعكس . والجواب أن قضية الصلح تكررت حسبما يؤخذ مما مر والله أعلم . وفي هذه السنة أيضا عقد السلطان أبو العباس الوطاسي مع برتقال آسفي صلحا على ثلاث سنين ، ودخل في هذا العقد آسفي والجديدة وآزمور وكتب البرتقال بذلك الى ملكهم ووقعت المحادة في البلاد ، وتفرغ الوطاسي لقتال السعديين.

بناء السلطان ابى العباس الوطاسى قنطرة الرصيف بفاس حرسها الله

كان السلطان أبو العباس أحمد الوطاسى قد جدد بناء قنطرة الرصيف بحضرة فاس ، وذلك منتصف سنة احدى وخمسين وتسعمائة ، وفى ذلك يقول الفقيه أبومالك عبد الواحد بن أحمد الوانشريسى مشيرا الى التاريخ المذكور :

جسر الرصيف أبو العباس جدده ... فخر السلاطين من أبناء وطاس
فجاء فى غاية الاتقان مرتفقا ... لمن يمر به من عدوتى فاس
وكان تجديده فى نصف عام غنا ... من هجرة المصطفى المبعوث للناس

وقال الفقيه أبو مالك أيضا :

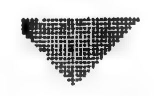
أيا أهل فاس سدد الله سدكم ... برأى أبى العباس حامى حمى فاس
وأحيى به أشجاركم وثماركم ... على رغم قوم منكرين من الناس
فدام ودام السعد يخدم مجده ... وفاز من الشكر الجميل باجناس

وقال الشيخ أبو زكرياء يحيى السراج :

ألا سدد الله رأى الذى ... بتسديده سدسدا حصينا
وخلد فى عزه ملكه ... وأولاه فتحا ونصرا مبينا
امام الهدى أحمد المرتضى ... مبيد العدا عدة المسلمينا

وقال الامام أبو الحسن على بن هرون :

لقد سدد الله رأى العماد ... وأبطل فى السد رأى الجهول
وقرب ما رامه من بعاد ... بمولاى أحمد مدحى يطول
فطردا وعكسا لسانى يناد ... « عقول الملوك ملوك العقول »



وقعة وادى درنة بتادلا وأسر الامير ابي زكرياء الوطاسى ومهلكه رحمه الله

ذكر فى «المرآة» عند الكلام على أبى عبد الله محمد بن يوسف الفاسى. وهو والد الشيخ أبى المحاسن رضى الله عنه ، أن أبا عبد الله المذكور كانت له وجاهة كبيرة عند أمير القصر أبى زكرياء يحيى بن أبى عبد الله البرتقالى ، وهو يومئذ أخو السلطان أبى العباس الوطاسى ، قال : فانتفع بوجاهة أبى عبد الله الفاسى خلق كثير ، ولم يسامح هو نفسه فى نيل شيء من الدنيا بسبب ذلك الجاه الى أن أسر الامير أبو زكرياء المذكور فى وقعة وادى درنة من تادلا للشرفاء على بنى وطاس فى رجب سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة، ومات فى تلك الليالى القريبة غما وأسفا رحمه الله ، قلت : وكان سلطان السعديين يومئذ محمد الشيخ الملقب بالمهدى ، فانه تغلب على أخيه الاعرج وانتزع منه الملك وسجنه كما يأتى ان شاء الله تعالى .

استيلاء السلطان محمد الشيخ السعدى على فاس وقبضه على بنى وطاس ومهلك سلطانهم ابى العباس رحمه الله تعالى بفضله

لما غلب السلطان محمد الشيخ السعدى على أخيه أبى العباس الاعرج واستولى على مراكش ، طمحت نفسه للتوغل فى بلاد الغرب وفراه ، فتفرغ لحرب بنى وطاس ونكث ما كان بينه وبينهم من الصلح ، ورموا منه بحجر الارض ، وردد اليهم البعوث والسرايا وأكثر فيهم من شن الغارات ، وصار يستلبهم البلاد شيئا فشيئا الى أن استولى عليها ، وكان أول ما ملك من أمصار الغرب مكناسة الزيتون ، افتتحها عقب سنة خمس وخمسين وتسعمائة بعد حصار ومقاتلة ، ثم تقدم الى فاس فالح عليها بالقتال وضايقها بالحصار مدة قريبة من السنة ، ثم استولى عليها بعد أن أسر سلطانها أبا العباس الوطاسى وصار فى

قبضته . وكان دخوله اياها أوائل سنة ست وخمسين وتسعمائة ولما دخلها تقبض على الوطاسيين أجمع وبعث بهم مصفدين الى مراكش، عدا أبا حسون المخلوع فانه فر الى الجزائر الى أن كان من أمره ما نذكره . ثم ان الشيخ السعدى عدر ببني وطاس فيما قيل بعد أن أظهر العفو عنهم وسرح سلطانهم أبا العباس من ثقافه والله أعلم. وفي « الجذوة» : «كانت وفاة السلطان أبي العباس الوطاسي بمراكش قرب سنة الستين وتسعمائة » اه .

وزعم منويل انه قتل مذبوحا بدرعة . قال : « زحف أبو عبد الله محمد الشيخ السعدى الى فاس فبرز اليه أبو حسون الوطاسي ، وكان قائد جيش ابن أخيه ، ووقع بينهما قتال عظيم انهزم فيه أبو حسون الى فاس . وحاصره السعدى بها سنتين ، ، ولما قلت الاقوات وعجز الوطاسيون عن الدفاع نزلوا على حكم السعدى فقبض على أبي العباس الوطاسي ، وفر أبو حسون الى الجزائر واستقل محمد الشيخ السعدى بامر المغرب وغرب الوطاسيين الى درعة ، فقتل أبا العباس الوطاسي الذي كان تلميذا له ذبحا » اه كلامه .

بقية اخبار السلطان ابي العباس الوطاسي وسيرته



كان من جملة وزراء السلطان أبي العباس المذكور ابنه محمد ، ومن أخباره : ما ذكره في «الدوحة» في ترجمة الشيخ أبي عثمان سعيد بن أبي بكر المشترائي دفين مكناسة الزيتون ، قال : « من كراماته الشائعة ما اتفق له مع الوزير أبي عبد الله محمد بن السلطان أبي العباس أحمد الوطاسي ، لما استوزره أبوه وولاه على مكناسة فكان بها فغضب ذات يوم على أحد المشاورية فهرب المشاورى الى زاوية الشيخ أبي عثمان فبعث الوزير الى الشيخ بان عليه الامان ويبعثه اليه فقال له الشيخ : « ان شئت أن تذهب الى سيدك فافعل » فقال المشاورى: «ياسيدى أخاف أن يقتلني» فقال الشيخ : « ان قتلك فالله يقتله.» فدهب المشاورى الى الوزير وبقى عنده ليلتين وفي الثالثة قتله ، ولم يظهر له

فجاءت أمه الى الشيخ وقالت ياسيدى: «ان ولدى قد قتله الوزير» فقال لها : « سبق ذلك فى علم الله وان الاخر سيلحقه الآن » ـ يعنى الوزير ـ فوعك الوزير تلك الليلة وسلط عليه اكال فى جسمه فتمزق لحمه وتقطع شيئا فشيئا الى أن هلك لليال قلائل من مرضه ، فاعتبر الناس والسلطان بذلك ، ومن ذلك الوقت زاد الامراء وغيرهم فى احترام حرم زاوية الشيخ المذكور » اه.

وكان للسلطان أبى العباس اعتقاد فى المتصلحين وأرباب الاحوال ، فمن فوقهم من أهل العلم والدين ، من ذلك ما حكاه فى «الدوحة» أيضا فى ترجمة أبى الحسن على الصنهاجى ، المعروف بالدوار ، قال: «كان أبوالحسن المذكور من الملامتية، وكان يدخل دور الملوك من بنى وطاس فيتلقاه النساء والصبيان يقبلون يديه وقدميه فلا يلتفت الى أحد ، ويعطونه الثياب الرفيعة والذخائر النفيسة ، ويلبسه السلطان ـ يعنى أبا العباس ـ من أشرف لباسه ، فاذا خرج تصدق بجميع ذلك ، ويمر على حوانيت الزياتين فيغمس اكمام الحلة التى تكون عليه ويبرقمها بالزيت أو بالسمن ، ولا يزال يدور فى الاماكن ويصرخ باسم الجلالة » اه . قالوا :وكان السلطان أبو العباس المذكور واقفا عند اشارة الفقيه أبى مالك عبد الواحد بن أحمد الوانشريسى ، وهو ابن صاحب «المعيار» ، لا يتعدى أمره ، ولا يخالف رأيه ، كما وقع له فى مسألة رجل اسلامى يعرف بعبد الرحمن المنجور ، وكان تاجرا جامعا للمال ، فشهد عليه فى حكاية طويلة أربعون رجلا من العدول باستغراق ذمته ، فاخذه السلطان أبو العباس الوطاسى وقتله ، وصير أملاكه لبيت مال المسلمين ، فرغب أولاد المنجور من السلطان أن يؤدوا له عشرين ألف دينار ويرد اليهم أملاكهم ويسقط عنهم بينة الاستغراق، فقال السلطان لحاجبه: «اذهب الى الشيخ عبد الواحد الوانشريسى وشاوره فى ذلك وعرفه بانى فى الحاجة الى هذا المال لاجل هذه الحركة التى عرضت لى » فذهب الحاجب اليه وأخبره بمقالة السلطان ورغبه فى قبول ذلك . فقال الشيخ : « والله لا ألقى الله بشهادة أربعين رجلا من عدول المسلمين لاجل سلطانك، اذهب وقل له: «انى لا أوافق على ذلك ولا أرضاه » فرجع الحاجب الى السلطان وأخبره بما قال الشيخ فرجع السلطان

عما عزم عليه .

ونظير هذا ما اتفق له معه أيضا ،وهو أن الناس خرجوا يوم العيد للصلاة فانتظروا السلطان فأبطأ عليهم ولم يأت الى خروج وقت الصلاة ، وحينئذ أقبل السلطان أبو العباس فى أبهته ، فلما انتهى الى المصلى نظر الشيخ أبو مالك فرأى أن الوقت قد فات فرقى المنبر وقال : معشر المسلمين أعظم الله أجركم فى صلاة العيد ، فقد عادت ظهرا » ثم أمر المؤذن فأذن وأقام الصلاة فتقدم الشيخ أبو مالك وصلى الناس الظهر ، فخجل السلطان أبو العباس واعترف بخطيئته رحم الله الجميع .

الخبر عن الدولة الثانية للسلطان ابى حسون الوطاسى رحمه الله

لما دخل السلطان أبو عبد الله محمد الشيخ السعدى الى فاس سنة ست وخمسين وتسعمائة ، وقبض على بنى وطاس بها حسبما تقدم ، فر أبو حسون هذا الى ثغر الجزائر (*) حقنا لدمه ومستجيشا لتركها على السعدى . وكان الترك قد استولوا على المغرب الاوسط وانتزعوه من يد بنى زيان كما سيأتى،

(*) ذكر المؤرخ أوكيسط كور الفرنسى فى كتابه « Établissement des Dynasties des Chérifs au Maroc » « قيام الدولتين الشريفتين بالمغرب » . ان ابا حسون فر اولا الى اصبانيا مستعديا الامبراطور شار نكان على عدوه السعدى فوجده بالمانيا فالتحق به وحضر معه فى حروبه ولما طال انتظاره لنجدته ولم يفعل رجع ادراجه الى اصبانيا ومنها دخل للبرتغال فاعطاه ملكها ست قطع من الاسطول لتعينه بشواطىء الريف فلم يتمكن من النزول لبلاد الريف فتوجه حينئذ بحرا للجزائر وقيل اسره الاسطول الجزائرى وهناك اتفق مع باشاها صالح رئيس على توجيه الجيش معه للمغرب كما هو معلوم . راجع الكتاب المذكور صفحة ١٠٥ وما بعدها فقد بسط القول فى الموضوع

فلم يزل أبو حسون عندهم يقتل لهم فى الغارات والسنام ويحسن لهم بلاد المغرب الاقصى ويعظمها فى أعينهم ،ويقول : ان المتغلب عليها قد سلبنى ملكى وملك آبائى وغلبنى على تراث أجدادى فلوذهبتم معى لقتاله لكنا نرجو الله تعالى أن يتيح لنا النصر عليه ويرزقنا الظفر به ، ولا تعدمون أنتم مع ذلك منفعة من ملء أيديكم غنائم وذخائر ، ووعدهم بمال جزيل فأجابوه الى ما طلب وأقبلو معه فى جيش كثيف تحت راية باشاهم صالح التركمانى المعروف بصالح رئيس ، الى أن اقتحموا حضرة فاس بعد حروب عظيمة ومعارك شديدة وفر عنها محمد الشيخ السعدى الى منجاته .

وكان دخول السلطان أبى حسون الى فاس ثالث صفر سنة احدى وستين وتسعمائة (*) . ولما دخلها فرح به أهلها فرحا شديدا ، ونزل هو عن فرسه وصار يعانق الناس كبيرا وصغيرا ، شريفا ووضيعا ، ويبكى على ما دهمه وأهل بيته من أمر السعديين واستبشر الناس بمقدمه وتيمنوا بطلعته . وقبض على كبير فاس يومئذ القائد أبى عبد الله محمد بن راشد الشريف الادريسى ، واطمأنت به الدار ثم لم يلبث السلطان أبو حسون الا يسيرا حتى كثرت شكاية الناس اليه بالترك ، وانهم مدوا أيديهم الى الحريم وعاثوا فى البلاد . فبادر بدفع ما اتفق معهم عليه من المال وأخرجهم عن فاس وتخلف بها منهم نفر يسير .



---

[*] ذكر صاحب «الدوحة» فى ترجمة سيدى عبد الله الكوش ان ابا عبدالله الشيخ خرج من فاس مزعجا فى شهر محرم سنة ستين هـ

١٦١

مجيء السلطان محمد الشيخ السعدى الى فاس واستيلاؤه عليها ومقتل السلطان ابى حسون رحمه الله

لما فر السلطان محمد الشيخ السعدى من وقعة الاتراك بفاس وصل الى مراكش فاستقر بها وصرف عزمه لقتال أبى حسون ، فاخذ فى استنفار القبائل وانتخاب الابطال وتعبية العساكر والاجناد فاجتمع له من ذلك ما اشتد به أزره وقوى به عضده ، ثم نهض بهم الى فاس فخرج اليه السلطان أبو حسون فى رماة فاس وما انضاف اليهم من جيش العرب فكانت الهزيمة على أبى حسون فرجع الى فاس وتحصن بها ، فتقدم الشيخ السعدى وحاصره الى أن ظفر به فى وقعة كانت بينهما بالموضع المعروف بمسلمة ، فقتله واستولى على حضرة فاس وصفا له أمرها . وكان استيلاؤه عليها يوم السبت الرابع والعشرين من شوال سنة احدى وستين وتسعمائة على الصواب خلاف ما وقع فى «الدوحة» والله أعلم . وبمقتل السلطان أبى حسون رحمه الله انقرضت الدولة المرينية بالمغرب والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين .

وبقى علينا الالماع بأواخر دولة بنى زيان ملوك تلمسان وكيف كان انقراض أمرهم ، فلنشر الى ذلك فنقول : كانت دولة بنى زيان على ما علمت من الاضطراب سائر أيام بنى مرين ، وكان منهم فى صدر المائة التاسعة السلطان الواثق بالله من أمثل ملوكهم ، وغلبهم على تلمسان فى تلك المدة السلطان أبو فارس عبد العزيز بن أحمد الحفصى فأخذوا بطاعته . ثم بعد موته سنة سبع وثلاثين وثمانمائة اعتزوا بعض الشىء الى أن كانت دولة السلطان أبى عمرو عثمان بن محمد الحفصى ، فغزا تلمسان أعوام السبعين وثمانمائة مرتين وفى الثانية هدم أسوارها وعزم على استئصال أهلها ، الى أن تشفع اليه علماؤها وصلحاؤها فعفا عنهم ، وكان الباعث له على غزوها أولا ما بلغه من أن الامير محمد بن محمد بن أبى ثابت استولى عليها ، ففعل ما فعل وصاهرهم ببعض حفدته .

وقال صاحب «بدائع السلك» : شاهدت بتلمسان وبعض أعمالها تصريح الخطيب باسم السلطان أبى عمرو عثمان صاحب تونس مقدما فى الذكر على اسم صاحب تلمسان أبى عبد الله من أعقاب بنى زيان لما بينهما من الشرط فى ذلك . وبقيت حال بنى زيان متماسكة الى أن ظهر جنس الاصبنيول فى صدر المائة العاشرة بعد ما تم له ملك الاندلس وعظمت شوكته ، فطمح للتغلب على ثغور المغربين الادنى والاوسط، فاستولى على بجاية سنة عشر وتسعمائة ، ثم على وهران سنة أربع عشرة وتسعمائة وفعل باهلها الافاعيل ثم سما لتملك الجزائر وشره لالتهامها ، وضايق المسلمين فى ثغورهم وضعف بنو زيان عن مقاومته . وكان الشيخ الفقيه الصالح أبو العباس أحمد بن القاضى الزواوى ممن له الشهرة والوجاهة الكبيرة فى بسائط المغرب الاوسط وجباله ، وكانت دولة العثامنة من الترك فى هذه المدة قد زخر عبابهم وملكت أكثر المسكونة ، وظهر من قواد عساكرها البحرية قائدان عظيمان وهما خير الدين باشا وأخوه عروج باشا ، وكانا قد تابعا الغزو على بلاد الكفر برا وبحرا ، وأوقعا بأهل دول الاوربا وقائع شهيرة ، وطار لهم ذكر فى أقطار البلاد ، وتمكن ناموسهم من قلوب العباد ، فكاتبهم الفقيه أبو العباس المذكور وعرفهم بما المسلمون فيه من مضايقة العدو الكافر . وقال : ان بلادنا بقيت لك أو لاخيك او للذئب ، فأقبل الترك نحوه مسرعين واستولى عروج على ثغر الجزائر بعد ما كاد العدو يملكه فتخلصه منه ، ثم استولى على تلمسان وغلب بنى زيان على أمرهم ، وذلك سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة على ما فى « النزهة » . ثم ان أهل تلمسان أنكروا سيرة الترك وسئموا ملكتهم ، ويقال ان الترك عسفوهم وصادروهم على أموالهم ، وكان عروج قد أغرى بالفقيه أبى العباس المستدعى له فقتل شهيدا بعد الثلاثين وتسعمائة ، ورأى عروج أن أمر المغرب الاوسط لا يصفو له مع وجود الفقيه المذكور فدس عليه من قتله، ثم نهض عروج الى بنى يزناسن فكانت الكرة عليه وقتل هنالك مع جماعة من وجوه عسكره وتفرقت جموعه .

وعادت تلمسان الى بنى زيان فجددوا بها رياستهم وأحيوا رمق دولتهم الى أن عاود الترك غزوها بعد حين وانتزعوها من يد صاحبها أبى العباس أحمد

ابن عبد الله من أعقاب يغمراسن بن زيان .

قال في «المرآة» ما نصه : « قال الشيخ الامام قاضي الجماعة أبو محمد عبد الواحد بن أحمد الوانشريسي رحمه الله ومن خطه نقلت : قدم حسن بن خير الدين التركي فاستولى على تلمسان في أواسط شعبان سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة وأخرج منها الامير أحمد بن الامير عبد الله ووزيره منصور بن أبي غانم ولحقا بدبدو مع من انضاف اليهما من أمراء تلمسان وكبرائها ، فغدر بهم عمر ابن يحيى الوطاسي صاحب دبدو وأخذ أموالهم واعتقلهم ، وسرح منصورا في محرم من سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة » اهـ ، واستمرت تلمسان في يد الترك الى أواسط صدر المائة الثالثة عشرة فاستولى عليها الفرنسيس على ما نذكره ان شاء الله .

واعلم أنه كان في صدر هذه المائة العاشرة أمور عظام .

منها ظهور الفرنج بالديار المغربية واستيلاؤهم على ثغورها بما لم يعهد مثله قبل ذلك، لا سيما البرتقال والاصبنيول حسبما تقدمت الاشارة اليه. ومنها ظهور دولة آل عثمان ملوك التركمان بالديار المشرقية وما أضيف لها الظهور الذي لا كفاء له وابتداء هذه الدولة وان كان قبل هذا التاريخ بنحو مائتي سنة لكن انما كان عنفوان شبابها وفيضان عبابها في هذه المدة لاسيما في دولة سلطانهم الاعظم، وخاقانهم الافخم سليمان بن سليمان خان ، فانه ملك أكثر المعمور ، وقام بدعوته من الامم الجمهور ، وهجمت عساكره على ديار الارنا فقاتلوهم في أعز بلادهم ، واستلبوهم من طارفهم وتلادهم ، وخضعت ملوكها لعزته ، واستكانوا لصولته ، وأعطوه يد المقادة وآتوه من الطاعة والخضوع ما خالف العادة . ثم أوطأ عساكره المغربين الادنى والاوسط فاستولى عليهما ، وكاد يتناول الاقصى ويضيفه اليهما على ما تقف عليه في أخبار السعديين ان شاء الله .

ومنها ظهور الاولياء وأهل الصلاح من الملامتية ، وأرباب الاحوال والجذب ، في بلاد الشرق والغرب، لكنه انفتح به للمتسورين على النسبة وأهل الدعوى باب متسع الخرق ، متعسر الرتق ، فاختلط المرعى بالهمل ، وادعى الخصوصية من لا ناقة له فيها ولا جمل ، وصعب على جل الناس التمييز ، حتى

بين البهرج والابريز ، لا سيما العامى الغمر ، الذى لا يفرق بين الحصباء واند
ويرحم الله الشيخ اليوسى اذ قال فى محاضرته ما نصه : « وقد طرق أسما
العوام من قبل اليوم كلام أهل الصولة كفحول القادرية والشاذلية رضى الل
عنهم ، وكلام أرباب الاحوال فى كل زمان ، فتعشقت النفوس ذلك ، وأذعر
له الجمهور وخاضوا فى التشبيه بهم ، فما شئت أن تلقى جاهلا مسرفا عـلى
نفسه لم يعرف بعد ظاهر الشريعة ، فضلا عن أن يعمل ، فضلا عن أن يتخلص الى
الباطن ، فضلا عن أن يكون صاحب مقام الا وجدته يصول ويقول ، ويناب
المنقول والمعقول ، وأكثر ذلك فى أبناء الفقراء ، يريد الواحد منهم أن يتحلى
بحلية أبيه ، ويستتبع أتباعه بغير حق ولا حقيقة بل لمجرد حطام الدنيـــا
فيقول خدام أبى ، وزريبة أبى ، ويضرب عليهم المغرم كمغرم السلطان ، وا
يقبل أن يحبوا أحدا فى الله أو يعرفوه أو يقتدوا به غيره ، واذا رأى مـــر
خرج يطلب دينه أو من يدله على الله تعالى يغضب عليه ويتوعده بالهلاك فى
نفسه وماله ، وقد يقع شيء من المصائب بحكم القضاء والابتلاء فيضيفــــه الى
نفسه فيزداد بذلك هو وأتباعه ضلالا ، ثم يخترق لهم من الخرافات والامو
المعتادة ما يدعيه سيرة ودينا يستهويهم به ، ثم يضمن لهم الجنة على مساوى أعمالهم
والشفاعة يوم المحشر ، ويقبض على لحمة من ذراعه فيقول للجاهل مثلـه
«أنت من هذه اللحمة » فيكتفى جهال العوام بذلك ويبقون فى خدمته ولد
عن والد ، قائلين نحن خدام الدار الفلانية وفى زريبة فلان ، فلا نخرج عنه
وكذا وجدنا آباءنا وهذا هو الضلال المبين . وهؤلاء قطاع العباد عن الله » الى
آخر كلامه فقف عليه فى الفصل الخامس والعشرين منها فانه نفيس وبالله
تعالى التوفيق .

وفى سنة احدى عشرة وتسعمائة توفى الفقيه أبو العباس أحمد بن
عيسى الماواسى البطوى الموقت المشهور .

وفى سنة اثنتى عشرة بعدها توفى الشيخ الفقيه أبو الحسن على بـــن
قاسم التجيبى المعروف بالزقاق فقيه فاس ، وهو صاحب المنظومة اللامية فى عمل
القضاء وغيرها .

وفى سنة أربع عشرة وتسعمائة ، فى يوم الثلاثاء العشرين من صفر منها توفى الشيخ الامام أبو العباس أحمد بن يحيى الوانشريسى مؤلف « المعيار » وغيره من التآليف الحسان ، أصله من تلمسان واستوطن مدينة فاس الى أن توفى بها فى التاريخ المذكور . وفيها أيضا توفى الشيخ الكبير أبو فارس عبد العزيز ابن عبد الحق الحرار المعروف بالتباع دفين حومة الفحول من مراكش من أصحاب الشيخ الجزولى رضى الله عنهما ، وصفه شيخه المذكور بالكيمياء ، وكان يقال : النظرة فيه تغنى ، أفاض الله علينا من مدده .

وفى سنة تسع عشرة وتسعمائة توفى الشيخ الامام العلامة النظار أبو عبد الله محمد بن أحمد بن غازى العثمانى المكناسى ثم الفاسى ، وقد تقدم خبره مع الشيخ أبى محمد الغزوانى رحمهما الله .

وفى سنة ست وعشرين وتسعمائة انحبس المطر بفاس والمغرب واضطر الناس الى استخراج السواقى من الاودية والانهار لسقى زرعهم وثمارهم .

وفى سنة سبع وعشرين بعدها كان الغلاء والجوع الكبير الذى صار تاريخا فى الناس مدة .

وفى سنة ثمان وعشرين بعدها كان الوباء بالمغرب ، سنة الله فى خلقه ، وفى هذه المدة ، أعنى أعوام الثلاثين وتسعمائة على ما فى الدوحة ، توفى الشيخ أبو عبد الله محمد بن منصور السفيانى دفين جزيرة البسابس من بلاد أولاد جلون على مسيرة نصف يوم من مصب نهر سبو فى البحر من جهة المشرق، وكان من أصحاب الشيخ التباع، والروضة التى عليها بناها الشيخ أبوزيد عبد الرحمن المجذوب ، يقال انه لما أكملها رآه فى المنام وألبسه حلة خضراء.

وفى سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة فى ثانى يوم من ربيع الاول منها توفى الشيخ أبو محمد عبد الكريم بن عمر الحاحى المعروف بالفلاح ضجيع القاضى عياض فى روضته بحومة باب ايلان من مراكش ، وهو من أصحاب الشيخ التباع أيضا ، وفى هذه المدة على ما فى « الدوحة » توفى الشيخ أبو يشو مالك بن خدة الصبيحى من عرب صبيح ، كان من أهل العلم والفضل والدين ، ودفن على ضفة نهر سبو على نحو مرحلة من فاس ، وقبره مزارة الى الآن .

١٦٦

وفى سنة خمس وثلاثين وتسعمائة توفى الشيخ أبو محمد الغزوانـــى رضى الله عنه دفين حومة القصور من مراكش ، وقد تقدم شيء من خبره .

وفى أعوام أربعين وتسعمائة توفى الشيخ الكامل أبو عبد الله محمد بن عيسى السفيانى المختار . ثم الفهدى دفين مكناسة الزيتون ، وهو شيخ جليل القدر شهير الذكر رضى الله عنه ونفعنا به آمين .



تم الجزء الرابـع ويليه الجزء الخـامس

أوله :

الخبر عن دولة الاشراف السعديين من آل زيدان

فهرس الموضوعات

فهرس الاعـــلام والقبائل

حرف (ب)

حرف (ت)

حرف (ج)

حرف (ح)

حرف (خ)

حرف (د)

حرف (ذ)

حرف «ر»

حرف [ع]

حرف [غ]

حرف [ف]

حرف [ق]

فهرس الأماكن

حرف [ت]

حرف [ث]

حرف (ج)

حرف (ح)

حرف (خ)

حرف (د)

حرف « ر »

حرف « ز »

حرف « س »

حرف « ق »

حرف « ك »

حرف « م »